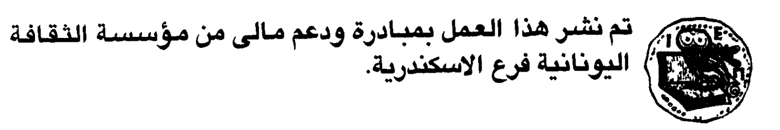
من قائمة اليونيسكو للأعمال النموذجية ١٩٩٤

شوكة فى الفؤاد

حياة الفريق إسماعيل باشا

تاليف: ريا غالاناكى

ترجمة: د. محمد حمدى إبراهيم



تم نشر هذا العمل بمبادرة ودعم مالى من مؤسسة الثقافة اليونانية فرع الاسكندرية.

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

الناشر: مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون: ٥٧٨٦٠٨٣ - فاكس: ٥٧٨٦٨٣٣

تصميم الغلاف:
الفنان هشام بهجت

الغلاف مستوحى من تمثال الفريق إسماعيل باشا الموجود بالمتحف الحربى بالقاهرة.

مقدمة المترجم

عندما طلب منى الأستاذ **فاسيلى فيليبّاتوس**، مدير المركز الثقافى اليونانى بمدينة الإسكندرية، فى شهر ديسمبر عام ٢٠٠٢ أن أقوم بترجمة هذه الرواية التى بين أيدينا، لم أكن أعرف للأمانة شيئاً عن محتواها ولا عن مؤلفتها، فضلاً عن أن الأستاذ **فيليبّاتوس** قد أبرأ ذمته، فأحاطنى علماً بصعوبة لغتها وعمق معانيها رغم صغر حجمها النسبى؛ ولذا فقد قمت بقراءتها مرات عديدة قبل أن أنبرى لترجمتها وقبل أن أخوض هذا المعترك الصعب.

ولكننى ما لبثت بعد فترة من الزمن أن ألفت أسلوب المؤلفة وأنست له، إذ جذبتنى طريقتها المتميزة فى السرد الروائى وحبكة الموضوع وبناء الشخصيات، وقدرتها على التحليل النفسى الرائع لما يعتمل داخل كل شخصية، فضلاً عن مهارتها فى الانتقال الذى لا يكاد يحس بين الماضى والحاضر عن طريق الرؤى والتخيل بطريقة نالت منى الإعجاب. ولقد عوضنى هذا كله عن الصعوبة التى كانت بادية فى التركيبات اللغوية، وفى غرابة بعض المفردات المستخدمة، فضلاً عن أن متعتى قد غدت مضاعفة، عندما وجدت أن معظم أحداث هذه الرواية تدور فى الغالب الأعم فى مصر، أو تتحدث عنها من خلال عيون بطلها **الفريق إسماعيل باشا**.

وبطل هذه الرواية فى الواقع هو **الفريق إسماعيل سليم (باشا)**، الذى تطلق عليه المؤلفة **إسماعيل فريق باشا**، مع أنها تذكر صراحة فى حاشية تقع فى أول الرواية أن كلمة **الفريق** - فى الغالب - عبارة عن رتبة عسكرية وليست جزءاً من الاسم. وتتناول المؤلفة فى هذه الرواية **حياة الفريق إسماعيل باشا** اليونانى

المولد والذى وقع فى الأسر وهو غلام، ثم اقتاده آسروه إلى مصر، حيث أصبح مسلماً وتعلم فى الكلية الحربية وتخرج منها، ثم ترقى فى سلك وظائف الجيش حتى حصل على رتبة فريق؛ ثم أصبح وزيراً للحربية فى عهد **إبراهيم باشا** وكان صديقاً حميماً له مقرباً إلى نفسه. ولقد لقى **الفريق إسماعيل باشا** نحبه فى إحدى المعارك التى دارت أثناء الحرب (١٨٦٦ ـ ١٨٦٨) التى نشبت فى **جزيرة كريت** بين الجيش العثمانى الذى كان يعاونه آنذاك الجيش المصرى وبين المتمردين الثوار، الذين شقوا عصا الطاعة على الإمبراطورية العثمانية. ولقد توصلت المؤلفة عن طريق قراءاتها التاريخية إلى أن **الفريق إسماعيل باشا** كان قبل أسره شقيقا **لأنطونيوس كامبانيس باباذاكيس**، الذى كان واحداً من الشخصيات الثرية التى مولت بسخاء نفقات حرب التحرير، وساندت الثوار المتمردين فى بلاد اليونان إبان القرن التاسع عشر؛ ثم تذكر المؤلفة أن الاسم اليونانى للفريق **إسماعيل باشا** كان على الأرجح **عمانويل (أو إيمانويل)**. ولقد استقت المؤلفة مادتها من المصادر التاريخية وهى قليلة، وكذا من الروايات الشفوية التى توارثتها الأجيال المتعاقبة عن هذه الشخصية، واستطاعت أن تكمل بخيالها ما كان فيها من فجوات أو ثغرات. ولقد نجحت المؤلفة فى أن تمزج بين الواقع والخيال مزجاً تاماً، بحيث غدت مواصفات شخصية **الفريق إسماعيل باشا** ـ رغم ما كان لها من وجود تاريخى ـ وكأنها من نسيج الخيال.

أما العنوان الجانبى الذى أطلقته المؤلفة على روايتها وهو Spina nel cuore، أى: «**شوكة فى الفؤاد**»، فقد كان عبارة أطلقتها سلطات **فينيسيا** قديماً على **هضبة لاسيثيوس** بجزيرة **كريت**، وكانت تصف بها هذه الهضبة على أنها «**شوكة فى قلب فينيسيا**». ولقد عثرت المؤلفة على هذه العبارة فى مخطوط فينيسى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث عشر، وبينت لنا المؤلفة أن هذه الهضبة كانت مسقط رأس **الفريق إسماعيل** باشا وأسرته من قديم.

والرواية زاخرة بالأحداث والمواقف الإنسانية المشحونة بالعواطف النبيلة، والمؤلفة تمزج من خلالها التاريخ بالخيال - كما ذكرنا - مزجاً ماهراً يستعصى على القارئ أن يرفضه، رغم علمه المسبق بأن هذا المزج من نسج الخيال. ولقد أحسست من خلال ترجمتى لهذه الرواية أن المؤلفة تحب وطنها وحضارتها حباً جماً لا مزيد عليه، ولكنها فى نفس الوقت تحب وطننا مصر حباً فائقاً وتعلن عن هذا الحب بغير مواربة، فضلاً عن أن تقييمها التاريخى **للعاهل محمد على** وابنه **إبراهيم باشا** كان تقييماً ناضجاً محايداً بعيداً عن التحيز والمجاملة، وخالياً من أى روح للعداء العرقى أو الدينى. فالمؤلفة تتغنى بجمال الطبيعة فى مصر، وتشيد بمواطنيها وبدور مصر العظيم الذى لعبته فى سياسة المنطقة، رغم أنها كانت آنذاك بلداً خاضعاً للحكم العثمانى مثل بلاد اليونان سواء بسواء، كما بينت المؤلفة فى روايتها أن تفوق مصر يرجع إلى عراقة حضارتها، وإلى أخذها بأسباب التقدم والتحديث، وإلى انفتاحها على أوروبا وحرصها على بناء قوتها الذاتية عسكرياً واقتصادياً، وإلى رجاحة فكر قادتها وخبرتهم الفائقة بالحكم.

هذه الرواية إذن تصف حياة **الفريق إسماعيل باشا**، وتعرض أحداثها من خلال طريقتين للسرد القصصى (على لسان كل من المتكلم والغائب)، وهى طريقة تجعل النسيج الروائى مترابطاً ومحكماً فى لحمته وسداه، فى إطار ثنائيات تثير الإعجاب: الأسر ثم العودة لمسقط الرأس، مشاعر الإنسان البرئ ومشاعر الإنسان المذنب، استدعاء الموت للحياة وذهاب الحياة إلى الموت، التسامى بالنسبة للحياة التى ضاعت ثم الإنحاء باللائمة عليها وتكذيبها بعد ذلك. وهناك أفكار أخرى رائعة عن الفخاخ التى ينصبها التاريخ للإنسان فى كل مرحلة عمرية، وعن إدخال الأفكار الأوروبية الحديثة إلى دول الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، وعن عالم البطل الوجدانى الذى تقوقع داخله أو انغلق داخل حدوده... كل هذه العناصر تمثل الأساس الذى قامت عليه الموضوعات الرئيسية التى تدور حولها الرواية.

ولقد استغرقت منى ترجمة هذه الرواية على صغر حجمها وقتاً ليس بالقليل، إذ أتحت لنفسى فسحة مناسبة من الوقت لمراجعتها وتنقيحها وتجويد اللغة العربية لأقصى حد ممكن، ولاستشارة المؤلفة فيما غمض علىّ فهمه من كلمات، كان بعضها من أصل تركى وبعضها الآخر يرجع إلى أصول محلية ولا يمكن العثور عليه عادة فى المعاجم أو القواميس المتاحة لى، ولكنه كان شائعاً فى جزيرة كريت، مسقط رأس بطل الرواية ومسقط رأس المؤلفة فى ذات الوقت.

والحق أننى أدين لزميلى السيد الدكتور/ **شوقى حسن أحمد**، أستاذ اللغة التركية بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة، بمزيد العرفان والتقدير، لتفضله بتوضيح معنى عدد لا بأس به من الكلمات ذات الأصل التركى، التى دخلت إلى اللغة اليونانية بصورتها التركية بعد تحويرها إلى حد ما، وكذلك لتكرمه بشرح معانى كلمات تركية أخرى من أسماء الأعلام والأماكن رسمتها المؤلفة فى روايتها بحروف يونانية، وساعدنى سيادته على رسمها بصورتها التركية الأصلية.

وختاماً فإننى أبتهل إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجعل عملى هذا ـ كما أملت من ورائه ـ نافعاً للقراء من بنى وطنى، ممن يتوقون للمعرفة ولتذوق الأدب الرفيع، ويغتبطون بالترجمة المتقنة عن الأصل اليونانى، التى تتم صياغتها فى لغة عربية جزلة فصيحة سهلة الفهم رغم شموخها. وأتمنى فى ذات الوقت أن أكون قد أسهمت بجهد ولو يسير فى **مسيرة التواصل بين الحضارات**، عن طريق نقل فكر يونانى معاصر يبدى الرأى الناصع فى حقبة مهمة من تاريخنا الحديث، زاخرة بالأحداث الجسام والمجد العسكرى والتقدم الحضارى الذى شهد به القاصى قبل الدانى.

والله من وراء القصد وهو يهدى سواء السبيل.

المترجم/ د. محمد حمدى إبراهيم

نبذة عن مؤلفة الرواية

المؤلفة هى السيدة/ **ريا غالاناكى** التى ولدت فى مدينة **هيراكليون** بجزيرة **كريت** ببلاد اليونان عام ١٩٤٧. ودرست التاريخ والآثار بكلية الآداب - جامعة أثينا؛ اضطلعت - بتأليف قصائد شعرية، وقصص قصيرة، ومقالات، وروايات عديدة. وكانت أولى أعمالها هى رواية «**الفريق إسماعيل باشا**»، حيث نشرتها عام ١٩٨٩، وظلت تعيد نشرها إلى أن صدرت الطبعة السادسة منها عام ١٩٩٥عن دار **أجرا Agra** للنشر. وتمت ترجمة هذه الرواية عام ١٩٩٢ إلى اللغة الفرنسية ونشرت فى فرنسا، ثم تبعتها ترجمة أخرى لنفس الرواية إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٩٦، وترجمات أخرى إلى الألمانية والتركية والهولندية والبلغارية. ولقد نالت المؤلفة عن روايتها الأولى هذه جائزة **منظمة اليونسكو**، التى أدرجتها ضمن مجموعة الأعمال الممثلة لها عام ١٩٩٤.

وفى شهر يوليو من عام ١٩٩٣ نشرت السيدة **ريا غالاناكى** روايتها الثانية: «**سوف أوقع، يالويس**: Tha Ypographo Loui»، التى تم نشرها لأول مرة فى الولايات المتحدة الإمريكية. وفى شهر أبريل من عام ١٩٩٧ نشرت عملاً نقدياً بعنوان: «**ملك أم جندى؟**» (**ملاحظات - أفكار - تعليقات عن الأدب**):Basileus: ê Stratiôtês. وفى شهر مايو من عام ١٩٩٨ نشرت روايتها الثالثة «**إما إيلينى أو لا أحد!**»: Elenê ê Kanenas، التى تعتمد فى مادتها على الحياة الواقعية للسيدة **إيلينى التامورا** Elenê Altamoura. ولقد نالت هذه الراوية **جائزة الدولة للرواية** فى بلاد اليونان عام ١٩٩٩، ومثلث بلاد اليونان فى جائزة التميز

الأدبى، وحصلت على أحد المراكز الثلاثة الأولى فيها. وتمت ترجمتها إلى اللغتين الأسبانية والإيطالية.

ولقد كرمت السيدة/ **ريا غالاناكى** أيضاً بمنحها جائزة الأديب الشهير **نيقوس كازنتزاكيس** التى يمنحها مجلس مدينة **هيراكليون** بجزيرة **كريت**، كما فازت كذلك بجائزة تعرف باسم «**ترانوليس**»، وبألوان أخرى من التقدير والتكريم.

الجزء الأول

سنوات مصر «الأسطورة»

الفصل الأول

طفق الغلام يفكر كيف أن المفتاح كان خليقاً بأن يعود من جديد إلى القفل، وأن يهيمن بنغمة معدنية رقيقة على مرور الحياة فى تتابعها الرتيب؛ ثم أخذ يحسب حساب الافتراضات المحتملة على أصابعه: آه لو أن الأتراك والمصريين لم يضرموا النار فى القرية !.. آه لو أن فصائل فرسانهم احتشدت من كافة أنحاء الهضبة ثم انطلقت من ذات الممر الذى لم يكن يحرسه أحد واندفعت نحو ذلك الموقع المنيع!.. آه لو أن المسيح استجاب لتوسلاتهم ولم يساو فى حكمه بين ما هو محجوب فى أستار الغيب وما هو جلى للعيان !.. وأخيراً.. آه لو أن الجن والنيريديات القاطنات فى الكهوف اتحدن وتكاتفن مع القديسين فى الكنائس!!!

ثم تناهى إلى سمعه صوت أمه وهى تنادى عليه من مدخل الكهف، ولمح الضوء وهو يشطر طيفها ويشكل صورة خط مائل بدءً بصفحة السماء الزرقاء وانتهاءً بخضرة النباتات المائية التى كانت تغطى الصخور القريبة من مدخل الكهف. وأحس الغلام بأن صوتها يماثل خطاً مائلاً أيضاً، خطاً سماوياً أخضر اللون، ينفصل عن (طيف) جسدها ثم يهبط ليقف مائلاً إلى جوارها فى اللحظة التى يحل فيها الظلام.. كانت الظلمة حالكة دامسة، أكثر سواداً من جذوع الخشب التى تبقت فى ركن من مدفأة المنزل. ووسط الظلام والسواد لم يكن هناك سبيل لتبين أية حركة: فأما اليد التى كانت جاثمة على المغزل فقد أبت أن تدور منها الأصابع، وأما اليد الممسكة باللجام فقد أبت أن ينثنى منها المعصم، كذلك تسمرت يد الأخ الأكبر وهى قابضة على ثمرات التفاح. وهنا تبدد أريج ثمرات التفاح (فى الفضاء)، ولم يعد ممكنا أن يسمع حفيف أوراق الأشجار ولا صوت حيوان ولا حتى صراخ العدو. وخيم الظلام بكلكله ثم فغر فاه وابتلع مفتاح المنزل.

ثم تناهى إلى سمعه من جديد صوت أمه.. وحتى ذلك الحين كانت صفحة أيام حياته التى تترقرق كالمياه قد شرعت تعكس صوراً سريعة ومتفرقة، فجاء صوت

الأم ليشتت شملها، وكأنه كان ينهمر مع خرير الماء ويتدفق معه رقراقاً. ولم تسول له نفسه أن يقترب منها، ذلك لأنه كان يرغب أولاً فى التعرف على ظلمة الكهف. فدلف إلى قاعات لم تشيدها أيدى بنائين. وهنالك كانت أعمدة لم يقدر لها أن تكتمل، تتشكل (هيئتها) من قطرات بلورية صاغتها صورة من العذاب المجسم، ولهذا كانت هذه الأعمدة تتقبل ما يمنح لها من ذكريات. ثم أضاء الغلام نور الشمعة (ليتبين صورة) الأيدى الجاثمة على المغزل بغير حركة، وصورة الأيدى الممسكة باللجام وتلك القابضة على ثمرات التفاح. ودار بخلد الغلام أنه لو كانت لديه شموع كثيرة لصار فى إمكانه أن يضئ بنورها أصداء الأصوات التى كانت تتردد فى أنحاء المنزل، وكذلك الأريج الذى كان يتضوع فى أرجائه. ثم تقدم (الغلام) على مهل وسط **الصواعد** المشرئبة فى فراغ الكهف وهى تتصاعد إلى أعلى حثيثاً فى انتظار أن تلامس **الهوابط** التى تتنزل من أعلى الكهف. وكانت حركة الغلام ترتسم فى خطوط باهتة شاحبة على صفحة الصخور المتحجرة وكأنها رسمت بلون خلايا النحل الشمعية. وعندما لامست يده إحدى الصخور أحس وكأنه يلامس الندى الذى يكسو الخضراوات فى الحديقة فى ساعة مبكرة من الصباح. وجال بخاطره ـ طالما كان بوسعه أيضاً أن يركز أبصاره على البساتين والحدائق ـ أنه لا أثر هناك حوله لرقى أو تعاويذ أو تمائم سحرية، أو لعلها ليست هى تلك التى عرفها وألفها من قبل، فشعر بالخوف. ولعل الكبار كانوا على حق حينما حرموا على الصبية الصغار أن يلجوا داخل الكهف، فامتثل لهم هو نفسه بامتثال الانتظار دون أن ينبس ببنت شفه.

اشتد البرد، وتناهى إلى سمعه صوت سقوط قطرات ثقيلة من المطر حوله، وتضاعف صدى هذا الصوت كثيراً بفعل طنين النحلات. وتذكر الغلام كلمات كان قد سمعها من قبل مؤداها أن الكهف كان فى سالف الأزمان يعج بأسراب النحل، وإن لم يزعم أحد أنه رأى ذلك من قبل بعينى رأسه. فقال لنفسه: ربما نتج هذا الطنين عن أصوات أولئك المحتشدين عند مدخل الكهف، وهى الأصوات التى كانوا

يعبرون بها عن ذعرهم من العثمانيين بعد أن ضخمها الصدى بطريقة غير طبيعية.. إذ كان الرجال (الأشداء) قد انطلقوا إلى شعاب الجبال التى كانت تطوق الهضبة، أما المستضعفون من النساء والولدان فكانوا يتجمعون فى مدخل الكهف وهم أقرب للتثاقل منهم للنشاط والحيوية. ولم يجسر هؤلاء المستضعفون على التقدم داخل الكهف خوفاً من الظلام الدامس (ولا على الخروج منه) فرقاً من العدو (الغادر)، اذ كانوا قد ورثوا عن أسلافهم الأقدمين عذاباً من شأنه أن يقض مضاجعهم، مؤداه: أن كل المقولات التى استمعوا إليها ثم تخيلوها بعد ذلك على أنها حياة على الأرض مغلقة بالأسرار، ربما اندفع (صوتها) إلى داخل الكهف منطلقة من فتحة فى جسدهم الآثم ثم اتخذت فجأة صورة عذاب الجحيم. وباللون الأسود ذاته قام أولئك الذين لم تنطق شفاههم بأى لفظ برسم صورة لظلمة عذاب الجحيم فى لوحاتهم، وربما كان هذا يعتبر أيضاً نوعاً من أنواع الجنوح وتخطى الحدود؛ وبالتالى فإنه قد غدا بوسع العدو أن يمارس الآن ما كان قد حدث قبلا تحت أستار الظلام.

تشتت ذهن الغلام فى خضم الصور التى لم يقدر لرسمها أن يكتمل، وفى خضم الأشكال التى رسمها، والتى سوف يتذكرها عندما يشب عن الطوق بوصفها لوناً من ألوان عذابات الفكر التى تهيمن عليها لذة حب الاستطلاع. فكثيراً ما اعتبرها ذكرى بالغة القوة لحياة الأسر التى رسف فى أغلالها من قبل، غير أنه فيما بعد نحاها عن فكره ونبذها، حيث إنه عجز عن استرجاع وجوه ذويه التى أوشك النسيان أن يطويها، وكان راغباً حقاً فى أن يخفف عن نفسه وطأة هذا النسيان الذى لا محيص عنه. ومع ذلك فقد تذكر أنه طالما ولج إلى الكهف بقدميه، فجدير به أن يعتقد أنه لا يليق بالذعر أن يستبد به. وفى قابل الزمان سوف يجد لنفسه عذراً ومبرراً، طالما أن هذا الخوف ذاته هو الذى يمنح كل ربيع ثمار التفاح فوق الهضبة حجمها الكبير. ولسوف يقدر له أن يتتبع آثار هذا الخوف فى كل صورة مجهولة لم يرها من قبل مرسومة، وكأنها خطيئة بغير جسد. فماذا عساها كانت تلك المدية الخضراء التى اعتراها الصدأ، والتى تم العثور عليها آنذاك فى ظلمات الكهف؟ إن

صورتها أخفقت فى أن تذكره بأى نوع معروف من أنواع المدى المسيحية أو العربية. إنه لم ينتزع هذه المدية من ثياب الباشا العثمانى المطرزة إلا لأنه اعتقد على الأرجح أنها حسام ملاك متسامح نذر حياته بأسرها لتسير فى فلك الخناجر والمدى. ذلك أن الأحداث التى وقعت بعد ذلك كانت مباغتة وعنيفة حتى أنها لم تسفر عن ترك انطباع مختلف أو دليل غير مألوف فى نفس الغلام.

ثم تناهت إلى سمعه من جهة المدخل صيحات الأعداء وصرخات النساء، فخيل إليه لوهلة أن كل هذه الصرخات تنبعث من صدر أمه فهرع من فوره كى يدفن نفسه فى ذلك الصدر دون سواه؛ لكنه تعثر فى مشيته وفقد الشمعة.. وعبثاً جاهد بعدها كى يعثر على طريقه وسط الظلام. ثم تراءى له فى جهة ما وميض أصفر اللون فانتابه الذعر خوفاً من أن يكون قد أوغل داخل الكهف بدلاً من أن يخرج منه. وهنا تذكر حكايات أخرى عن بريق قرمزى كان يتراءى قديماً فى أعماق الكهف، وما صاحب ذلك من تفسيرات له على أنه حمرة قانية ناتجة عن مخاض ولادة بالغة القدم، دم ينزف من رحم امرأة كانت تضع مولودها بجوار نار معدة لغلى الماء فى الغلايات. وهنا رسم علامة الصليب مستعيذا بها لطرد روح ذلك الطفل الرضيع الشريرة، ومضى فى خطاه قاصداً الوميض البادى أمامه، وتبين له أنها النيران التى كان الأعداء قد أضرموها عند مدخل الكهف. ووسط ألسنة النيران بزغ أمامه من جديد (طيف) أمه مرتدية ثياباً ممزقة، وكانت جدائل شعرها محلولة، وكانت تسحب أخاه الأكبر من ذراعه.. كانت عيناها ترنوان للخلف من خلال محيا هذا (الأخ) الضئيل وقد استبد بها الجنون، وبعدها تعثرت فى الظلام الكثيف.. وهنالك فى الجزء العلوى رمقته مرتسماً أمامها ولونه شاهق البياض، فتعرفت عليه ونادت عليه باسمه مرتين ثم ركضت مسرعة لتحتضنه.

تذكر **الفريق إسماعيل باشا** فيما بعد أن صيحة أمه تلك عندما نادت عليه مرتين قد دوت فى أذنيه مثل رنين النحاس، ذلك أن هذه الصيحة كانت تعنى ختام حياته الأولى وانطفاء نورها، ومستهل حياته الثانية؛ وكان ذلك أمراً سابقاً لأوانه

بكثير وأشد قسوة عليه من وصوله إلى سن البلوغ. ثم أردف يحدث نفسه قائلاً إن الطفل الذى خر مغشياً عليه فى أحضان أمه التى استبد بها الجنون قد استغرق بعدها فى سبات الموت الرائع الذى لا يستمتع به سوى الأطفال.. وإن أمه ذاتها قد ارتفعت عالياً فوق دائرة البشر، فاستقرت فى رحمها بذرة خصبة فى غمضة عين، فحملتها فى بطنها وولدتها وربتها حتى كبرت وغدت ابنها الجديد. وتذكر كيف قدر له فيما بعد أن يخرج من الكهف ويداه موثقتان خلف ظهره ليبدأ حياته الجديدة كأسير. ولعله لم يكن قادراً على تحمل معاناة هذه التجربة لو أنها تمت بطريقة مختلفة، فلم يكن أمامه خيار آخر سوى أن يحس بأنه ميت بالفعل. ولكن فكره المنطقى قد دعم الحقيقة الراهنة وهى أنه مجرد غلام، أى رجل صغير، وأن مكانه الطبيعى هو ميدان (القتال) وسط جثث الرجال المذبوحين بجوار (جثة) والده على وجه التحديد. وفى النهاية فإنها لم تكن حادثة عشوائية تماماً تلك التى استحثت قدره فجعلته يلج فى اللحظة الحاسمة إلى ذلك الكهف المحرم.

وكانت أول صورة يلمحها وهو مازال طفلاً وليداً هى صورة الكهف. ورغم أن هذه الصورة كانت عتيقة بمثل قدم ذاكرته إلا أنها مازالت تتبدى له حتى اللحظة الحاضرة وكأنها مألوفة وجديدة. ثم تراءت بالقرب من يديه المربوطتين، وعينيه اللتين كانتا تتحركان بحرية، أشجار سنديان باسقة وشجرة جميز ضخمة، كما تراءى أمامه أخدود صغير يمتد مع انحناءة جانب الجبل المواجه له. وكان هذا الأخدود يخفى مدخل الكهف، فتعجب لدى رؤيته من أن الطبيعة قد أجهدت نفسها عبثاً فى حفر هذا الكهف رغم أن الأقدام تجاسرت فيما بعد على أن تطأه، ومن أن القدامى كانوا ذوى حكمة بالغة وبصيرة حينما نسجوا حوله خيالات (أسطورية) شتى. وهنا حلق صقران عالياً بالقرب من الأسير ثم حطا بسرعة وقبعا وهما يتربصان عبر السهل بغية الانقضاض على الفريسة، وكانت أنظاره تتبعهما أثناء هبوطهما على الهضبة التى تشبه القرص المستدير. أما ترع الرى الفينيسية - التى كانت تقسم الأرض عن طريق قنوات المياه إلى مربعات كبيرة لونها بنى - فقد بدت له وكأنها ملك

الموت وأنها تظهر الترتيب المتناسق لما خلقته يد الطبيعة من إبداع يخلو من سفك الدماء خلال فصل الخريف. لم تكن البذور بادية للعيان فى القنوات المحفورة، أما ثمرات التفاح المتدلية من شجرات التفاح المتراصة فكانت تبتهل فى صلاة جماعية عسى أن تحظى بقطرات من الدماء.

وكان إكليل الجبال الصخرى الذى فرد أغصانه برقه ونعومة يهصر السهل الملامس للأفق، فرنا الغلام ببصره إلى القرى المتناثرة هنالك التى كان يلتقى عندها محور الهضبة بما فيه من أوتاد الجبال، وفى غضون لحظة واحدة أدرك أنه يراها بنفس الصورة التى عرفها بها دوماً. ثم رأى فى التو من بعد ذلك ألسنة النيران وهى تطوق المنازل والأشجار لتشكل معها لوحة للهزيمة والانكسار. ثم أرجع البصر كرتين ليشاهد هؤلاء الذين جندلوا صرعى فى الساحة، وأحصى عدد الأسرى فوجد أنه يربو على الأربعمائة ما بين نساء وأطفال ورجال عجزوا عن خوض غمار القتال، ناهيك عن الدواب التى تم أسرها وما شابه ذلك من الغنائم والأسلاب.

ثم حول أبصاره عن ألسنة النيران وتطلع إلى أديم الأرض الممتد أمام قدميه، فوجده عبارة عن صخور وتربه يابسة. وكان **حسن باشا**، قاهر الهضاب وزوج ابنة والى **مصر محمد على باشا**، قد عبر هذه اليابسة وعاد أدراجه إلى الخندق منتصراً. غير أن حجم فرسه (الضخم)، وهو ممتط صهوته، قد عجز عن تخطى فراشة ضئيلة الحجم كانت تحلق آنذاك طائرة فى الجو.. فلقد رأى (الغلام) بعينى رأسه الفرس وهو يجفل من الذعر ويطرح بفارسه على الأرض. وهنا هرع الغلام ليساعد الفارس الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة على النهوض من كبوته، وكان الغلام فى أثناء ذلك يمسك بعناية بتلاليبه وأطراف ثيابه ذات اللون الأحمر، غير أنه سرعان ما ألقى بهذا الفارس على الأرض وقد استبد به الذعر، إذ كان وجه هذا الغازى المنتصر يكاد يماثل وجهه هو.

وبعد انقضاء بضعة أيام على ذلك قام العثمانيون برفع جثمان **حسن باشا** الذى لفظ أنفاسه الأخيرة، بعد أن سقط من فوق صهوة جواده المذعور بينما كان

متوجهاً فى طريقه إلى المدينة، ثم قاموا بنقله سراً إلى الخندق لدفنه هناك خوفا من أن يؤدى انتشار خبر موته إلى بث الحماسة فى نفوس أعدائه المهزومين.

الفصل الثانى

وطفق **الفريق إسماعيل باشا** يفكر بعد ذلك فى مصر، ولعله كان يحظى بالفطرة على طبيعة مزدوجة يجتمع فيها شخصان: أولهما على وشك الموت والثانى على وشك الميلاد، ولعله أيضاً كان عليه أن يحيا بمشاعر تلك اللحظة بأطهر طريقة. فمنذ سنوات طويلة قبضت يده على الثرى عند آخر عناق لأمه، وتولد فى نفسه انطباع بأنه طالما يضم هذا الثرى بشدة فبوسعه أن يتوحد مع مركز الأرض الذى يستقر فى فؤادها. ولم يكن هذا مجرد نوع من القسم ولا مجرد رغبة من القلب ينبئ نبضها الدافق بنذر المستقبل. ولقد ظلت هذه الذكرى من ذكريات حياته سبباً لوحدة موحشة أكثر قسوة من (صورة) ملاك شديد الإخلاص يحتل وسادة طفل حديث الولادة. كذلك عندما علم فيما بعد بالروايات الثلاث المتواترة عن مصير والدته المفجع لم يستطع أن يتقبل برضى فقدانها المباغت، فلقد تسبب الحزن الذى يستحيل التعبير عنه فى بث الاضطراب مراراً فى لياليه. فكثيراً ما خرج آنذاك إلى البهو المسقوف بالأعمدة فى منزله الكبير وجاهد سعياً وراء تخفيف وطأة حزنه، مستغرقاً فى الإنصات لصوت خرير الماء وهو ينساب من النافورة ذات الأضلاع المتعددة. وبفضل تكرار سقوط قطرات المياه الرتيب تخلى عن فكرته الخيالية عن دورة الحياة، وهى فكرة ظل يحتفظ بها داخل نفسه فى طى الكتمان. وكثيراً ما فضل التأمل والإنصات للموسيقى الناتجة عن خرير الماء على الفوز الذى يمكن أن تعلنه طبول المنتصرين فى جيشه.

لقد عرف بما حدث لوالدته بمجرد أن شرع فى العودة، وهكذا استجمع شتات فكره وقال لنفسه: إنها الصفحة الأخيرة فى حياة الغلام الذى وخط الشيب سنوات عمره للوهلة الأولى.. أو بالأحرى فإن غلام الكهف النائم قد وفد فى نشاط وحيوية فائقة وكأنه يبتسم لغلام آخر سوف يقدر له أن يواصل حياته فى مصر ربما حتى سن الشيخوخة وحتى يبلغ من العمر أرذله.

كان **الفريق إسماعيل باشا** يرقب بريق المياه وهى تترقرق عند ارتطامها بأضلاع النافورة. وبدت له رغبته فى أن يحظى بشيخوخة هادئة ترفرف عليها السعادة بمثابة كبرياء سافرة، حيث إن حياته كانت تدور فى مسار صنعته الخناجر والمدى، وحيث إنه لاقى الموت مرة وكان هذا سبباً فى قلب ما كان مقدراً له من ترتيب وتوازن رأساً على عقب، حيث لن تسمح له أية واحدة من الروايات الثلاث المتواترة عن مصير والدته أن يلامس جسد امرأة قط بدون خوف طوال ما بقى له من سنوات عمره. فلقد كانت أمه هى المرأة الوحيدة التى أحبته ومنحته عاطفتها أثناء حياته فى غرف متواضعة وبساتين تكتنفها السكينة والهدوء، ولكنها غدت فريسة للعذاب بسبب خسارتها الجسيمة على أثر فقد زوجها وموت فلذات أكبادها، فكيف يصبح فى وسعه مع خسارته الأقل شأناً أن ينشد نهاية يغلفها الهدوء والسلام؟

وطالما أنه أصبح غير قادر على تخيلها وإبعاد طيفها عنه، فإنه طفق يراها بصورها الثلاث، لا مثلما لمحها فى المرة الأخيرة وهى ترتدى أجمل ملابسها وتتوج هامتها بإكليل مزدوج من جدائل شعرها. وكانت وهى فى ثيابها هذه تبدو وكأنها غدت جارية أو أمة فى **القسطنطينية**، إذ تبخرت فى الهواء بمجرد أن رفعت ذيل تنورتها كى تطأ بقدمها اللوح الخشبى الذى سوف تعبره إلى رصيف الميناء المرمرى، حيث تبحر من هناك إلى مقر الحريم لدى الأتراك. كانت وهى مرتدية ثيابها على هذا النحو تبدو فى ذات الصورة التى بدت عليها عندما اغتالت فى الليلة الأولى ذلك الرجل الألبانى الذى اختطفها من الكهف وحاول اغتصابها، دون أن يحسب حساباً لحب أسيرته هذه الجارف والمستمر لزوجها وفلذات أكبادها. لقد صبغ الدم المتناثر من جراح هذا الألبانى ثوبها المخملى باللون الأسود. وهكذا أمكنها على أثر ذلك أن تنسل خارجة دون أن يلمحها أحد من معسكر الأعداء،حيث ساد الاضطراب الجم صفوف الجنود الذين ملأ التعصب جوانحهم. وبعدها اغتسلت فى جدول ماء حيث أزالت بمياهه اللون الأسود عن ثوبها وجعلت المخمل

المصنوع منه الثوب يبرق من جديد.وحيث إن المرأة لم تكن تعرف إلى أين تمضى بعد ذلك ، فقد شقت طريقها صاعدة إلى الجبال التى كانت آنذاك قد أقفرت من الثوار، وعادت مرة أخرى لتصبح مسرحاً تطير فوقه الطيور الجارحة ويسطع عليه القمر الذى يبرق على الصخور، وتتناثر عليه كتل الصقيع التى لا يمكن للمرء احتمال برودتها. وغدا الدم الذى يغطى الآن كفيها وكعبيها هو الدم الذى ينزف منها ،وعندما أبصرت عيناها تلك الدماء أدركت أنها أخطأت حينما قتلت ذلك الألبانى حيث كان ينبغى عليها أن تقتل نفسها؛ ولعل عنف اللحظة هو الذى محا من ذهنها إثم الانتحار ووحدها فى السماء مع روح زوجها التى صارت حرة طليقة بعد مصرعه. ومن ثم فقد طفقت تنشد ما ظل عالقاً بذاكرتها من صلوات رتلت عند عقد القران، حينما شرعت ساعتها فى تطويق وجه زوجها الرطب ووجهها بأكاليل من الزهور لم تكن موجودة سوى فى مخيلتها. ثم بعد ذلك حينما غمست أبناءها فى حفرة زاخرة بالماء لتعمدهم بعد أن كسرت قطعة من الثلج بقبضة يدها. وكانت قد عقدت العزم على ألا تشرب حتى الماء، وأن تظل إلى أن يحين أجلها وتلقى حتفها دون أن تبدو خاطئة آثمة قاسية الفؤاد. وظلت تسير وهى تنشد الصلوات على أمل أن تستغرق فيها روحاً وجسداً. ولم يرها أى شخص بعد ذلك فى القرية التى كان يجتمع بها نفر قليل،سواء ممن قدرت لهم النجاة من الحسام التركى المحدب (**اليطقان**)، أو ممن نجوا من البيع فى سوق النخاسة. ولكن حينما كان اسمها يتردد فإن ذبالة الضوء الخافتة أمامهم كانت تتراقص فى القنديل، كما كانت قشعريرة باردة تماثل تلك الوافدة من الجبال تسرى فى أوصالهم.. فكانوا يفسحون حينئذ مكاناً صغيراً بينهم بالقرب من النار المشتعلة على أمل أن تتمكن روحها الهائمة من تجفيف دموعها.

ولقد حبذ **الفريق إسماعيل باشا** الرواية الثالثة (من روايات موتها) على اعتبار أنها أكثرها قدرة على أن تعكس محبة البشر وأكثرها مدعاة للتصديق. ووفقاً لهذه الرواية فإن أمه قد عادت إلى منزلها وحفظت مفتاح باب المنزل فى

الصندوق الذى كان آنذاك خالياً تقريباً، قائلة لنفسها إنه ما عادت هناك ضرورة لبقاء الباب مغلقاً. وكانت هى الوحيدة التى قامت بدفن زوجها مع تلك الحفنة من الناس الذين قدر لهم أن يظلوا باقين على قيد الحياة وأن يفلحوا فى مواصلة العيش؛ وكانت ترتدى أثناء الدفن وأثناء العزاء ثوباً مخملياً. كذلك كانت هى الوحيدة التى لم تقص جدائل شعرها كى تلقى بها فوق جثث المقبورين المعذبة. وعندما كانوا يهمون بالانصراف نظروا إليها فإذا بقدميها لا تطآن الأرض، بل ترتفعان فى الهواء وتعلوان بمقدار شبر فوق الأوحال. ولعل هذا قد ساعدها على العودة بسرعة لمنزلها لإنجاز ما كان مطلوباً منها من أعمال، وكأنه كان مقدراً لها أن تحظى تماماً بدفقة من روح الحياة، بينما كان مقدراً للآخرين أن يحظوا بلفحة من لفحات الموت. ومن ثم فقد تسنى لها أن تؤجر ضيعتها الصغيرة وأن تحتفظ لنفسها بمهمة القيام بأعمال المنزل بالإضافة إلى أعمال أخرى يسيرة فى بساتين الفاكهة. غير أنها لم تخلع عن جسمها أبداً ثوبها الأنيق (الفاخر) سواء أكانت فى منزلها أو فى بساتين الفاكهة. ولكن عندما تطرق البلى إلى ثوبها المخملى بمرور الزمن، وأحست أنه لا يليق بها أن تخرج بثوب مهلهل خرق، أحجمت عن مغادرة المنزل وكأنها جعلت سنوات عمرها رهناً بقدرة نسيج القماش على التحمل والصمود.

وذات صباح ارتاب الجيران على أثر انتشار رائحة منبعثة من منزلها فهشموا الباب وولجوا داخل المنزل حيث عثروا عليها وقد فارقت الحياة، وكانت تقريباً عارية، إذ تطرق البلى إلى ثوبها المخملى. غير أن المرأة كانت قد طرحت آنذاك فوق جسدها قطعة قماش قطنية كانت تخص زوجها وأبناءها، وكانت تفاهة شأن هذه القطعة من القماش القابعة فى قاع الصندوق سبباً فى عدم استيلاء الأعداء عليها.

وبعد أن ارتدى الغلام ملابسه تحرك بصحبة أخيه ، إذ سمحت له طبيعته المزدوجة التى يجتمع فيها شخصان أولهما على وشك الموت والثانى على وشك الميلاد أن يلتقى مع الأموات ومع الأسرى (الأحياء) فى آن واحد. غير أنه لم يكن يتحدث مع الأسرى إلا نادراً، وذلك حينما كان يرغب فى أن يتبادل معهم البقسماط

أو إبريق الماء. أما لقاؤه مع الراحلين المفقودين فكان يستولى على فؤاده، وهكذا فقد وجه تحية الوداع لهذا المكان.

ثم سأل (**الفريق إسماعيل باشا**) هؤلاء الراحلين المفقودين عما إذا كانوا قد حرثوا حقولهم وبذروا فيها حبوب القمح، وعما إذا كانت ماشيتهم قد جرّت المحراث فى خطوط مستقيمة متناسقة، من أجل أن يبدو كل شئ مرتباً ونظيفاً، بما ذلك ترع الرى الفينيسية الممتدة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وقطع الأرض المربعة المزروعة والتى تبلغ مساحة كل منها خمس وثلاثون هكتاراً، والخطوط سريعة الزوال التى خلفها المحراث بعد الحرث.

بعدها طلب ممن يكبره سناً أن يقوم بإحصاء لكل العائلات - وافدة كانت أو محلية - التى كانت تقطن القرية يوم حلول الكارثة، كما ناشده ألا يحصى فقط أسماء الذكور وحدهم فى كل عائلة، بل أن يدون أسماء النساء والأولاد والأطفال الرضع، وكذلك أسماء المسافرين والمتزوجين المقيمين فى الضواحى القريبة، وأولئك الذين حذفت أسماؤهم بسبب مرضهم، وأخيراً أسماء الموجودين فى بلاد أجنبية وصاروا عبيداً أو خدماً أو تجاراً أو مدرسين. ثم ناشد منادى القرية أن يصعد على برج الكنيسة لكى يعلن بصوت جهورى الألقاب التى تم اشتقاقها منذ ثلاثة قرون ونصف سلفت من كل دلالات الأرض فى السهول والجبال، منذ أن سمحت **فينيسيا** (**البندقية**) - بسبب نقص محصول القمح - بزراعة الهضبة ذاتها مرة أخرى، هذه الهضبة التى أطلق عليها اصطلاحاً اسم:«**شوكة فى قلب فينيسيا**» spina del cuore di Venezia. وكانت **فينيسيا** - رغبة منها فى إزالة هذه الشوكة من قلبها - قد عاقبت الهضبة عقاباً قاسياً، فقامت خلال القرن الثالث عشر الميلادى بطرد كل سكانها، وهدم منازلهم، واجتثاث الأشجار المثمرة، وتحريم زراعة الأرض ورعى الماشية، وكان كل من يخالف ذلك يعاقب بالإعدام أو ببتر قدميه.

ولقد علم (**الفريق إسماعيل باشا**) أن الثوار فى ذلك العهد كانوا يتكاثرون مثل الأعشاب البرية التى تنمو مع سنابل القمح، وأنهم كانوا يخفون أنفسهم أسفل

بطون الأغنام*، وأن الأشخاص العُزّل من السلاح كانوا يمنحون الرجال المسلحين القمح طوعاً واختياراً. ولقد استمرت هذه العقوبات المفروضة عليهم مائتى عام، بحيث غدا كل شئ يثير الغضب والنقمة ويبعد بالسلوك عن المستوى الإنسانى، إلى أن سمحت حكومة **البندقية** للناس بالاستقرار وبالزراعة والرعى مرة أخرى. وعندما حل القرن التالى مباشرة وسقطت شبه جزيرة **البيلوبونيس (المورة)** فى أيدى الأتراك، تقرر إرسال عدة عائلات ذات ولاء من **نافبليون ومونيمفاسيا** لتستقر فى الهضبة؛ ولقد ورد ذكر لأسماء هذه العائلات فى السجلات الرسمية. ولقد سمع الغلام أنه كان من بينها اسماً لعائلته، ولكن هذا الاسم كان قد تغير بصورة يصعب تمييزها. ومنذ ذلك الحين كان ذكره يتم بكثرة، حيث إن كثيراً من أفراد أسرته أصبحوا من رجالات الكنيسة، وحيث إن شغل المناصب الدينية قد غدا فيما بعد أثناء الاحتلال التركى يتم بالوراثة.

كان الغلام يصغى إلى أسماء الناس وألقابهم المرتبطة بالأرض ثم ينقش فى ذاكرته الصور التى تمثلها الكلمات والألفاظ. وبدأ الارتياب يتسلل إلى قلبه فشك فى أن هذه الألقاب أو الأسماء التى اتخذوها لأنفسهم قادرة على أن تطيل أعمارهم، حتى لو نفذت أو تسللت إلى مشاعرهم مذكرة إياهم بأصواتها وأريجها ومذاقها وملمسها وصورتها. ولسوف يقدر له فيما بعد أن يتيقن من أنه ليس فى مقدور أى عدو أن يغير أو يبدل من ذاكرة الأسير، حتى ولو ظل هذا الأسير حيا يرسف فى أغلال الاستعباد والهزيمة. ثم إنه سوف يستوثق كذلك - مع افتراض أن الأسير يمكن أن يباع فى سوق النخاسة - من أنه لا يمكن الحصول على مقابل نقدى لخيالات هذا الأسير بحال من الأحوال، لو أنها كانت منفصلة بذاتها عن وجوده الجسدى. وفى تلك اللحظة ارتد فكره فى اللاشعور إلى حياة العالَم الصوفية التى فقدها، وحاول جاهداً - رغم أن هذا كان أمراً سابقاً لأوانه - أن يحمل نفسه على الامتثال لكونه أسيراً.

* تحمل هذه الصورة أصداء مشهد من مشاهد ملحمة الأوديسية لشاعر الملاحم القديم هوميروس، حيث قام البطل اوديسيوس ورفاقه بالهرب من كهف الوحش الأسطورى «الكيكلوبس»، ذى العين الواحدة، عن طريق إخفاء أنفسهم أسفل بطون الأغنام.

ولقد أهدى (**الفريق إسماعيل باشا**) هذا القرار لذلك الجزء الموشك على الميلاد من طبيعته المزدوجة، كما لو كان يهديه قطعة ذهبية ثمينة من عملة الإمبراطور **قسطنطين** الكبير*، ثم أخفى قطعة النقود الذهبية (**الفلورين**) بين طيات ملابسه مع المدية التى أخذها من الكهف.

وكان قد حدد مسيرة حياته كتابة بعلامات فارقة قوامها أفكار تدفع أمامها القرى الصامتة والسهول الفسيحة المجاورة لها، بل وحتى المدينة ذاتها - حيث ستنتهى عندها بعد فترة قصيرة الأرض واللغة والرحمة - أجل.. تدفعها إلى ذروة الأفق وتصيرها إلى سحب من سحب الخريف. وإذا كان طوال سنوات عمره بأسرها يتذكر هذه الأفكار - رغم أن الزمن أزاحها قليلاً وخفف من وطأتها إلى حد كبير - فإنه مع ذلك لم يعد قادراً على أن ينسى - بدون أى إبعاد للفكر أو تخفيف لوطأته - أنه مضى سائراً فى طريقه مقيداً مع أخيه. ولم يتضايق أىّ منهما آنذاك بسبب أن النوم لم يزر أجفانهما للحظة، أو بسبب أنهما لم يذوقا الطعام منذ أن استغرقا فى النوم، أو بسبب أنهما ما عادا يذكران متى تناولا الطعام لآخر مرة، بمثل ما هفت نفساهما إلى الطريقة التى يريح بها كل منهما يديه وجسمه. ولقد شعر كل منهما أنه فى مثل هذه الساعة لا يوجد مجال للانصياع لقواعد التربية الصارمة التى تحرم على الصغار - قبل أن يصيروا رجالاً - إظهار مشاعر الرقة أو تبادلها. لم ينبس أحدهما ببنت شفه بل لاذا بالصمت المطبق أثناء احتكاك جسم أحدهما بالآخر أو انفصاله عنه، ومن ناحية أخرى فإن تبادل الحديث بكثرة كان يمكن أن يبدد شمل ينبوع الرقة الخفى. ودارت بذهنه فكرة مباغتة مغلفة باليأس عندما تذكر أن وجنة أخيه كانت فى مثل نعومة وجنة والدته، وأن حبات العرق الناجمة عن سيرهما بالأقدام - والتى كانت تتفصد من جبينه كانت رائحتها مثل رائحة الحليب.

كان الميناء القديم هو آخر صورة تراءت فى ذهنه لوطنه، وإن خيل إليه أن صورته تنتمى أكثر لحياته الجديدة. وكان الحصن الذى يلامس أعلى نقطة فى حاجز

---

* هى عملة ذهبية قديمة كان يعتقد أنها تجلب الحظ لحاملها.

الأمواج يبدو وكأنه يسبح فى وسط مياه البحر، وفوقه تتبدى اللوحة المرمرية التى يرتسم عليها أسد القديس ماركوس وهى تمتد عبر القرون، وبجوارها راية الباب العالى المصنوعة من الحرير وهى تتماوج مع نسيم النهار. كانت قطع الأحجار الصخرية التى تغطى الحصن تتبدى لمن يراها وكأنها تفصل بين مجموعة من المتناقضات، حيث إنها تبدأ من الرطب أو اليابس (الشاسع) وتنتهى بما هو حُر أو بما هو محدود.. كما أنها كانت تبدو - عندما تضيق ذرعاً بجمود هذه الخصائص - وكأنها تشرع من فورها فى اللعب بقطع النرد العاجى فتبدل أماكنها، فتسمح بذلك للحظ (العابر) أن يغير العالم بانتظام، رغم أنه لم يك قادراً على أن يبدل الحاكم إلا فيما ندر.

وكان من نتيجة هذا الحظ أن الغلام أبحر إلى **مصر** وأن أخاه أبحر إلى **اسطنبول**؛ فأدرك حينئذ بجلاء أنهما وصلا إلى محطة الختام.. إلى لحظات الفراق المتتابع التى ميزت بداية حياة كل منهما كأسير.. فأمسك بيد أخيه بمجرد أن استراح على قطعة حجر جرانيتية كانت مغروسة فوق رصيف الميناء لكى يُشد إليها وثاق السفن الراسية. وود من صميم قلبه لو أنه تمكن من جعل صوت اسم أخيه يغدو ثابتاً وراسخاً إلى الأبد فوق مياه البحر. وهنا سأل أخاه عن اسمه، فاستدار الأخ ورنا إليه ببصره برهة، وعرف أن لحظة الوداع قد حانت وأن أخاه يزجى إليه تحية الوداع، فقال:

- أنطونيوس كامبانيس باباذاكيس بن فرانجيوس.

الفصل الثالث

بعد انتهاء سفرة البحر جاءت السفرة فى النهر. ولسوف يقدر للمياة العذبة منذ الآن فصاعداً أن تكتنف حياة الغلام وتحوطها برقة ووداعة. أما ملوحة البحر الليبى التى كانت تعنى الأسر والعبودية بالنسبة للجنوب فسوف يقدر لها أن تعنى فيما بعد الخطر الداهم القادم من الشمال بالنسبة للحملات العسكرية، عندما يقيض للملح أن يغدو إلى الأبد قريناً للحزن.

ولج الغلام إذن مجرى **نهر النيل** إبان إبحاره صوب **القاهرة**، عاصمة البلد الجديد. وفى كل مرة كان يتعين عليه أن يبحر بعدها فى رحلة نهرية مماثلة، لم يكن بوسعه أن يمنع نفسه من خفض بصره إلى الارتفاع الذى كان يسمح به وجهه الطفولى، أو أن يحرم نفسه من التطلع مرة ثانية إلى المشاهد الأولى التى تراءت له. إذ دفعته انسيابية المكان، التى كانت صورة طبق الأصل لروحه، إلى انطباع أوحى له بأن يده قد تضاءلت فوق مقبض السيف التركى المحدب (**اليطقان**) إلى أن غدت فى نهاية المطاف لا تقبض سوى على نصل الكهف. وكان **الفريق إسماعيل باشا** يدرك منذ أمد مضى أن مسار هذه الرحلة ذاته كان قد استبدل برحلات العشاق القدامى هدايا ربانية مقدسة، ولكنه عجز دوماً عن أن يعثر على قناة الماء التى انطلقت منها سفينة هؤلاء العشاق المباركة. وكان ما تراءى له فحسب هو وجه أمه وهو يرتسم على صفحة المياه فى انحناءة لابتسامة (متكلفة) أشبه ما تكون بصورة هلال مختنق. كان يصغى آنذاك للأغنيات الرقيقة التى تنشدها الأمهات بلغته اليونانية وهن يهدهدن أطفالهن، كما لو كانت هذه الأغنيات قد غطت ألفاظ الغزل التى كانت شائعة فى اللهجة العامية السكندرية برقٍ من الجلد تم محو الكتابة عن صفحته، رغم أنه كان يحتوى فيما سبق على مشاعر إغريقية دافقة غدت الآن هباء منثوراً.

توغلت السفينة فى أرض **مصر** التى كانت تبدو من بعيد وكأنها شريط منخفض من الأرض اليابسة المستوية. وكان الفلاحون فى قواربهم وزوارقهم يقطرون السفينة لكى تعبر مدخل **النيل** الموازى **للدلتا**، خشية أن تنجرف صوب المياه الضحلة، ومكنوها من أن تعبر بسلام إلى مجرى النهر. وهنا سمع الغلام فجأة ولأول مرة اللغة العربية،سمع لأول مرة لغة سادته*، رغم أنه لم يمض عليه فى هذا البلد سوى أيام معدودات. ولسوف ينقضى وقت ليس بالقصير على الغلام حتى يستنتج أن كل مكان يتطلب لغة خاصة به،وأنه إذا ما بدت له لغة بلد ما فى البداية صعبة أو مستغلقة، فإنها سرعان ما تصبح بعد ذلك طيعة بكل تفاصيل صورها وتعبيراتها، وأن كلاً من صورتها الأولى وصورتها الأخيرة تتحدثان وتعبران بذات السحر والجاذبية، هذا إذا جاز له أن يضع اللغات المختلفة على قدم المساواة. وحيث إنه كان ما يزال غلاماً صغيراً فقد عجز عن مقاومة الجاذبية الغامضة للألوان البادية له وللخطوط الرقيقة التى تنساب من حوله.

فلقد حررت الأرض المزروعة جسده المغلول بالقيود وأغرته بأن يتمرغ فوق الخضرة الناعمة كالحرير إلى أن يستمتع بسعادته حتى أقصاها. فهنالك كانت الصحراء تتبدى فجأة على تخوم الأرض الزراعية حيث يتلألأ بريق الأفق الناصع. ولقد مرت سنوات عديدة حتى تفتق ذهن **الفريق إسماعيل باشا** عن أن الصحراء بمثابة وعد بالموت الرقيق الناعم وأن أشجار النخيل بمثابة عهد بالحنين إلى الوطن. وحينئذ طفق الغلام ينصت لوقع الحروف الساكنة السائلة والحروف المتحركة الناعمة فى أذنيه، بينما كان يرقب الأكواخ المتناثرة فى القرى. وشاهد جدران المنازل المنخفضة المبنية من الطوب اللبن والسقوف المشيدة من سعف أشجار النخيل وسيقانها، والتى لم تكن ثم فتحات فيها سوى الأبواب. وكانت غابات من أشجار النخيل تطوق بهاماتها القرى التى لاحظ الغلام أن كثيراً منها كان يوجد فوق روابى من التراب ضئيلة الارتفاع. وكان نهر النيل يروى القنوات والترع والحدائق والبساتين، وكانت النساء اللاتى يرتدين ثياباً سوداء طويلة ويغطين

* تقصد المؤلفة بلا ريب «لغة البلد الذى أصبح ينتمى إليه **الفريق إسماعيل باشا**»، لأن سادته وهم الأتراك كانت لهم لغتهم التركية.

وجـوههن بالبـراقع (**اليشمك**) يملأن الجـرار الفخـارية أو يضـربن الثـياب (بالعصى) **ليغسلنها** (فى مياه النهر). وفيما بعد سوف يقدر له أن يستنتج أن العيون الشاخصة التى لا يغطيها نقاب يمكنها ذات يوم أن تلخص من تلقاء نفسها معاناة الجسد المحرم وعذابه، كما أنه لن يجد بعد ذلك فارقاً كبيراً فى نظرة العيون ما بين نظرة رجل أو امرأة أو غلام. كانت النساء يحملن الجرار أو السلال فوق رؤوسهن وهن يبتعدن فى سيرهن، وكن يحملن حمولتهن هذه فى ثبات وتوازن رغم أرجحة أجسادهن واهتزازها. أما الأطفال.. الأطفال الأحرار.. فكانوا يغمسون أرجلهم فى المياه ويشمرون أذيال ثيابهم الملونة، أو يجرون خلف النساء اللائى كن يبتعدن فى سيرهن. أما الرجال الذين يرتدون مناديل معصوبة حول الشعر الأسود الذى يكلل هاماتهم، ويلبسون جلابيب لونها أزرق أو بنى مثل لون القهوة مربوطة عادة حول الوسط بنطاق، فكانوا يبذلون جهدهم فى براعة كى ينشروا الشراع المثلث الشكل على القوارب ذات الصارى الوحيد؛ وهى قوارب كانت تحمل بضائع وسلعاً مغطاة بملاءات من النسيج. ولقد أزجى هؤلاء الرجال التحية للسفينة القادمة من خوض المعركة الحربية، وتطلعوا إلى الأسرى القابعين على متنها بوجوه باشة. وكان هناك أيضاً رجال آخرون غيرهم يسيرون على طول ضفة النهر بعد أن ربطوا بالحبال حمولتهم فوق ظهور الجمال، وكانت خطواتهم وهم يغذون السير تصل فى انطلاقها إلى آخر مدى تسمح لهم به جلابيبهم.

واعتبر الغلام نفسه محظوظاً فى حياته الجديدة - هذا إذا جاز لنا أن نطلق اسم الحظ على الرتب والدرجات العسكرية التى نالها عن جدارة واستحقاق - ذلك أن هذه الرتب لم تستطع أن تمحو من ذاكرته خاتمة أول عنف يلقاه ولا عذاب العنف التالى له. فلقد عينه **محمد على باشا** نفسه على أية حال فى المدرسة الحربية بالقاهرة مقتفياً فى ذلك عادة سلاطين (الأتراك)، الذين كانوا يختارون أفراداً من بين الأسرى الغلمان الأكثر وسامة وجمالاً والأكثر ذكاء ليلحقوهم بخدمتهم سواء فى البلاط أو فى الجيش.

ولقد تأكد **للفريق إسماعيل باشا** فى التو أنه فى الوقت الذى كان فيه تلاحق الأحداث فى الهضبة (مسقط رأسه) قد هب مثل الرياح القادمة بعد موعدها كى تلقى بزهور أشجار التفاح وثمارها فى الثرَى، إذا به يجد نفسه هنالك فى قلب الأحداث السريعة المتلاحقة. لقد باغتته سرعة (وقوع الأحداث) فى العالم، وجذبته إليها بسحرها، كما لو كانت سرعتها تتم بفعل آلة أو ماكينة، وبدا له أنها تحول دورة الحياة الإنسانية إلى مسار للتطور كالخط المستقيم. وهكذا فإن الحلم لم يسبب له انبهاراً أو دهشة من نوع ما، وهو حلم مؤداه أن نطاق الهضبة الذى كانت القناديل تحدد امتداده فى ظلمة الليل، قد انهار سريعاً كى يتوحد مع امتداد مجرى النيل الذى تتواثب مياهه أمامه، وأن الخاتمة لا تتواءم قط مع البداية. وشعر بأن الطبيعة من حوله تتغير، ومن أجل هذا لم يتسن له أن يقارن السحب الصفراء التى تهب فوق الصحراء والمحملة بذرات الرمال الدقيقة الحارقة، بسحب الشمال ناصعة البياض المحملة بقطرات المطر وبأشكال من الكتل تدعو المرء للتأمل. لا ولم يتسن له أن يقارن رياح الخماسين التى تهب خلال فصل الربيع وتسبب الجفاف للبراعم والأفنان النابتة حديثاً والتى تتشقق بفعلها الشفاه وتتراءى بسببها الأشباح أمام العيون، بنسائم الجبال التى كانت تجعل فرسان الأغانى خلال أمسيات شهر أغسطس ينتشون طرباً ويحلقون عالياً فى نشاط وحيوية. وعلى أية حال فإن صيف مصر كان يحمل معه إلى المدرسة الحربية - منذ اللحظة الأولى لقدومه إليها - قطرات من المطر كانت تسقط بلا توقف. واستمع الغلام لزملائه التلاميذ وهم يتحدثون عن فيضان النيلين: النيل الأبيض والنيل الأزرق - وعلى الأخص النيل الأزرق - الذى يزخر بمياه الأمطار ويفيض ليغرق المساحات الشاسعة التى تقع على ضفتيه بمياهه التى تماثل الدماء فى لونها، إلى أن يتحد بعدها مع الأرض ويكّون غريناً خصباً وافر النماء. وكان زملاؤه التلاميذ يمتدحون كذلك مشاريع الرى التى أقيمت (بمصر) خلال السنوات الأخيرة، حيث بدأ التحكم من خلالها فى تلك الفوضى التى ظلت تسود البلاد لقرون خلت بعد كل فيضان. كذلك أخبروا **الفريق إسماعيل باشا** أن القرى المصرية سواء فى الدلتا أو فى سائر وادى النيل كانت

تشيد حتى ذلك الوقت فوق تلال صناعية مرتفعة، وأن الناس كانوا ينتقلون بينها إبان فترة الفيضان فى زوارق؛ وأنهم كانوا يوقدون المشاعل أناء الليل حتى يتمكنون من الرؤية فى الظلام الدامس، وأنهم فى عذابهم هذا كانوا يشبهون النجوم اللامعة فى قبة السماء أثناء الليل؛ وأنه فى كل مرة عندما كان الماء ينحسر والطمى يجف، كانت الحدود الفاصلة بين ممتلكاتهم من الأراضى الزراعية تزول وتنمحى.

وشعر **الفريق إسماعيل باشا** بسرور بالغ حينما كان يستفسر منهم عن النباتات والحيوانات الموجودة بين ظهرانيهم، ذلك أنه اكتشف أن هناك الكثير مما يتناقض مع ما كان يعرفه من قبل، ليس فقط فى الصورة ولكن أيضاً فى النطق والملمس والمذاق والرائحة. ولقد علم من هذا أنه لو أن هناك مكاناً فى الطبيعة يحظى (فيه الإنسان) على وجه الخصوص بالرؤية والسمع فقط، فإن الطبيعة عندئذ تمنحه كل الحواس الخمس مجتمعة؛ إذ منحه تذكر الأحداث المألوفة أول تقرير مظفر لحياته اليونانية. وكان تداعى هذه الأحداث فى ذهنه يدفعه إلى عقد ميثاق سرى مع زملاء دراسته الذين طفقوا يحدثونه عن العنزات والقطة والكلب والعقرب والحمامة، وشجرة الجميز والقمح والكتان والقطن، ونبات الدفلى والورود والبقول والخضراوات. وشعر مع ذلك أنه لكى يضع حداً لهذا التشابه فإن عليه أن يحب النخلة والجمل اللذين شاهدهما من بعيد وهو يعبر مجرى نهر النيل فى سفينته. كان عليه أيضاً أن يعرف القصص التى كانت تستولى بطريقة أو بأخرى على الألباب فيما يخص مملكة النبات ومملكة الحيوان، منذ استسلامها للوسن فترة قصيرة من حياتها حتى عودتها من جديد للحياة عن طريق تناسخ الأرواح. وكان عليه فى خاتمة المطاف أن يحب زملاءه التلاميذ: أن يحب بشرتهم التى تميل إلى اللون البنى، وعيونهم ذات الألوان الداكنة التى تبدو وكأنها مغرورقة بالدموع،وطريقتهم فى إمساك الأيدى خلال السير، وطريقة حديثهم المنغمة،والقسم الذى أقسموه على الوفاء لقائدهم **محمد على**. أما شعورهم الجارف بحب الوطن فكان يتسبب أحياناً - دون أن يحدث هذا بغير مبرر - فى تحويل الفضيلة إلى رذيلة.

ورغم أن رفاق الدراسة هؤلاء كانوا غير أشرار فى الغالب الأعم، إلا أنهم مع ذلك تعلموا الغرور والكبرياء وطرائق الحياة العسكرية الأوروبية المصطنعة، وأرهقوا عقولهم حتى الذروة بأطماع الطموح الشخصى.

وأجفل الغلام حينما تبين له أن رفاقه التلاميذ لم يسألوه أبداً عن البلد التى وضعها دوماً فى فكره وعقله، وحتى حينما بدأ فى التحدث إليهم انصرف هؤلاء عنه دون أن ينبسوا ببنت شفه بمجرد أن انتهى من مخاطبتهم. لقد علموا على أية حال أنه أسير يونانى، ولكنهم فى مواجهته تظاهروا بأنهم يعرفون أنه مجرد غلام فقد ذاكرته، وودوا لو أنه كان باستطاعتهم أن يهبوا له هذه الذاكرة من خلال ذكرياتهم التى اكتسبوها فى أرض مصر. وجال بخاطره أن تحريم (ذكر) بلده ومسقط رأسه فى المدرسة الحربية كان يعنى تحريماً قاطعاً أكثر لكل الصور والمشاعر التى مازالت حية فى أعماقه. فقد أدت اللغات الجديدة التى تعلمها، وهى العربية والتركية والفرنسية، إلى تحول عالمه القديم إلى عالم آخر غنى وحافل بالخيال، سوف يقدر له أن يحل محل عالمه القديم على أن يصبح هو وحده العالم الواقعى الملموس لرجل ناضج. ورغم ذلك فقد كان يحس أحياناً أن الطيف المتوثب الذى لا وجود له يرافق بدنه الناضج وأنه يتقافز حوله، مثلما يفعل الكلب مع سيده.

لقد جرت الأحداث بسرعة كبيرة لدرجة عجز معها عن إدراك متى قاموا بختانه ومتى اندرج فى زمرة ديانة أخرى، وكأن هذا الجلمود الصخرى ذاته لم يكن سوى قطعة صغيرة من الحجارة تقبع ساكنة فى بنيان حياته الثانية. فهناك آخرون قد ارتضوا لأنفسهم حياة الجندية بوصفهم أسرى - وربما كان هذا أفضل أمر يمكن توقعه - غير أنه لم يكن يملك المقدرة على أن يحدد مصيره بنفسه. ثم وجد نفسه بعد ذلك مباشرة يحدث نفسه باللغة اليونانية دون أن يجد فى نفسه العزم على أن يقرر بمفرده الأمر الذى سوف يغير حياته فى السنوات الأولى من حياته فى الأسر. وكانت اللغة اليونانية التى تدور داخل فكره تدفع به إلى المخاطرة بتوازنه الأخلاقى. فلقد كان العالم الجديد مع ذلك - رغم النظام الصارم الذى كان يسود مدرسته

الحربية - يستثير فى نفسه إغراء حب المعرفة والتعلم. فبمجرد أن أدرك أنه نجا من خطر الموت الذى كان محدقاً به أو قيض له الخلاص من مصير أكثر سوءً، هدأت مشاعره واتخذ قراراً بأن يتعلم أكبر كم يمكنه تعلمه بنفس الحماس والشغف اللذين جعلاه وهو مازال بعد طفلاً يتمكن من تعلم الحروف الأبجدية، ومن محاولة مطالعة - وإن كان ذلك بمشقة بالغة - أسفار المنشدين الدينيين. وبات من الصعب عليه أن يؤمن بأنه قد صار له اسم جديد وديانة جديدة، ولكنه بغض النظر عن ذلك فقد تراءى له بوضوح أن هذه هى ضريبة المعرفة التى سوف تهبها له مصر، ومن ثم فقد قرر أن يؤديها بسماحة نفس وألا يجعلها تولد فى نفسه انطباعاً أكثر من كونها مجرد ضريبة. وحيث إنه منذ ذلك الوقت قد تنبأ لنفسه بأن مماته الثانى سوف يكون معادلاً فى العنف لميلاده الأول، فقد هداه فكره إلى أن يسلح نفسه ليس فقط بالمعلومات والمعارف العسكرية الحديثة، أو بالمران المستمر على التسديد الذى لايطيش والتصويب الذى لا يخيب، بل بالتدريب المتواصل لمشاعره ولعقله. ولذا طفق يكرر القرار الذى اتخذه بالتعويل على تقوية الذاكرة وتكريس دورها فى حياته، وعلى أن يتابع مسيرته فى تحصيل التعليم بدأب وجلد، وفى المضى فى طريقه الشاق نحو تحقيق مركز مرموق صعب المنال؛ وكان عليه أن يتوج جبهته بإكليل من الهضبة (مسقط رأسه)، وهو إكليل سحرى غض وندى وبلا أشواك. كما كان يتعين عليه أن يربط الرمز الأنثوى للدائرة بقسط وافر من مشاعره وعقله. فهنالك سوف يودع كرجل ناضج لعبته التى استمرأها مع خياله البعيد عن الواقع. ولعله طفق فى كل مرة يرد القول بأنه قادر على أن يصل ما بين عالميه المنفصلين.

وهنا شرع فى تبين معالم الأفكار والأحداث التى سوف تحدد مستقبله وتسهم فى تشكيله.. وكانت الأحوال السائدة فى مصر آنذاك مواتية على نحو ما لتحقيق البسالة والمركز المرموق. وكان المحرك لهذا - قبل تولى **محمد على** حكم مصر بسنوات قليلة - هو فترة السنوات الثلاث التى احتل فيها **نابوليون بونابرت** مصر، والتى منحت البلاد تلك الدفعة التى أوجدها الالتقاء المصيرى بين

حضارتين. ولقد قدر لهذا الالتقاء أن يحدث عندما تعانق القرنان - القرن المنصرم والقرن الجديد - وتعانقت معهما الحضارتان عند التقاء مصب فرعى نهر النيل فى شمال الدلتا، فعقدا زواجا لاتنفصم عراه بين المياه العذبة والمياه المالحة. ومن هذا اللقاء انبثقت مصر الحديثة بالصورة التى رآها عليها العلماء والمهندسون والكتاب الفرنسيون الذين سجلوا ملامحها المميزة - قبل أن يتسنى لهم بالفعل أن يغيروها - فى سفر جليل خالد على مر الأزمان (هو كتاب **وصف مصر**). ولقد قدر لهؤلاء الذين تصفحوا هذا السفر الجليل أن يسمعوا بآذانهم صرير عجلة القدر وهى تمضى (بإصرار) فى سيرها، سواء أكان هذا بفعل رجاحة وزن القرن التاسع عشر الذى هلت تباشيره آنذاك أو كان هذا بفضل أسباب أخرى. لقد تحققت المحاولة الأولى لتحديث مصر فأضيف لون جديد فوق اللون الأسود للخطوط الفرعونية، وفوق اللون الأزرق الداكن لفترة الحكم العربى، الذى ترسخت دعائمه ولم يعد ممكنا محوها خلال فترة النصف قرن التى حكمها فيها التركى - الألبانى **محمد على**. ولقد لاحظ **الفريق إسماعيل باشا** لأول وهلة تلك التعبيرات الصارمة والحاسمة التى كانت تكسو وجه الشبان فتبدلهم وتصيرهم رجالاً، عندما يقدر لهم أن يتحدثوا عن الوالى (**محمد على**)، وكان من عادتهم أن يتحدثوا عنه مراراً وهم يعطون انطباعاً بأن قدر وطنهم الثانى يقطن فى أبدان الغلمان (ويكمن فى أرواح) الشباب.

ولقد تسنى له مرات عديدة أن يسمع القصة ذاتها وأن يشارك رفاقه فى تخيلها بشغف وسعادة: وهى قصة مؤداها أن **نابوليون بونابرت** قد استولى على مصر، وأن الباب العالى العثمانى - بتحريض من الإنجليز - قد أصدر فرماناً دعا فيه أنصار الإمبراطورية العثمانية والموالين لها إلى الحرب المقدسة ضد الفرنسيين فى مصر. ولقد تمت قراءة هذا الفرمان فى مساجد مقدونيا، فأصدر حاكم قوله* أوامره بتجنيد

* وفقاً لنطقنا العربى، ولكنها تنطق باليونانية كافالا، وتكتب Kabala. ولقد ترجمت كلمة tzorbat-zes التى وردت فى الرواية إلى حاكم، وهى كلمة تركية مركبة من كلمتين هما (جوربه جى) وتعنى حرفياً صاحب المرق (أو الشوربة)، ثم أصبحت تطلق على كبار رجال الطائفة المسيحية فى تركيا. وبعدها امتدت لتعنى ربان السفينة أو صاحبها، أو قائد وحدة عسكرية فى سلاح المشاة، وهو عادة ضابط برتبة اليوزباشى (أو النقيب حالياً). ومازالت هذه الكلمة موجودة فى لغتنا العربية فى مصر كاسم لعائلات «الشوربجى» المعروفة.

ثلاثمائة رجل. كذلك تبنى قائد الشرطة العسكرية ذاته الفتى اليتيم **محمد على**، وعينه ضابطاً مساعداً للقائد فى تلك الكتيبة الحربية الصغيرة، وذلك بعد أن تحقق بنفسه من تمتع ذلك الفتى بالذكاء والبسالة. وهكذا قدر لمحمد على أن يرحل مع أسطول **قبطان باشا** إلى مصر، وبعدها اشترك فى معركة **أبى قير البحرية** حيث نزلت الهزيمة الماحقة بالجيش العثمانى؛ فانفرط عقد الجيش بعد الهزيمة ولكن **محمد على** ظل فى مصر. ووسط الفوضى التى سادت فى أعقاب ذلك بدأ (**محمد على**) فى اكتساب الشهرة خاصة بسبب صراعه ضد الباب العالى وضد المماليك - الأتراك فى مصر. بعدها جلا الفرنسيون عن البلاد ونجح **محمد على** آنذاك فى الإطاحة بمبعوث الباب العالى فى مصر، ثم أجهز بعدها على جميع الباشوات بعد أن أثار حفيظة المماليك ضدهم؛ ثم تراءى له بعد ذلك أن يجهز أيضاً على المماليك أنفسهم. ولأن هؤلاء كانوا من المحاربين المنتمين إلى الأرستقراطية القديمة فقد دبر لهم مكيدة تليق (بشجاعتهم وبأسهم).

ذلك أنه قام بدعوة كل بكوات المماليك إلى احتفال بمناسبة سفر ابنه **طوسون باشا** إلى **مكة**، وحدد مكان هذا الاحتفال فى بلاط قصره بالقلعة التى كانت مقامة فوق ربوة عالية فى مدينة **القاهرة**. وكان المدخل المؤدى إلى هذا القصر عبارة عن ممر بالغ الضيق يتصاعد علواً إلى الربوة فوق صخور مسننة. ولقد استقبل **محمد على** بنفسه البكوات المماليك فى بشاشة وترحاب وأعد لهم استضافة تزخر بأطايب الطعام والشراب الفاخر. وبعد انتهاء الاحتفال وصدور الأوامر بخروج المماليك من القلعة كما كانت تقضى بذلك الرسميات، قامت حفنة من الجنود الألبان بإطلاق النار على الصفوف الأولى من المماليك الذين كانوا يهبطون من بوابة القلعة، وقامت ثلة أخرى من الألبان بذبح باقى المماليك وهم يتقاطرون فى الممر الضيق. ولم ينج من هذه المذبحة سوى شخص واحد فقط قفز بفرسه من الربوة على الصخور التى تقع أسفلها، ورغم أن هذا الشخص جرح وهلك فرسه إلا أنه أنه نجا من موت محقق*. ويحكى البعض أن **محمد على** كان مستلقياً آنذاك على أريكته الأرجوانية

* هو المملوك الشهير على بك الكبير.

وهو يستمع - بلذة تستعصى على التعبير - إلى أزيز الطلقات النارية وصراخ البكوات المماليك. بينما يؤكد البعض الآخر أنّ **محمد على** - أثناء هذه المذبحة - كان يذرع قاعة الاستقبال الملكية فى قصره جيئة وذهاباً، وأن القلق كاد يعصف به وهو ينقل خطاه بين موائد الطعام الأوروبية، والأوانى الصينية المصنوعة من البورسلين، والأرائك الفرنسية والموائد الصغيرة المصنوعة من العاج؛ وأنه شعر بالظمأ وطلب أن يأتوا له بالماء مرات عديدة وجرع منه قدراً كبيراً وهو يحدق فى النوافذ الوهمية المرسومة بالطلاء فوق الجدران الخضراء، والتى كانت تتدلى من أعلاها مرايات أصيلة من **فينيسيا**. وبينما كانت هذه المجازر تحدث (للمماليك) فى مدينة القاهرة، كانت مذابح أخرى مماثلة تحدث (لهم) كذلك فى الأقاليم.

ومن خضم هذه الأحداث الجسام بزغت مصر الحديثة كما يقول المصريون، وكان يفهم من حديثهم أن هذا الرجل قد بعثت به السماء إلى مصر، وأنه لم يفد إليها مصادفة من سواحل **مقدونيا**. كما أن محمد على نفسه كان يباهى مراراً وتكراراً بأنه من ذات البلد الذى قدم منه **الإسكندر الأكبر**، وأن سنه هو نفس سن **نابوليون بونابرت**. وكان **محمد على** **أمّياً**، ولكنه رغم ذلك كان يقوم بتعيين علماء الشيوخ الحكماء فى أقدم جامعة إسلامية، وهى **جامعة الأزهر** بالقاهرة. وعندما كبر سن **محمد على** وطعن فى السن قرر أن يتعلم القراءة والكتابة، ولكنه فضل أن يتعلمهما على يد امرأة متعلمة من الحريم على أن يدرسهما على يد أحد مشايخ **الأزهر** (الشريف). ولقد رووا كذلك أنّ **محمد على** كان طاغية، ولكنه مع ذلك كان يقف عندما يقابل ضباطه، وأنه كان يسحب قدمه حينما يرى شخصاً يهم بالانحناء لتقبيلها، وأنه عندما كان الناس يسعون إلى معرفة نوع البشر الذى كان ينتمى إليه القائدان اليونانيان: **كولوكوترونيس ونيكيتاراس**، فإن **محمد على** كان يصدر أوامره بصنع هيكلين كبيرين لهما من ورق الكرتون والطواف بهما فى كل الطرقات. وكان الزنوج الذين يحملون هذين الهيكلين يصيحون قائلين وهم يشيرون إلى الهيكل البشرى الكرتونى ذى العيون الثلاثة:«*هكذا كان*

***كولوكوترونيس** لأنه كان فائق الذكاء وكان يرى أبعد بكثير من الباقين»*؛ ثم يشيرون إلى الهيكل الكرتونى الثانى ويقولون: *«وهكذا كان **نيكيتاراس** الذى كان يحظى بجناحى نسر لأنه لم يكن على الأرض يسير بل كان فوقها يطير.»*

وعندما زالت الأخطار الداخلية التى كانت ماثلة للعيان كرس **محمد على** كل وقته لتطوير البلاد. وكان رفاق **الفريق إسماعيل باشا** فى الدراسة يتحدثون عن مشاريعه الجديدة فى مجال الرى، وعن إنشائه لصناعة السلاح وصناعة الغزل والنسيج، وعن إنشائه كذلك للمطبعة الأميرية الوطنية، وفوق كل ذلك عن إنشائه لأسطول وجيش فائقى التدريب والإعداد وفقاً للنسق الأوروبى. كذلك فقد تولى ضابط فرنسى سابق - كان يدعى **أوكتافيوس يوسف دى سيف** ثم عرف بعدها باسم **سليمان باشا الفرنساوى** - مهمة إعادة تنظيم الجيش فى مصر وإعداد الخطط الإستراتيجية تحت إشراف **إبراهيم باشا**، الابن الأكبر **لمحمد على** والأثير إلى قلبه.

وعلى حين غرة توقف رفاق **الفريق إسماعيل باشا** عن الحديث بينما تبين له أن شوقهم الكامن داخلهم قد كسا بالحمرة وجناتهم، وكأنهم يبغون القول بأن محمد على كان خليقاً بأن يجلس على عرش السلطان العثمانى، وبغير هذا فلن يقدر للإمبراطورية العثمانية أن تنجو أو أن تقوم لها قائمة.

وفى المرات التى اعتاد **الفريق إسماعيل باشا** أن يقوم بجولاته الدورية فى عربته التى يجرها جواد واحد، فى الطريق الموازى لنهر النيل والمعروف الآن باسم «**الكورنيش**»، راوده اعتقاد بأن الطموح الجامح إلى السلطة كان يستبد بقلوب طاقم السفن من البحارة الذين تشق سفنهم صفحة النيل صوب الشمال. ولكنه فى أحيان أخرى كان يحس بأن هذا الطموح يحلق عالياً وسط مئات المصابيح والقناديل الملونة التى كانت تضئ المساجد العتيقة، وأنه كان يحل ضيفاً وهو مازال فى عليائه على المسلمين الجاثين فى خشوع على بساط المساجد. كما كان **الفريق إسماعيل**

باشا على ثقة أيضاً من أن الطموح الجامح ذاته كان ينزلق - وكأنه شفرة متعارف عليها - من كف رجل إلى كف رجل آخر مع الجنيهات والقروش فى **سوق خان الخليلى**. وكان واثقاً أيضاً أنه فى منطقة مصر القديمة التى كانت غاصة بالطرقات الضيقة والمنازل، والتى يشعر المرء بأن الحياة ذاتها قد توقفت فيها أو تجمدت منذ مئات الأعوام التى خلت، كان الطموح الجارف للسلطة يشارك العائلات فى مساكنها وكأنه عنز بيضاء، وأن هذا الطموح كان فى بعض الأحيان يرسم البسمة فوق وجوه الناس المعذبين القاطنين فيها.

وعندئذ طفق **الفريق إسماعيل باشا** يفكر فى أن هذه الحرب الناشبة ضد السلطان العثمانى ليس من شأنها أن تدخل القلق أو الاضطراب إلى نفسه. ثم غمرته السعادة لأن تحقيق هذا الأمر قد صار منذ الآن ممكناً بمثل إمكانية الحصول على المال، حيث إن هذه الفكرة ذاتها كانت قد وصلت إلى الفقراء المطحونين.

الفصل الرابع

وبعد انقضاء عدة سنوات على التحاقه بالمدرسة العسكرية علم بالكارثة التى حلت بالأسطول المصرى الشهير على يد القوات الأوروبية فى **موقعة نوارين، وباتفاقية لندن** الحاسمة فى فرض شروطها، والتى كانت تقضى بفرض هدنة بين الفريقين المتحاربين: اليونانيين من جهة والأتراك والمصريين من جهة أخرى. ولذا فقد شارك المصريين فى أحزانهم، كما شاطر رفاقه فى الدراسة يأسهم المرير، فبوصفهم جنود المستقبل انتابهم حزن غامر بغير دموع تذرف أسفاً على هذه الكارثة الماحقة. وربما كانت هذه هى المرة الأولى منذ وقوعه فى الأسر التى تتعرض فيها حياته القديمة السابقة لخطر تحطم الدائرة الغامضة التى كانت تلفها من قبل، ولتهديد استقراره فى واقع حياة الخدمة العسكرية التى انضم إليها. وللحق فإن أصدقاءه لم يمسوا خلال هذه الظروف الراهنة ماضيه اليونانى بل عولوا على اعتباره جزءً من الحاضر المصرى، خاصة عندما غرق معهم فى الإحساس باليأس الغامر. ومن ناحية أخرى فإن **محمد على** قد حرص على أن يحتفظ بعلاقة حميمة وروابط قوية مع اليونانيين المقيمين فى مصر، أو على الأقل مع هؤلاء الذين لم يتورطوا أو يسهموا بنشاط فعال فى ثورة اليونانيين المسيحيين* الخاضعين لحكم الأتراك العثمانيين.

غصت ممرات المدرسة الحربية على حين غرة بالجرائد والمنشورات، وطفق الدارسون يتلونها زرافات ووحدانا بصوت عالٍ، ثم خرجوا بعدها إلى الفناء الواقع فى القلعة ليتنسموا الهواء العليل وليمتعوا أبصارهم برؤية منظر القاهرة الممتدة تحتهم حتى يتمكنوا من تلخيص الموقف برمته: علم الابن البكر **إبراهيم** بقرار القوات (الأوروبية) بتعضيد الهدنة المبدئية ومساندتها، وبالإطباق على أسطوله

* استخدمت المؤلفة كلمة تركية هى راجياس Ragias للإشارة إلى اليونانيين المسيحيين بوجه عام. وربما كانت هذه الكلمة بصورتها فى اليونانية تحريفاً لكلمة «جاوور» التركية التى تعنى «الكافر» أو غير المسلم».

الراسى فى ميناء **نوارين** مع الحصول على وعد منه بالإذعان. غير أنه نكث وعده وعدل عن قراره، لأنه لم يتحمل أن يقوم بدور الكلب المغلول تحت رحمة القائد الذى انتصر عليه، فاندفع فى عرض البحر وشن هجوماً على مدينة **باترا** (اليونانية). غير أن الأسطول الإنجليزى أجبر الأسطول المصرى على أن يقفل عائداً أدراجه إلى **نوارين**. وعندئذ أقدم **إبراهيم** - رغبة منه فى الانتقام وسعياً منه كذلك إلى أن لا يقبع ساكناً فى مكمنه لحين انتهاء المفاوضات الدبلوماسية - أقدم على الانقضاض على **مسينيا** بفرسانه وأعمل فيها السلب والنهب. وفيما كان إبراهيم يعيث فساداً فى قرى **مسينيا** تم إضرام النار فى أسطوله الذى احترق فى المعركة البحرية الكبرى على يد القوات الأوروبية. ولم يكن الضباط الفرنسيون الذين كانوا يخدمون على متن الفرقاطات المصرية هم المسئولون وحدهم (عن هذه الكارثة)، حيث إنهم كانوا قد تخلوا عن مواقعهم التى يعملون عليها عندما تم إنذارهم على يد (القائد) **دريجنى***. ولم يكن السبب فى ذلك أيضاً الضابط الإنجليزى الذى كان مبعوثاً من قِبَلِ **كودرنجتون**، والذى أردى قتيلاً برصاصة من سفينة مصرية، أثناء وجوده فى الزورق الذى كان يحمله، ومن بعد ذلك مباشرة لاقى القبطان اليونانى نفس المصير؛ لقد كانت أوروبا تتوق بشدة إلى تدمير الأسطول المصرى.

ولكن فيما يبدو فإن تفاصيل الرواية قد تغيرت فى الغرب، حيث لم يتم قياس نتيجة المعركة بنفس المعيار. ولذا فإن هذه القضية قد أدت إلى تعذيب **إبراهيم**، وذلك قبل أن تسيطر عليه فكرة ملحة دائمة بوقت طويل، وهى فكرة لا يمكن فصلها أو عزلها بحال من الأحوال عن حزنه الدفين الذى سوف تسببه له منذ الآن فصاعداً انتصاراته الشهيرة. فطوال مدة بقاء **إبراهيم** فى بلاد اليونان من أجل أن يضع حداً لحرب لا نهاية لها، طفق يسأل نفسه عما إذا كان تحديث بلاده - المفيد للشعب والمؤدى لهزيمة السلطان - قد أتاح الفرصة لوقوع الخطر الذى أسفر عن استثمار انتصاراته الذهبية فى السوق العالمى، ثم بيعها بعد ذلك فى مقابل حفنة من المليمات البرونزية. لقد كان انتصار والده **محمد على** فى المعارك انتصاراً مظفرا، ولكنه لم يكن مجبراً على التعامل مع الأوروبيين أو التورط معهم. أما هو (أى **إبراهيم**) فقد

---

* هكذا وجدتها مرسومة بحروف يونانية. ولكنى أرجح أن تنطق «ديزينيه»، فيما لو أن هذا القائد كان فرنسيا.

بدا وكأنه لم يحظ بأى فوز رغم أنه انتصر فى معارك كثيرة. لقد رفض عقله حتى اللحظة الحاضرة أن يسلم بقبول انقلاب الأوضاع رأساً على عقب ولا بقبول فصامية أمثال هذه الانتصارات؛ غير أن الحزن الذى انفطر قلبه بسببه لم يكن أمراً مستغرباً بحال من الأحوال.

أما **الفريق إسماعيل باشا** فلم يكن قد كون بعد فى عقله هذه البراهين المعقدة أو القياسات المنطقية العامة ذاتها، ولذا فقد بد له **إبراهيم** شخصاً غامضاً يحار فيه العقل: فهو من ناحية كان الابن البكر الأثير إلى قلب والده، والقائد المنتصر الذى سوف يقدر له أن ينهى الأسطورة عندما يتمكن من المزاوجة بين النيل والبسفور معاً بعربته الحربية المظفرة. ومن ناحية أخرى كان هو الشخص المتوحش الضارى الذى أزهق أرواحاً كثيرة وبث الخراب والدمار فى ربوع **مسينيا**. ذلك أن **الفريق إسماعيل باشا** كان يعتبر (حتى الآن) أن الهضبة (مسقط رأسه) هى بذاتها **مسينيا**، حيث إنه لم يكن يملك آنذاك أية إشارة أو أى ذكر عن إقليم يونانى آخر. فحتى هذه الساعة كان **إبراهيم** بالنسبة له يزاوج بين ماض وحاضر، بدا له كل منهما مماثلاً أو مطابقاً للآخر. ولذا فقد تساءل **الفريق إسماعيل باشا** عما إذا كان قد فقد على هذا النحو مستقبله اليونانى إلى غير رجعة؛ فلم يكن بوسعه حتى الآن أن يتغلغل فى أعماق **إبراهيم باشا** وفى مكنون ذاته. أما رفاقه فى الدراسة فقد تحدثوا عن أمنيات القدر له (بحظ وافر) بسبب لون بشرته الأبيض، وعن لعنات القدر له بسبب لون عينيه الذى يماثل لون البحر فى زرقته.

ولقد أشعل **محمد على** نار الحرب القادمة، حيث إن التنازل الذى قدمه **السلطان (التركى) محمود** لمصر عن جزيرتى **كريت وثاسوس** لم يعوض **محمد على** بوصفه واليا على مصر عن خدماته التى سبق أن قدمها للسلطان عندما اضطلع بقمع الثورة اليونانية ضده. ولذا فقد طلب محمد على من السلطان أن يهبه سوريا، وذلك بغرض أن يستغل غاباتها فى إعادة بناء أسطوله الشهير الذى خسره فى موقعة **نوارين**. غير أن السلطان لم يكن راغباً بحال من الأحوال

فى رؤية السفن المصرية وهى تمرح فى مياه البحر المتوسط، فما بالك بوصولها إلى مضيق البسفور. وكان هناك بالفعل فى **اسطنبول** حزب شديد الحماس والحب للوطن، وكان هذا الحزب يرى أن أسرة **محمد على** تمثل الاحتمال الوحيد لمولد إمبراطورية جديدة. ومن وجهة نظر الباب العالى فإنه لم يكن ينبغى أن يتم الإبحار إطلاقاً نحو الشمال، ولكن من وجهة نظر مصر فإن أركان الأفق الثلاثة كان ينبغى أن تندمج جميعاً فى سم إبرة كوكبة الدب القطبى.. وهكذا بدأت الحرب.

رافق **الفريق إسماعيل** إذن، **إبراهيم باشا** فى حروبه فى سوريا طوال فترة السنوات العشر التالية، وكانت بداية خوض مصر لهذه الحرب تتزامن مع الفترة التى سبقت مباشرة تخرجه من المدرسة العسكرية، أما الفترة التى وضعت فيها هذه الحرب أوزارها فقد وهبت **الفريق إسماعيل** لمصر بعد أن صار رجلاً ناضجاً استحق أن يظفر برتبة الباشوية وبصداقة القائد **إبراهيم باشا**. وعندما بدأت هذه الحرب كان **الفريق إسماعيل** يعتقد أنه محظوظ مرة أخرى رغم أن القدر قد حدد لحياته مساراً مصنوعاً من نصل الخناجر والمدى. وذلك لأن المواجهة المسلحة بين مصر وتركيا التى بدأت مراحلها فى أراضى سوريا ما كان لها أن تمس سر حياته الغامض. فلقد استطاع أن يفصل بين الأمور والقضايا التى كانت تصطرع داخله، وأقر حينئذ أنه يدين بالكثير للمزايا وللفرص التى أتاحها له وطنه الثانى (مصر). وراوده الأمل فى أنه بمرور السنوات سوف تجف منابع هذا الانشطار الذى يمزق ذاته، إلى حد سيصبح فيه غير معرض للاضطراب بسبب وقوع الأحداث التى لا يمكن السيطرة عليها أو التحكم فيها. وبمعنى آخر فإن كلاً من الحياتين اللتين كان يعيشهما سوف تصبحان أمراً يعنيه هو وحده، ولم يكن يرغب بحال من الأحوال فى أن تعوق أية حياة منهما طموح الحياة الأخرى. وعندما وضعت الحرب أوزارها لم يعد **الفريق إسماعيل باشا** يفكر مثل السابق بطريقة شاذة أو غير مألوفة، وبدا له الأمر وكأن موجة (هائلة) علت فجأة ثم اندفعت لترتطم بطرفها المحدب بساحل مصر الرملى، ثم شقت لنفسها طريقاً والزبد يتناثر منها خلال حبيبات الرمل الرطبة، إلى أن استقرت على الساحل والبريق اللامع ينثال منها ؛ ثم ما لبثت بعدها

أن انحسرت وتبددت وصارت هباءً منثوراً داخل جبانة البحر المتوسط الزاخرة بالأمواج.

فلقد شاهد (المصريين) وهو يستولون على المدن استيلاء ويدمرونها بأيديهم تدميراً، وكأن انتصاراتهم السابقة على صفحة الأمواج المزبدة لم تكن ذات قيمة فى حد ذاتها. وانتابته الحيرة من أن عشر سنوات قضاها معهم فى الفتح والانتصار ستبدو وكأنها فترة قصيرة، لو أنه كان ممكنا حصر مدة هذه السنوات العشر المصيرية وإخضاعها للمقارنة مع المدة المناظرة لها.

قام **إبراهيم باشا** بشن هجوم على سوريا بالسفن التى كانت لا تزال فى حوزته أو تلك التى بناها بالإسكندرية ، وتمكن بأسطوله هذا من احتلال **غزة ويافا وعكا**، التى عجز **نابوليون بونابرت** عن الاستيلاء عليها. وعلى الفور أعلن **السلطان محمود** عزل **محمد على**، واليه فى مصر، وابنه **إبراهيم** من منصبيهما. ولكن مدينة دمشق - التى كانت تشتهر بحدائقها الغناء الجميلة وبمنازلها وبأسواقها وبسيوفها منذ عهد الإمبراطور الرومانى ديوكلتيانوس **(دقلديانوس)** - قررت أن تنضم لصف **إبراهيم باشا**. وتقدم الجيش المصرى إلى آسيا الصغرى حيث تسنى له - إبان اشتباكه فى معركة خارج مدينة **قونية** - أسر كبير وزراء السلطان الذى كان قائداً للجيش التركى، ودخل المدينة دخول المنتصرين الظافرين. وكان جيش الملك الفارسى **قورش** - منذ قرون عديدة - قد توقف فى هذه المنطقة ذاتها فترة من الزمن كى ينال قسطاً من الراحة، عندما كان يشق طريقه إلى (عاصمة) بلاد فارس. ثم صعد إبراهيم باشا مع ثلة من ضباطه إلى التل المعروف هناك باسم (Its Kalê*)، حيث كانت توجد أطلال القصور القديمة للسلاجقة الأتراك؛ وهناك أدركوا أن المسافة التى كانت تفصلهم عن عاصمة الإمبراطورية العثمانية قد تضاءلت إلى حد كبير. ولقد تعانق طموح الرجلين المشترك بحيث بدا جلياً وكأن خيط هذه المسافة يلتف حول الرياح التى كانت تهب

* وهى كلمة تركية ربما تعنى تل القلعة الداخلية، وتنطق «إتش قالى».

على التل وتتيح لناظريهما أن يمتدا لرؤية مضيق البسفور. ولن ينسى **الفريق إسماعيل باشا** أبداً خط الأفق العادى الذى كان يتبدى أمامهما بلونه الأزرق الداكن المائل إلى لون شجرة السرو، ثم ذلك الخط الأبيض المتموج الذى كان يمتد من فوقه ويتحكم فيه. وفوق النقطة التى كان ينتهى عندها الخط الأبيض فوق الماء نظر كلاهما فإذا بحافة سوداء تبدأ فى الامتداد على حين غرة من الجانبين. وعلما أن هذه الحافة تمثل الإثنى عشر ألفا من الجنود الروس الذين استدعاهم السلطان وقام بنشرهم على جانبى المدينة لكى يقوموا بالدفاع عنها وحمايتها ضد أى هجوم محتمل من جانب الجيش المصرى.

ولم يستطع **إبراهيم باشا** أن يقترب أكثر من ذلك ولا أن يخوض غمار الحرب ضد هذه المدينة، واضطر اضطراراً لقبول السلام، الذى حصل والده **محمد على** بمقتضاه على سوريا وحصل هو نفسه بمقتضاه على إقطاعية (باشوية*) فى منطقة **أدنة**. واستقر عزم القوات الأوروبية المتحالفة على بقاء **اسطنبول** (القسطنطينية) عاصمة للإمبراطورية (العثمانية) المريضة.

ولقد رافق **الفريق إسماعيل** (صديقه) **إبراهيم باشا** إلى مدينة **أدنة** (Adana) الواقعة جنوب شرق آسيا الصغرى؛ وكانت السنوات الست التى عاشا فيها معاً هناك قد ربطت بينهما برباط متين من الصداقة التى توحد بين الرجال إبان الفعاليات المشتركة، بعيداً عن همهمات الأسرّة الهادئة وبعيداً عن كلب الموت المسعور الذى ينبح فى هدأة الليالى الساكنة داخل المعسكر بغية درأ الأرواح الشريرة. فلقد تولى **الفريق إسماعيل باشا** مهمة إخماد تمرد رؤساء القبائل ووضع حد لثوراتهم. وعندما هدأت الأحوال كلها أخذ يساعد **إبراهيم باشا** فى حكم الإقطاعية (الباشوية) التى كانت تضم فى ربوعها سهلاً فسيحاً وجزءاً من مرتفعات سلسلة جبال **طوروس****.

* الكلمة التى استخدمتها المؤلفة باليونانية هى pasalikê، وهى محرفة عن الكلمة التركية «باشالق» التى تعنى «إقطاعية الباشا» أو لقب «الباشوية» ذاته.

** هى سلسلة جبال تقع وسط تركيا، وهى فى اللغة اليونانية Taurosوتعنى «الثور».

ولقد قاما معاً بسك عمله جديدة كى تغدو بمثابة برهان للقرون التالية يشهد على إخضاع **منطقة أدنة** لحكم مصر خلال مدة ست سنوات. كذلك قاما بإدخال طرائق جديدة لرى نباتات القطن والقمح والأرز وبساتين الفاكهة، كما قاما بقطع أشجار من غابات **جبال طوروس** كى يبنوا بها سفناً (للأسطول المصرى). ولقد أشرف **الفريق إسماعيل باشا** بنفسه على هدم حصن بيزنطى كان قائماً فوق التلال الواقعة غربى المدينة، بحيث يغدو فى مقدوره أن يفيد منه كقاعدة يشن منها - برفقة رؤساء القبائل الذين تم إخضاعهم - غارات حربية وغزوات جديدة. وفى أثناء انفجار الألغام خيل (**للفريق إسماعيل باشا**) أن هناك كلمات يونانية تتناهى إلى سمعه، وهى كلمات كان من شأنها أن تحمل إلى عقله أصداء الفترة الأولى التى أشرف فيها على الموت ثم أصداء فترة مولده ثانية من جديد. ولقد أجفل من الدهشة حينما شاهد (شبح والدته) يلوح له وسط دوى (الانفجار)، وتبدت له هيئتها بمثل ما كانت عليه قبل ذلك: فتية يانعة رغم الذعر الذى استبد بها والخوف الذى استولى عليها. وسمعها تهتف مرتين باسمه الذى عمد به فى الديانة المسيحية، وهو اسم لم يعد يسمع أحداً ينادى به عليه منذ سنوات طويلة. وبغير أن يعرف آنذاك الروايات (المختلفة) عن نهاية أمه، وبدون أن يلف (طيفها) بالكفن الحريرى كما تقضى بذلك طقوس الجنائز، فقد (هيأ له فكره) أن يدثرها بالثياب المهلهلة الممزقة التى كانت ترتديها فى الكهف. ولقد أقام اسمه المسيحى هذا جسراً مكنه - عن طريق صورة قوس قزح مباغتة تراءت له - من الوصول عبر هذه السنوات بأسرها إلى جسد (طيف) أمه، الذى كان يتقدم نحوه وهو يسير بحرص فوق انحناءة (الهضبة) ذات الألوان؛ وهنا اندفع صوب المكان الذى كانت تتقدم هى منه. غير أن هذا الجسر (وهذا ما تخيله) ارتفع بدعاماته التى كان يرتكز عليها وتحول إلى الناحية العكسية بعيداً عن مسار انحناءة الهضبة، كى يحول من جديد - عن طريق هذه الدائرة الغامضة - بين الغلام وبين أمه.

وفى اليوم التالى أصدر الفريق إسماعيل باشا أوامره بعدم هدم جسر (الإمبراطور) **يوستينيانوس** الذى كان يربط بين فرع نهر **سارو** الأيمن وبين

القسم الشمالى من **مدينة أدنة**، وبترميمه وتدعيم ركائزه لكى يتحمل ويظل قائماً خلال السنوات التالية. غير أنه لم يشرح لكائن من كان السر فى وقوفه مراراً وتكراراً على هذا الجسر، وسر بحثه الدائب بعينيه (عن طيف أمه) على صفحة ماء النهر.

وكان السلطان (التركى) قد أقسم على الانتقام للإهانة التى لحقت به، ولذا فقد نقض المعاهدة متذرعاً بأوهى الأسباب، وأصدر أوامره لجيشه الذى كان معسكراً على مقربة من **نهر الفرات** بالتحرك ضد **إبراهيم باشا**. وعلى الفور قام (**إبراهيم باشا**) بحشد جيشه وتوغل مرة أخرى فى الأراضى السورية كى يلاقى فى ساحة الوغى حشود الأعداء. وقام **أوكتافيوس يوسف دى سيف**، أو **سليمان باشا الفرنساوى** - الذى كان يرافق **إبراهيم** فى كل حملاته وغزواته - بالتخطيط لمعركة **نيزيب** (Nizip*) التى أسفرت عن تشتيت شمل جيش السلطان التركى. وكان من الواضح أن المعركة التى وقعت آنذاك فى وهج حرارة الصيف كانت معركة رهيبة حافلة بالفظائع، إذ عجز هؤلاء الذين قدر لهم النجاة منها عن العثور على مكان يختبأون فيه أو يخفون داخله ذكريات الرعب الذى استولى عليهم. وعلم **السلطان التركى محمود** بعد مرور ستة أيام على نشوب المعركة بنبأ ما حدث من هول، ولم يتسن له هو الآخر أن يجد مكاناً يوارى فيه الإذلال الذى تعرضت له هيبته الإمبراطورية، فلفظ أنفاسه الأخيرة ورحل عن الحياة صباح اليوم التالى.

ومرة أخرى شاهد **الفريق إسماعيل باشا** خيط المسافة إلى **القسطنطينية** (**اسطنبول**) وهو يلتف حول **يطقان** (الحسام التركى المحدب) **إبراهيم باشا**، وبدأت استعدادات الأسطول والجيش المصريين لاحتلال المدينة. وكان يمكن لمثل هذا الاحتلال أن يتم دون سفك دماء، وكان يمكن لشعب المدينة أن يحتفل ابتهاجاً بالسلطان الجديد، لو لم تتدخل القوى الكبرى. إذ شرعت كل من إنجلترا وروسيا والنمسا فى قصف مدينتى **عكا** و**بيروت**. وأصدر المجلس العسكرى المصرى قراراً يقضى بعدم منح الأوروبيين الفرصة كى يجنوا ثمار عشر سنوات كاملة من

*وهى معركة دارت فى مدينة «نيزيب» جنوب سوريا وعلى نفس الخط الذى تقع عليه منطقة العثمانية. وقد دونتها المؤلفة بالصورة Netzip.

الانتصارات المصرية. وما أن علمت القوى الكبرى بهذا القرار حتى توجهت أساطيلها صوب **مدينة الإسكندرية**. وهنا أصدر **محمد على** أوامره لابنه **إبراهيم** بالعودة فوراً إلى مصر، وامتثل **إبراهيم** لهذه الأوامر رغم إرادته لأنه لم يكن قط راغباً فى معارضة كل ما يمثله والده بالنسبة له من سلطة وتاريخ ومشاعر عميقة.

وقفل هؤلاء الذين أنزلوا الهزيمة بالأتراك فى كل المعارك عائدين أدراجهم إلى الدلتا التى كانت تشبه المتاهة (بقنواتها وفروع نيلها)، ورغم ذلك كان يخيل لمن يراهم أنهم عادوا مدحورين لا منتصرين ظافرين؛ وكان **الفريق إسماعيل باشا** يعتقد فى قرارة نفسه أنهم كانوا يبدون بمثابة أسرى. وعادت **أدنة** وسوريا من جديد إلى حوزة السلطان التركى، ولم يبق **لإبراهيم** سوى حق خلافة والده على عرش مصر.

وغدت الحياة فى ظل هذه الظروف أكثر قسوة وصعوبة، فلقد انزوى **إبراهيم** فى ضيعته التى كانت موجودة **بمديرية الشرقية**، وطفق جاهداً يخفف عن نفسه آلام الحزن الغامر عن طريق الاقتراب أكثر من (حُب) الأرض: فلقد جلب لبساتين الفاكهة فى ضيعته سلالات جديدة من الأشجار، وأخذ يجرب زراعتها فى صفوف متراصة (جذابة) وفقاً للطريقة الغربية فى فلاحة البساتين. ثم أطلق على هذه الأشجار المتراصة فى صفوف أسماء المعارك الرئيسة التى خاضها، وكان يحاول أن يتنبأ من التعاقب الذى لا ينقطع بين الظلال والضوء - وكأنه لعبة مسلية فى الممرات الواقعة بين هذه الأشجار - هل انتصر حقيقة فى معاركه أم انهزم !!!

وكان **الفريق إسماعيل باشا** يزوره كثيراً، وكان يزوده فى كل زيارة له بمعلومات جديدة عن حياة الناس فى البلاد، إذ كان منصبه كقائد أعلى يضعه فى قلب الأحداث مباشرة. ولم تكن البيروقراطية السائدة آنذاك تلقى من الرجلين اهتماماً كبيراً، فهما اللذان انتصرا فى كل معاركهما وكان كل منهما يساند الآخر ويؤازره ويقف إلى جواره. وكانت الصداقة التى جمعت بينهما متينة قادرة على التحمل والصمود، وكأنها سلسلة اعتراها الصدأ ولكنها كانت قادرة رغم ذلك على

أن تشد السفينة خلال حر الصيف القائظ إلى رصيف ميناء من موانى البحر المتوسط، حيث كانت أسراب الطيور تحط عند هبوطها من التحليق فى الجو على حلقاتها الحديدية.

وعندما مرض **إبراهيم** - بعد ما زادت عليه الأحزان - رافقه **الفريق إسماعيل باشا** لمدة طويلة من الزمن فى رحلة إلى أوروبا؛ وكان كل منهما يريد أن يستوثق وأن يرى بعينى رأسه ذلك اللغز التى كانت تمثله بالنسبة لهما الدبلوماسية الغربية، وكان كل منهما يجهل كل الجهل ما هو الوطن الذى نبع منه ذلك اللغز؛ هذا لو كان له وطن! غير أنهما لم يرحلا إلى الدول التى كانت تضمر العداء لمصر أو تكن لها الكراهية، لا لأنهما كانا عازفين فقط عن رؤية مدن العدو، ولكن بالأحرى لأنهما اقتنعا تمام الاقتناع بأن طب الأمم الغربية كان قميناً بأن يسبب الموت، لو أن هذا الموت كان فى صالحه. وفضلاً عن هذا فقد كانت هذه الدول المعادية لمصر تحبذ الشروع فى نشاط دبلوماسى لا يتوقف، بحيث يترتب عليه إذلال المنتصر جهرا وعلانية وإظهار حالة اليأس والإحباط التى غرق فيها الخاسر المهزوم.

ورغم أن الرجلين أمضيا عامين من الزمن فى أوروبا، إلا أنهما اضطرا بعدها للارتحال (مرة أخرى) إلى فرنسا وإيطاليا بمجرد رجوعهما إلى مدينة الإسكندرية. ولقد انتشرت الأقاويل بين الناس فى مصر فى هذا الخصوص، وكان من بينها التكهن بأن الأمير المرشح للجلوس على العرش بعد والده لم تعد لديه أدنى رغبة فى البقاء فى البلاد، ولم يكن مبعث هذا القول من جانبهم هو استمرار الحل والترحال فى حياته العسكرية، بقدر ما كان مبعثه احساسهم بأن بلده قد ضاقت عليه بما رحبت بعد الضيق والعناء اللذين حلا به. غير أنه كان هناك - فضلاً عن ذلك - سبباً آخر لم يقدر للناس فى مصر أن ينجحوا فى تخمينه، الا وهو تلك الجاذبية الساحرة تجاه التعرف على أوروبا، وهى جاذبية فرضت نفسها على كل من الألبانى العثمانى **إبراهيم باشا** وعلى اليونانى **إسماعيل باشا** الذى صار مسلماً.

ورغم أن المرض قد أفلح فى عزل **إبراهيم باشا** عن العالم الخارجى وفى جعله يحافظ فى ذات الوقت على الطفل كامناً أو قابعاً فى أعماقه، فإن الرجلين كليهما لم

ينيا عن زيارة كل ما وسعتهما زيارته من أماكن من أجل اكتشاف أوروبا والوقوف على أسرارها. ولم يكن مسلك الرجلين هذا نابعاً من فضول غريزى اتصفا به، بل (لأنهما كانا يعتقدان) أن مصر لن تظفر بعجلة التحديث التى تنشدها بدون مهندسى أوروبا (وخبرائها)؛ وكان هدفهما الذى يسعيان إليه هو الوصول إلى منابع العقلانية فى الفكر الأوروبى. لذا فقد طفقا يزوران المتاحف الكبرى حيث شاهدا الجسم البشرى وهو يصور عن طريق مذاهب فنية تختلف مفاهيمهما من عصر إلى عصر آخر، وحيث شاهدا قدرة الفنان الإبداعية ومدى معرفته العلمية بالطب والتشريح. وأكثرا من ارتياد دور الأوبرا ـ وخاصة الإيطالية منها ـ حيث الإبداع والتجديد اللذان يكشفان عن موضوعات الأوبرا ونصوصها وألحانها عن طريق تزاوج الأساطير مع الأنغام الشعبية. وتفقدا كذلك أطلال الآثار الرومانية ودخلا الحصون المغلقة وأديرة المذهب الكاثوليكى، وتجولا فى أروقة الجامعات العريقة والمكتبات الشهيرة. ولقد استهوتهما وشدت انتباههما تطبيقات العلوم فى المجتمع المعاصر أكثر مما جذبهما الفن، هذه التطبيقات التى تتمثل فى السفن التجارية وخطوط السكك الحديدية وآلات المصانع الميكانيكية والمصابيح التى تضئ بالغاز، واستخدام الحديد فى المبانى والصحف والطباعة. كل هذا ولد فى عقل كل منهما أفكاراً جديدة عن نقل هذه الوسائل الحديثة لأرض النيل. ولم يكن بوسع الأوروبيين ـ رغم أنهم بذلوا فى ذلك الصدد محاولات شتى ـ أن يخفوا تماماً مظاهر الفقر أو صورة الفقراء منهم الموجودة فى بلادهم، والتى كانت جد مختلفة عما عرفه كلاهما أو قاما بمعاينته وجهاً لوجه، وكأنه كان تقريباً مجرد مشهد يتراءى للعيون دون أن يتسنى لهما إدراكه تمام الإدراك. وكان لزاماً عليهما أن يجريا مناقشات كافية فى الولائم الرسمية التى كانا يحضرانها، لكى يتسنى لهما أن يقفا بوضوح على مدى خطورة ذلك الظلام الذى كان يواكب نور العظمة الأوروبية الطموحة. فإذا كان فقراء الثورة الفرنسية الذين يرتدون الأسمال البالية لم يعودوا ينزوون فى أركان الطرقات، فإن إيطاليا قد شرعت فى إعداد ثورتها الوطنية ضد الاحتلال النمساوى. كما أن المسئولين ـ وفقاً للمعلومات التى ذاعت وانتشرت ـ لم يتكتموا

الأمر فأعلنوا أن ثمة مؤسسات سرية كانت تعد العُدة لثورة عارمة فى قلب باريس، وأن الأفكار التى ألهمت هذه المؤسسات السرية قد انتشرت وسرت سريان النار فى الهشيم خلال السنوات الأخيرة؛ كما أكدوا أن الآلات (التى تم اختراعها) قد كبلت الفقراء فى نير عبودية جديدة أبعد ما تكون عن الروح الإنسانية.

وفى تلك الأثناء أصيب **محمد على** بنوع من الخبل أو الذهان، ربما تحت تأثير الشيخوخة التى لا ترحم أو ربما بسبب أساليبه الخالية من الشفقة، التى كان يتبعها فيما يخص إجراء التوازنات القائمة بين القوى والقيام بحصرها. وعلى ذلك فقد تنازل عن العرش لخليفته الشرعى (وابنه البكر **إبراهيم**). وكان لزاماً أن يتم تتويج خديوى مصر الجديد فى القسطنطينية (**اسطنبول**) على يد السلطان التركى نفسه.

وارتحل الرجلان على ظهر السفينة التجارية الجديدة التى كان يمتلكها ولى العهد، حيث إن الرحلة هذه المرة إلى **البسفور** لم تكن عسكرية كالسابق. وظلت ذكريات حروبهما فى سوريا وحياة السلم التى نعما بهما **فى أدنة** ترافقهما ليلاً ونهاراً، وكأنها «الديدبان» الذى يقوم بحراستهما. ولم يستطع الرجلان أن يطردا من ذهنيهما هاجساً كان ينذر بالفراق، إذ تخوفا من أن الماء المالح لن يمنحهما فى هذه الرحلة سوى الموت، ذلك لأنه منحهما بالفعل فيما مضى أخطار الحرب وآلام المرض.

وتعاهد كلاهما أن تصبح قوة الذاكرة (منذ الآن فصاعداً) قادرة على إبطال توقف مسيرة الحياة، وهو الأمر الذى كان **الفريق إسماعيل باشا** يعرفه حق المعرفة منذ الساعات الأولى التى تلت أسره، غير أنه غدا الآن قادراً على مشاركة (صديقه) فى هذه المعرفة. غير أنهما لم يتوقفا عن الاسترسال فى أحاديث مسهبة، حتى ولو كان هدف أحدهما (من الصمت) هو إيثار صديقه على نفسه كى يدعه يستغرق فى (سرد) ذكرياته الشخصية.

ثم توجه **الفريق إسماعيل باشا** لكى يلقى نظرة على الشريط الساحلى الطويل الذى كان يتراءى أمامه وهو فوق ظهر الباخرة. وكانت شمس الأصيل آنذاك تلقى بأشعتها الأفقية فوق صفحة البحر. ولمحت عيناه الجزيرة (كريت) تمتد مستوية تماماً وكأنها قماش من اللباد الرمادى تم قصه بمقص، بحيث لم يعد هناك شئ بارز فوقها لشخص أو لشجرة أو لكائن حى. واعترته رجفة حينما وجد أن دائرته الغامضة قد صارت مغلقة تماماً، كما لو كانت قد غدت غير مطابقة بعد لأى شئ موجود أو لأى أمر نفيس القدر. وبينما كانت السفينة التجارية تنطلق بعيداً تساءل (**الفريق إسماعيل**) عما إذا كانت ذكرى حياته الأولى قد صارت بكاملها ثابتة لا تقبل التغيير، وبالتالى بمنجاة عن الخطر ! وعند ذاك (اكتفى) بهز كتفيه.

ثم ترك (**إسماعيل باشا**) سطح الباخرة ليبحث عن (صديقه) **إبراهيم**، وكان ضوء الشمس التى تجنح للمغيب يظهر بجلاء جبهة الأمير بارزة. (وخيل إليه آنذاك) أنه حتى البدوى الذى يجوب القفار لم يكن يشتهى ماء الواحة فى إحساسه بالظمأ بمثل ما كان يشتهيه **إبراهيم باشا** فى هذه الرحلة. (ولقد اعتقد **إسماعيل** فى قرارة نفسه) أن **إبراهيم** كان جديراً بأن يتوج سلطاناً على الإمبراطورية العثمانية بأسرها لا أن يكون فقط ولى عهد لملك مصر. ولقد ذكرته جبهة **إبراهيم** التى ارتسمت عليها ملامح العذاب بالنقوش والرسوم التى رآها فى الكهف الذى شهد أسره؛ ومعنى هذا أن ذاكرته لم تعد بعد جديره بالاعتماد عليها أو الوثوق فيها.

ولقد انطبعت فى عقل **الفريق إسماعيل باشا** إلى الأبد مراسم تتويج (الملك الجديد)، فبعد رحيل صديقه (إبراهيم) عن الحياة طفقت تعذبه لوقت طويل صورة رأسه الجميل التى اكتست بالحزن وهو ينكسها أمام السلطان أثناء تتويجه. ولقد قوى من عزيمته أن (الأمير) المتوج سوف يرفع بعد ذلك وجهه ليرشق بنظرات عينيه (النفاذتين) مقلتى السلطان الملونتين، وأنهما - تحت تأثير هذه النظرات - سوف يتبادلان فيما بينها رموز السلطة الصغرى ورموز السلطة الكبرى تحت وهج نور يماثل نور الفردوس. وأن السلطان سوف ينهض واقفاً ثم ينصرف إلى حال سبيله

وهو يخطو فوق السجادة الحريرية لكى يقص مرة أخرى - وقد ضاقت به السبل - قصة خيالية على نافورات (**اسطنبول**) العامة، وأن الحاضر سوف يطوق من كل جانب الرموز الوحيدة التى تاقت إليها روحه كرجل يحظى بالشهرة والتقديس.

وكان محيا **إبراهيم** وهو مطرق برأسه يعبر عن الطاعة التى استقر عزمه على الالتزام بها، والتى تقود الجندى حتماً إلى الموت والهلاك. ولقد أحس (**إبراهيم**) بطيف رفيقه وهو يحلق حوله، وشعر بأنّ هذا الطيف يلامس بجناحيه الرقيقين وجنته، فازداد إطراقه وتنكيسه لرأسه.

ولسوف يقدر - بعد انصرام شهور قليلة على ذلك الزمن - ليد **محمد على**، الذى وهن منه العظم بفعل الشيخوخة وأصابه الخبل، أن تربت بربتة حانية على وجْنَة ابنه البكر **إبراهيم** الذى كاد الحزن يورده موارد التهلكة.

وقر فى روع **الفريق إسماعيل باشا** آنذاك أنه لو دارت به عجلة الحياة مرة أخرى فى فلك المدى والخناجر - وكان هذا هو ما ثبت له فعلاً من حياة الأسر الذى رسف فيه بوصفه مسيحياً، ومن الحروب التى قدر له أن يخوضها بوصفه مسلماً - فإن الواجب يقتضى منه أن يَفْرق من خناجر أخرى قد يتعرض لها. وأن هذه (الخناجر الأخرى) سوف تشق بنعومة نسيم الهواء فى شهر أغسطس، مثل الحمائم التى تهبط وهى محلقة فى طيرانها لكى تحسو جرعات من الماء المتجمع على شكل بركة صغيرة تحت أشجار التين والسرو. إن الموت هو الريشة البيضاء الزائدة التى انفصلت (عن الحمائم) بفعل خفقان أجنحتها أثناء الطيران ثم سقطت بعدها فى الماء. وما أن نظر حتى وجد بركة الماء وقد تحولت إلى لون أحمر قان، فرفع يده إلى صدغه كى يتثبت ما إذا كانت الشعيرات البيضاء الأولى التى نبتت فوق (فوديه) مازالت تمنح أطراف أنامله ملمساً مختلفاً أم لا. وأحس كأنها ريشات رقيقة كساها الوهن والتعب! فلو أن أمه ظلت على قيد الحياة لكان رأسها قد اشتعل الآن شيباً، ولتغير لون شعرها وهى تعيش فى كنف زوج آخر وأبناء آخرين.

وتناهى إلى سمعه صوت (أمه) خافتاً وهى تناديه باسمه مرتين وكأنها كانت تلومه أو تظهر استياءها منه لأنه حاول نسيانها وتعريض حياته للمخاطر (باشتراكه) فى المعارك التى خاضها. وعلى أية حال فإنه قد بلغ الآن السن التى ينبغى عليه فيها أن ينسى ما حدث بطريقته الخاصة. كان ينبغى عليه أن يتزوج فيحول بذلك مرارة الحزن بسبب فقده لصديقه الحبيب إلى حلاوة. وكان مثل هذا التصرف من جانبه كفيلاً بأن يجعل أمه سعيدة مبتهجة، إذ ستعرف أنه قد غدا يحظى برعاية نساء أخريات.

ثم شعر **الفريق إسماعيل باشا** بالخوف لبرهة من الزمن من حركة يد أمه التى شقت الهواء فى رقة ونعومة لكى تربت برفق على شعره، غير أنه مالبث أن لمس زناره بيده وأيقن أن النصل البتار كان هناك فى الكهف، وليس فى اليد التى هبطت لتربت على رأسه. شاهد الريشة التى تبقت بعد حركة يد والدته ولم يستطع أن يمنع نفسه من متابعتها بناظريه، وخيل إليه أن صوت والدته كان يشده إليه مع خفقان جناح (الحمامة) كى يعلن له أنه سوف يتلقى عن قريب أخباراً تتعلق بشقيقه المفقود، وأن عليه قبل أن يتلقى تلك الأخبار أن يتزوج. وبعدها تبدد طيف أمه خلال الأقواس الرخامية التى كان بصره شاخصاً تجاهها.

الفصل الخامس

استقبل **الفريق إسماعيل باشا** فى منزله ذلك الشخص الأجنبى الذى التمس مقابلته، وتصادف أن الوقت كان بعد الظهيرة، فى تلك الساعة التى كانت الشمس تبدى خلالها حنانها ورقتها فى ردهات المنزل، وتظهر فيها قسوتها وشدتها فى المشاعر والأحاسيس. وكان النور الذى يتسلل من النوافذ ذات المشربيات المتقنة الصنع يظهر محيا ذلك الضيف الأجنبى وكأنه وجه مألوف - أو ربما كان مألوفاً لديه ذات يوم - وكان النور يرسخ ذلك الشعور لديه كلما تباطأ الوقت فى مروره. وهنا أصدر **الفريق إسماعيل باشا** أوامره بإضاءة كل القناديل والشمعدانات الموجودة فى البهو على جناح السرعة.

ولقد استشف (**الفريق إسماعيل باشا**) من ملامح الشخص الأجنبى علامات معينة تشى بأنه يمت له بصلة القرابة من ناحية والده. ولم تكن هذه العلامات نتيجة للتنكر، مثلما يمكن أن توحى به ملابس ذلك الأجنبى الموشاة بالذهب، والتى ذكرته بالملابس التى كان يرتديها الرجال إبان حياته الأولى، فى حفلات أعياد الميلاد الكبيرة أو حفلات الزفاف أو مراسم الدفن عند الموت. وجال بفكره خاطر مؤداه لو أن شقيقه قد لقى حتفه وهو صغير، فإن هذا الأجنبى يمكن أن يعتبر طيفه أو خياله؛ غير أنه مالبث أن نبذ هذا الافتراض لأنه رفض أن يتقبل فكرة أن **أنطونيس** قد كف عن السير بجواره كأسير.. فلا ريب أنه يعيش الآن فى مكان ما وأن أعراض الشيخوخة فى سبيلها لأن تبدو عليه هو الآخر.

ولم يصدق **الفريق إسماعيل باشا** الاسم ولا المكان اللذين ذكرهما ذلك الشخص الأجنبى، غير أنه اقتنع باللغة التى كان يتحدث بها، ذلك أنه كان يتحدث بلغة يونانية ذات اصطلاحات وتعبيرات مماثلة لتلك التى كان يستخدمها سكان الهضبة فى سالف الأيام. وكان الصمت الذى خيم على لقائهما - بعد أن تعرف كل

منهما على أواصر القرابة التى تربطه بالآخر ـ قد فرض عليهما نوعاً من التحفظ المتبادل؛ فلقد تذكر **الفريق إسماعيل باشا** مرة أخرى مسيرة حياته مع شقيقه. ورغم أن مشاعر كل منهما لم تعد مماثلة لمشاعر الآخر، ورغم أن ذلك الأجنبى لم يكن شقيقه بحال من الأحوال، إلا أن بدنه قد استسلم بشوق جارف لاحتضان جسم الرجل الواقف أمامه، كما غدا عقله أسيراً للحدود التى تشكل قدرته على الاحتمال.

تحدث كل منهما مع الآخر حول قضايا التجارة التى طرحها الأجنبى والتى دفعته للقدوم إلى الإسكندرية ـ التى كانت تشهد آنذاك نمواً ملحوظاً ـ ثم من بعدها إلى القاهرة. وسأله (الضيف) عن التأثيرات التى يمكن أن يحدثها استخدام الخط الهمايونى فى حركة التبادل التجارى، حيث إن هذا الخط قد فرض نوعاً من احترام الحرية الدينية فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية. وتحدثا كذلك عن منتجات مصر التى يمكن تصديرها إلى بلاد حوض البحر المتوسط. ولقد سأله الضيف الأجنبى عما إذا كانت له علاقات مع اليونانيين المقيمين فى مصر، وأجابه (**الفريق إسماعيل باشا**) أنه وضع ذلك نصب عينيه وإن كانت احتياجاتهم الحقيقية لم تتبلور له بعد. وأضاف قائلاً إن اليونانيين يملكون فى أيديهم النشاط التجارى لإنتاج العاصمة، وخاصة محصول القطن، وكذلك المقاهى ذات الطابع الأوروبى القائمة فى الأحياء المناظرة. وأخبره كذلك بأنه منذ أن تولى **محمد على** حكم مصر حظى اليونانيين بمركز متميز فى البلاد، وأن نهضة البلاد ارتكزت عليهم بشكل رئيسى، وبالتالى فلن يكون هناك أى عائق أمامه للشروع فى استخدامهم، وأن الحياة فى مدينة الإسكندرية كانت من صميم عملهم هم والأوروبيين. وأضاف قائلاً إنه خلال القرون الأخيرة لم تعد هناك مشكلة بالنسبة للدين، والدليل على ذلك هو أن الأورثوذوكس المصريين، وهم الأقباط، كانت لهم بوجه عام عادات العرب وملامحهم، رغم أنهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية فى كنائسهم القديمة وفق تعاليم كتبهم المقدسة ولغتها الأصلية. كما أنهم شيدوا فى مدينة القاهرة بطريقتهم

المتميزة منازلهم الضيقة والمرتفعة، ربما لأن المساحة المتاحة لهم لم تكن رحبة فى الجوار الذى كان محدود الرقعة، حيث كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع اليهود؛ وكانت بوابة الحصن الخشبية الخاصة بالحى توحى بوجود فترات طويلة من الاضطرابات. وضحك الفريق **إسماعيل باشا** ثم أضاف قائلاً إنه رغم الحروب التى لم يكن هناك محيص عن نشوبها، فإن العرب ظلوا يحتفظون دوماً بذكرى **الروم** على أنهم أمة قديمة عظيمة تتسم بالبسالة والإقدام ويعمر قلبها بحب البشر، غير أنه رغم ذلك لم يقم علاقة من نوع ما مع اليونانيين المعاصرين له. بعدها دعا (**الفريق إسماعيل باشا**) الضيف الأجنبى كى يتناول معه طعام العشاء، وجعله يقيم فى ضيافته فترة أيام ثلاثة وفقاً للعرف الذى كان سائداً آنذاك.

وفيما بعد أوصل الخدم الضيف الأجنبى إلى حجرة النوم المخصصة له، على حين استأنف **الفريق إسماعيل باشا** التدخين فى البهو الكبير. وتحسس بأصابعه شعيرات لحيته القصيرة والشعيرات النابتة على وجنتيه، وكذلك تلك الشعيرات الكثيفة التى كانت تشكل حاجبيه المقوسين؛ فلقد شعر بأن نظرات الضيف الأجنبى قد تسمرت عليهما أيضاً. وطفق يتابع بخياله حركات الزائر وسكناته، فكان يصغى إلى وقع خطواته وهى تدب فى الممرات المتعرجة التى تشكل أرضية الطابق (العلوى)، والتى كانت تبرق بمثل بريق الزجاج الذى يخطف الأبصار، وتشكل لغزاً أمام من يراها رغم كونها مصنوعة من الألباستر الأبيض والمرمر الأخضر والجرانيت الوردى. ثم قام الخدم بفتح الأبواب العالية المطعمة والمشغولة، وأزاحوا الستائر المخملية جانباً، ولم يدر قط بخلدهم أن سيدهم كان يتحرق شوقاً فى هذه الساعة إلى رفع القناع الذى يغطى وجه الضيف الأجنبى. وكان من الطبيعى فى هذه اللحظة أن تشد انتباه (**إسماعيل باشا**) تلك الزخارف الجصية البارزة ذات الورود، التى كانت تغطى سقف حجرة الضيافة، بنفس القدر الذى شدت به انتباهه قبل ذلك تلك النوافذ الوردية الموشاة بالذهب التى كانت تزين قبة البهو. ثم أنزل (**الفريق إسماعيل باشا**) بصره ليرنو إلى الأطر التى كانت

تحيط بتلك القبة، والتى كانت مزينة بإطار مستدير يمر خلال سلال زاخرة بالزهور والأوراق العريضة. وهنالك داخل هذه الأطر كانت توجد مناظر طبيعية مصرية، مرسومة على طريقة المدرسة التى كانت تحاكى طابع الكلاسية الفرنسية وتستلهمه فى أعمالها الفنية؛ وكانت هذه المناظر تمنح اتساعاً يمكن للعين أن تتخيله فى ذلك البهو المغلق. وهكذا استقر عزمه على أنه لا يوجد شئ أصيل تماماً حتى فى أصالته هو نفسه.

وطفق (**الفريق إسماعيل باشا**) يبحث فى زناره من جديد عن المدية التى عثر عليها من قبل فى الكهف، وفكر فى أنه عندما تنبلج شمس الغد فإنه سوف يذهب مع ضيفه الأجنبى إلى رحلة صيد، وذلك لأنه كان يتحرق شوقاً إلى رؤية الصحراء الشفافة، فهناك حتماً سوف يعرف (ما ينبغى له معرفته) هذا إذا لم يكن قد عرفه بالفعل.

وقبل أن تشرق الشمس بنورها رحل مع ضيفه الأجنبى عن المدينة، وكان فى معيتهما حراس وخدم وأتباع يرافقونهما وهما يمتطيان العربة المعدة لرحلة الصيد. ولم تتوقف الكلاب عن النباح فيما خلا كلب واحد كان **الباشا** قد حمله معه فى عربته. وعندما بلغ الركب منطقـــة الأهرامات أصدر **الباشا** أوامــــره بالتوقف عند خان (استراحة)، وكان من المقرر أن يتقدم مع ضيفه الأجنبى وحدهما للصيد فى أرجاء الصحراء المجاورة. ولذا فقد حملا معهما الماء والطعام وامتطيا صهوة جواديهما، وتمنطق كل منهما بزنار وضعا فيه ما يلزمهما من سلاح جنباً إلى جنب مع ما يحفل به قلباهما من مشاعر. وهنا شرع الكلب الذى كان فى العربة فى النباح، وذلك لأنه ربما استشعر وقوع كرب كان مجهولاً حتى هذه اللحظة بالنسبة له. وعندما غير الضيف الأجنبى وجهته فى السير كى يرنو ملياً إلى الأهرامات أخبره **الباشا** بأن عليه أن يرجأ هذا لفترة، حيث كان يتعين عليهما أن يصلا إلى الواحة قبل أن ترتفع الشمس إلى كبد السماء. ثم لف كل منهما وجهه - فيما عدا

أنفه - بمنديل من القطن. ولم تكن حوافر الجياد تكاد تسمع وهى تتواثب فوق رمال الصحراء القاسية التى كانت تتراءى للعيان، ولم يتحدث أى منهما للآخر، بل حاول كل منهما قدر ما وسعه من جهد أن يتفادى النظر إلى زميله. وفى النهاية توقف فرس **الفريق إسماعيل باشا** عند واحة صغيرة، كانت مياهها تلتف بحيث تفصل الواحة عن طرق القوافل. كذلك كانت هناك آجام خضراء وفيرة الأوراق تستمد مياهها من مصادر المياه الجوفية. وهناك توقفا عند نخلات باسقات؛ ففك كل منهما لثامه الذى كان يغطى به وجهه، وشربا من الماء وسقيا جواديهما من قِرب الماء، ثم عانق كل منهما الآخر.

كان **يواينس كامبانيس أو بابا ذاكيس**، هو ابن عم **الفريق إسماعيل باشا**.. وحيث إنه ولد بعد مرور سنوات من وقوع كارثة الهضبة، فلم يقدر له أن يرى أى شخص من أفراد عائلة عمه الذى كان قد اختفى آنذاك. غير أنه فى حقيقة الأمر لم يكن قد اختفى تماماً، طالما أن **انطونيس**، شقيق **الفريق إسماعيل باشا**، كان لا يزال يحيا فى مدينة أثينا.

وكان **يوانيس** هذا قد حدَّث **الفريق إسماعيل باشا** عن والدة الأخير الراحلة، وأخبره أنه لم يتمكن من رؤيتها بنفسه حيث إنه ولد بعد انقضاء سنوات عديدة على أسرها. ويبدو أنها قضت نحبها بعد ذلك بفترة قليلة، غير أنه لم يتذكر أنه رأى اسمها فى جبانة القرية. ولقد حكى (**يوانيس**) للباشا الروايات الثلاث التى رواها الناس عن مصير والدته، والتى تختلف كل منها عن الأخرى اختلافاً بيناً؛ كما سرد عليه الحجج والبراهين التى ترتكز عليها كل رواية منها بمفردها. ورغم انقضاء عشر سنوات فقط على المذبحة فإن أحداً لم يكن يعلم ماذا حدث على وجه الدقة، إذ كان جمهور رواة هذه الحكايات يحدد بالنسبة للمفقودين أماكن وتواريخ متضاربة بصورة واضحة، بحيث يخيل للمرء أن ما حل بهم وأثار حفيظتهم لم تكن الحرب، بل كان الصقيع الذى يظهر فى ساعة مبكرة من الصباح، أو الجليد الذى كان يغطى صفحة السهل. كذلك لم يهتم أى شخص بالتحقق من صحة هذه

الروايات، أو بتحرى حقيقة ما حدث بالفعل. ونظراً لأن الأحداث تفاقمت فقد تضاعفت الروايات أضعافاً مضاعفة، لدرجة أن ما بقى منها بعد فترة وجيزة من الزمن كان مجرد افتراضات أو تخمينات، يضفى عليها الرواة كثيراً من التأكيدات. فقد كان المفقودون دوماً يلمسون بأطراف أناملهم (أجساد) الأحياء، دون أن يرتكز فعلهم هذا أو يستند إلى القوانين التى تحكم الموت والحياة. واختتم **يوانيس** حديثه بقوله إن الرواة صاروا فى ازدياد وإن كلاً منهم كان يستطرد فى قص حكايات عديدة، وإن هذا المسلك ربما كان أكثر إنصافاً أو إحقاقاً للحق من الموت الذى (يبطل عمل كل شئ)..

وهكذا فقد بزغ (طيف) **انطونيس** من ركام الصقيع التى تألفت منه هذه الروايات المتناثرة، فجعل من وجوده فى مدينة أثينا مغزى ومدلولاً للحياة. ذلك أن **انطونيس** قابل **يوانيس** هناك وتجاذب معه أطراف الحديث، ثم بعث به **انطونيس** (إلى **الفريق إسماعيل باشا**) حينما علم بأخباره. غير أن **الفريق إسماعيل باشا** لم يسأل ضيفه عن كيف أو فى أى مكان علم شقيقه **انطونيس** بهذه الأخبار، كما أن **يوانيس** لم يكشف له عن الطريقة التى علمت بها تلك الشركة الغامضة - التى كان يعمل بها هو **وانطونيس** معاً كبنى جلدة واحدة - شخصية **الفريق إسماعيل باشا** الحقيقية، وكيف اقتفت آثار خطواته وحثتهما معاً على مقابلته.

وكانت رواية **انطونيس** - حيث إنه ما يزال على قيد الحياة - رواية واحدة، فقد كان يعيش فى مدينة **أثينا**، وكان يرتدى الزى الأوروبى ورباط العنق، وكان يفرق شعره من جانب رأسه الأيسر، كما كان يحظى بالتقدير ويعد واحداً من أغنى أغنياء اليونانيين. ثم أردف قائلاً إنه لم يتزوج، وكان الضيف **يوانيس** يقول ذلك وكأنه يحلف يميناً أو يؤدى قسماً. وكان (**انطونيس** قبلها) واحداً من الأسرى فى مدينة **القسطنطينية (اسطانبول)**، ثم تمكنت السفارة الروسية هناك من إنقاذ بعض الأسرى. وهكذا قاموا باخفاء **انطونيس** بعد إنقاذه؛ وكان آنذاك شاباً ضئيل

الجسم فى مقتبل عمره، وكان يقبع داخل برميل فارغ على ظهر سفينة تنقل سمك الماكريل المجفف إلى ميناء **أوديسا**. وكان الأتراك يعلمون حق العلم أن أنشطة الروس تبعث على الريبة، لذا فقد صعدت ثلة من جنودهم إلى سطح السفينة وشرعوا فى تفتيشها؛ وفتحوا جميع البراميل ماعدا ذلك البرميل الذى كان يختبئ داخله **انطونيس** (لحسن الحظ). وبينما كان **انطونيس** يصغى لأصوات الجنود الأتراك وهم يفتشون السفينة أقسم بأغلظ الإيمان فيما بينه وبين نفسه للمرة الأولى فى حياته، (عما يفعله) فيما لو كتبت له النجاة. وهناك (فى **أوديسا**) أسبغت أسرة **استورتزاس** - التى انحدر من نسلها زعيمان من زعماء **مولدافيا** - حمايتها على **انطونيس**. ثم قدر له بعد ذلك أن ينال قسطاً من التعليم وأن يعمل فى مكتبة كان يمتلكها **الكساندروس استورتزاس فى أوديسا**. واستطاع **انطونيس** أن يحظى بثقة راعيه وحاميه الذى أتاح له فرصة الدراسة فى مجال الزراعة، ثم عينه بعد اتمامها مشرفاً عاماً على ضياعه الشاسعة؛ ثم تصادف أن قضى **استورتزاس** نحبه قبل نشوب حرب القرم. وهكذا فقد منحت الحرب **انطونيس** فرصة مزدوجة: أن يعود إلى مدينة **أثينا** فى وطنه وأن يصبح ثرياً. إذ قام (**انطونيس**) بتحويل ما كان يمتلكه من أموال إلى قمح، تمكن من شرائه بثمن رخيص جداً من روسيا ثم سافر به إلى بلاد اليونان، حيث أفلح فى بيعه بثمن مرتفع، بسبب ما كان مفروضاً آنذاك على اليونان من حصار. ثم بعد أن أصبح ثرياً حول أمواله مرة ثانية إلى شراء الأراضى. وعقب إجراء بعض التعديلات على مشروع **كليانثيس** (لإعمار العاصمة) أصبحت الأراضى التى اشتراها **انطونيس** واقعة فى زمام هذا المشروع وغدت تشكل قلب العاصمة أثينا.

ولم يوجه (**الفريق إسماعيل باشا**) أى سؤال (تعليقاً على هذه المعلومات)، غير أن ضيفه **يوانيس** ذكر أن القَسَم الأول (الذى أقسم به **انطونيس**) قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالقَسَم الأحدث لرفيقه، وبالتالى فلم يكن بمقدور **يوانيس** ولا بمقدور أى شخص آخر أيا كان - منذ ذلك الوقت فصاعداً - أن يتنبأ بأن الثورة القادمة التى

سوف تندلع فى الجزيرة سوف تعتمد اعتماداً أساسياً تقريباً على أموال **أنطونيس**. كذلك وبالأحرى لم يكن بوسع أى شخص أن يتنبأ أنه - بعد انصرام عدة سنوات - سوف يقدر **لأنطونيس** أن يموت بلا وريث، وأنه سوف يترك كل ثروته **لجامعة أثينا**، وأن اسمه سوف يذكر ضمن أسماء مؤسسى هذه الجامعة وضمن الذين تبرعوا لها من رجال البر والإحسان. وأن اسمه سوف يدون كذلك بحروف من ذهب على الناحية اليمنى تحت اسم **أوثونوس**، وأنه سوف يكتب أيضاً بحروف من ذهب على مدخل نادى الجامعة الذى قدر له أن يشيد فيما بعد من الأموال التى تبرع بها، وأنه بذلك سوف يخلد بطريقة ما ذكراه بوصفه أسيراً سابقاً من أسرى الحرب.

أصغى (**الفريق إسماعيل باشا**) ملياً لما قاله ابن عمه، وانتابه شعور بأن كسفاً من الثلج المتساقط قد غطت الواحة المنعزلة، وكأنه يشاهد بعينى رأسه الهضبة البيضاء (التى شهدت مسقط رأسه) كما صورتها له ذاكرته إبان فصل الشتاء. وكان مما يبعث على الدهشة أن تبزغ (فى تلك اللحظة) صورة أشجار النخيل وصورة الخيول أمام ناظريه، فتطغى على مشهد البياض الذى ساد وعلى مشهد الصمت الذى ران. وطفقت التساؤلات عن حياة الغربة تتزاحم داخل ذاته وتتدفق وتضغط على مشاعره. غير أنه لم يطرح أى سؤال لأن الجليد قد حاصره وأسلمه للصمت والتفكير، وكان يشعر تماماً وهو مستغرق فى صمته بأنه مثل طفل رضيع غسلوا جسمه وأحاطوه بالحب والحنان ثم لفوه فى أردية دافئة.

وعند الأصيل تحركا فى ساعة متأخرة كى يقفلا راجعين إلى الخان (الاستراحة). ولم تعتر مجموعة المرافقين **لإسماعيل باشا** الدهشة من أى مسلك (غريب حدث فى هذه الرحلة)، سوى أن سيدهم لم يقم (على الإطلاق كعادته) بصيد طائر ما،فيما خلا هذا البريق الذى كان ينير صفحة وجهه ويمنحها وسامة، وكأنه الغنيمة الوحيدة التى ظفر بها **الباشا** من صيد الحمامات البرية.

وعندما حل المساء تناول (**الفريق إسماعيل باشا**) عشاءه مرة أخرى مع ضيفه الأجنبى، ودار الحديث بينهما حول شئون التجارة، وبعدها خلا إلى نفسه فى البهو الكبير وطفق يدخن. (وخيل إليه) ساعتها أنّ امتداد مجرى النيل حيث يوجد المصب لم يلتق أبداً مع المنبع، وأنّ النيل لم يصب مياهه فى البحر، ويبدو أنه كان مقدراً له ألا يعود ليصب مياهه فيه من جديد.. ذلك أن رأس النهر الزاخرة بالمياه ارتدت لكى تنهش ذيل النهر الذى كان يلتف حول جسمه، ثم إن النهر قد التف ليشكل دائرة حول الهضبة (التى تمثل مسقط رأس **الفريق إسماعيل باشا**) وأغرقها بمياهه، وجعل الجليد المتساقط يسيل ثم يفيض فى الحُفر التى تشبه البالوعات. وأحس فى أعماقه بأن الصوت الذى كان يسمعه فيذكره بماضيه قد تلاشى، فتلاشت معه كل الحواس الأخرى، الرائحة والرؤية والمذاق واللمس. فمنذ الأمس لم يعد هناك شئ بوسعه أن يمس عقله برفق وهوادة بنفس الطريقة التى كانت المدية تلامس بها الزنار الذى يطوق خصره. وطفق العالم المجرد الذى يخلو من كل الموجودات يغزو العالم المادى المحسوس، فركز بصره على غصن شجرة نابت ولاحظ أنه لم يكن له وجود قبل ذلك. وهداه فكره إلى أنه لو استمر النمو على هذا المنوال فإن معنى هذا أن مماته قد بدأ يتشكل مثل الجنين فى الرحم، كما أيقن أن هذا الموت حادث لا محالة بمجرد العثور عليه مرة أخرى قابعاً داخل ما يمكن أن يغمره به الناس من طوفان براءتهم المفقودة، حتى ولو كان هؤلاء فى تلك الأثناء قد غيروا أو بدلوا كل شئ، وحتى لو بدا مظهرهم مختلفاً تحت أشعة الشمس التى لا تتغير أبداً.

ولذا فقد اعتزم ألا يبوح بأسراره إلى **يوانيس**، لا لأنه كان ابن عمه فحسب بل لأنه كان أيضاً المبشر بالممات... ولقد استضاف **الفريق إسماعيل باشا** ابن عمه **يوانيس** لمدة شهرين، شهدت أحاديثهما (الشيقة) خلالهما المساجد العتيقة، والمشهد الذى يمكن للمرء أن يراه من القلعة، وبلاط القصر، والأسواق، ومقاصير الحدائق، والرحلات القصيرة. ولقد قدم **الفريق إسماعيل باشا** ضماناً مالياً لدير

(**سانت كاترين**) فى سيناء، كى يتمكن **يوانيس** من استئجار أملاك هذا الدير الموجودة فى مدينة الإسكندرية. وحكى له (**الفريق إسماعيل باشا**) أن مدينة الإسكندرية اليونانية الشهيرة فى حوض البحر المتوسط لم تشهد ازدهاراً يذكر بعد الفتح العربى لمصر، خاصة بعد تأسيس مدينة القاهرة، وأن تجارتها قد انكمشت وذوت تماماً بعد اكتشاف الطريق الجديد المؤدى للهند والمعروف باسم **رأس الرجاء الصالح**، وأنه عندما استولى عليها **نابوليون** لم يكن سكانها يزيدون عن آلاف قليلة. غير أن **محمد على** قد أدرك ما لموقعها من أهمية بالغة، فأخذ على عاتقة أن يعيد لها من جديد ما كان لها من مجد غابر على أيام **البطالمة**، فشيد لها ميناء للسفن وشق قناة لتمدها بالمياه وأنشأ بها قصراً منيفاً كان يمضى فيه فصل الصيف. وهكذا ازدهرت على الجهة الأخرى من البحر المتوسط ذاته مدينة تدين (**لمحمد على باشا**) بالشكر والعرفان، منذ أن كان غلاماً صغيراً فى مدينة **قولة**. أما ربط الإسكندرية بمدينة القاهرة عن طريق إنشاء خط للسكك الحديدية فقد فتح أمامها آفاقاً جديدة واعدة للتجارة.

ولم يبح **الفريق إسماعيل باشا** لكائن من كان فى قصره بأمر صلة القرابة التى تربطه **بيوانيس**، إذ كان بدنه يقشعر من فكرة مؤداها أن يتم تداول هذه الرواية، فتلوك الألسنة سيرته فى أروقة الحريم. ولكن الهوانم والعبيد فى قصره كانوا يفترضون أن تكون العلاقة بينهما علاقة حميمة وثيقة، واستنتجوا ذلك من ملامح وجهه التى تميل إلى التأمل والتفكر.

وعندما كان **الفريق إسماعيل باشا** فتى غض الإهاب كانت لغته اليونانية القابعة فى أعماقه تدفعه إلى مخاطرها الأخلاقية، غير أنه حينما أصبح رجلاً ناضجاً فإن هذه اللغة ذاتها كانت خليقة بأن تدفعه إلى اتخاذ قرارات لا محيص عنها ولا مهرب. وكان **يوانيس** بالنسبة له باحثاً عن حظه وقدره، ولكن من الواضح أنه جاء من أجل أن يصغى إليه ويستمع إلى كلماته. ولقد قر فى روع **الفريق إسماعيل باشا** أن الوقت قد صار متأخراً بالنسبة له كى يغير كلاً من حياته

وأحلامه: فلقد وضع فى اعتباره مسيرة حياته منذ أن غدا أسيراً حتى أصبح وزيراً للحربية، ووضع كذلك فى مخيلته الحروب التى انصرمت والصداقة التى جمعت بينه وبين **إبراهيم باشا** وأسرته والثروة التى يقتنيها، وكذلك حياته العربية والعالمية الطابع فى ذات الوقت داخل مدينة القاهرة. أضف إلى ذلك ما تلقاه من تعليم، إلى جانب عاداته المحدودة التى اكتسبها خلال حياته بأسرها، وما حدث لخيالاته من تطويع داخل قفص الدائرة التى كان يحيا فيها، والملاذ (الآمن) الذى عثر عليه هنالك، والمتعة التى حظى بها فى دائرة معارفه، والمتعة المباشرة التى حظى بها منذ وقت قصير. فلقد دفعه وصول **يوانيس** إلى أن يقيّم الأمور كلها بشكل مختلف، غير أنه - من أجل الوقت الحاضر وفى سبيل الاحتفاظ بتوازن صارم ودقيق لحياته - وجد الملاذ فى أن يلوذ بالصمت.

وارتأى **ليوانيس** أنه من الأنسب أن يمر وقت كاف (على هذا الصمت)، فانتظر حتى يتحقق من أن حدة الذاكرة لدى **الباشا إسماعيل** وبديهته الحاضرة دوماً رغم كونها صامتة، كانت مصحوبة بأحاسيس رصينة هادئة. وكان يريد أيضاً أن يستوثق من أن الحروب التى خاضها ابن عمه فى **سوريا**، وأن صداقته **لإبراهيم باشا** قد كان لهما أثرهما فى إثراء وجدانه بتأمل عميق وبكراهية فى ذات الوقت للباب العالى. كان يريد أن يتأكد من أن أسرته - رغم افتتانه بها وانجذابه إليها - كانت تتوافق بوجه خاص مع الصورة التى كان يتطلبها فى المقام الأول مجتمع الذين يسدلون الخمار على وجوههم من أعضائه المختارين. ولم يستطع (**يوانيس**) أن يميز بوضوح مدى فاعلية ما وضعه **إسماعيل باشا** من تصنيفات، وقدرتها على انتهاك التوازن الذى تم له اكتسابه بصعوبة ومشقة بالغين، أو أن يعرف المدى الذى كانت العدالة تسمح له به، مثلما كان عليه الحال فيما مضى. ولم يتسن **ليوانيس** فى أية مرة أن يصرح بأن **الفريق إسماعيل باشا** كان يبدو مستعداً كل صباح لكى يؤدى ما عليه من واجب ودين،طالما أنه أدلى بالاعتراف وتناول القربان.

وذات يوم تحدث **يوانيس** مع **الفريق إسماعيل باشا** عن أهوال العبودية التى مازالت مستمرة فى الهضبة، مسقط رأسيهما، وأقر **الفريق إسماعيل باشا** بأن العبودية بالفعل تحمل معها دوماً النكبات والإهانات. وعندئذ قال **يوانيس** إن الثورة (على العبودية) ربما كانت معادلة لأداء طقس من العبادات، شريطة أن يتم تجنب تكرار أخطاء الماضى. وهنا علق **الفريق إسماعيل باشا** بقوله إن أوروبا على مر القرنين الأخيرين قد أضفت صفات مثاليةً على الحركات الوطنية الرامية إلى التحرر ونفض غبار الاستعباد، وجعلتها تنحصر فى دائرة المسائل أو المشاكل ذات الصبغة السياسية، وإن كان أعضاء السلك الدبلوماسى لم ينظروا إليها بنفس الطريقة. وهنا علّق **يوانيس** قائلاً إن كل انتفاضة ثورية لها أعداؤها ولها أصدقاؤها ومحبوها، وإنه سوف يكون فى مقدور الكنيسة أن تلعب دوراً مهماً فى هذا المجال. وهنا ضحك **الفريق إسماعيل باشا** وقال إنه قد اقتنع منذ أمد طويل بأن هذا هو أكثر الأدوار وضوحاً بالنسبة لكل ديانة. وعندئذ شعر **يوانيس** بنوع من التردد، غير أنه سأل قريبه عما إذا كانت هناك بوادر تلوح فى الأفق لنشوب انتفاضة ثورية جديدة فى الجزيرة التى تمثل مسقط رأسيهما. وبغير أن يستفسر **الفريق إسماعيل باشا** عن الموعد الذى خطط لقيام هذه الثورة فيه أجاب بقوله إن هناك طرقاً كثيرة يرى الإنسان الأمر من خلالها بقدر تعددها، ولكنها جميعاً تسفر عن حيرة أو تؤدى إلى معضلة يستعصى حلها على عقل أحكم الحكماء.

وتحاشى كل منهما بعد ذلك أن يحادث رفيقه فى مثل هذه الموضوعات. وكان **يوانيس** غائباً معظم الوقت حيث رحل إلى مدينة **الإسكندرية** لأداء مهام وأعمال له هناك، أما **الفريق إسماعيل باشا** فقد واتته - تحت ضغط الخطر الداهم الذى بدأت تباشيره تلوح فى الأفق الشمالى - فكرة مؤداها أن يقوم بمراسلة أخيه المقيم فى مدينة أثينا، إذ عثر على طريقة آمنة لإجراء هذه المراسلات بينهما. ولقد رفعت هذه الفكرة التى واتته عن كاهله العبء الثقيل الذى كان يرزح تحته، وهو أن الخطابات لن تجعله مضطراً لأن يحملق بأبصاره أو يتفرس فى محيا شقيقه، إذ

يكفى أن يكون توقيعه المنمق على هذه الخطابات هو رسوله الوحيد إلى هذا الشقيق. وكانت فكرة أن يقترب إلى هذه الدرجة من شقيقه **أنطونيس** تحرك كوامن مشاعره، بل وتجعله يصاب بنوع من الرعب. غير أنه قرر - رغم كونه لا زال فريسة للخوف - أن هناك من المخاوف ما يتطلب شجاعة لكى يحبه الإنسان.

الفصل السادس

وعبثا جاهد **الفريق إسماعيل باشا** لإخفاء مشاعره حينما كان يدون خطابه الأول لشقيقه **انطونيس**، كما حاول ستر شوقه العارم خلف صيغ التراسل (المعتادة): «المحترم جداً.. الدمث جداً.. العزيز جداً.. اخى صاحب الشهرة والمجد». فقد كان يتحرق شوقاً لمعرفة كل شئ عن حياة **انطونيس**، لو ان الأخير وافق على أن يتراسلا. والسبب فى ذلك أنه فكر فى انّ أىّ عامل عرضى - حتى ولو كان أخف فى وزنه من ريشة الموت - كان بوسعه أن يمنحه حياة (مثل حياة اخيه **انطونيس**). كما كان مهتماً بأن يعرف ماهية تلك الحياة التى ارتكزت تقريباً على نزوة من نزوات الحظ. ومع ذلك فلم يغب عن فكره أنه ما من أحد سوف يغدو قادراً على أن يحيا حياة ذات تاريخ (حافل) بنفس الطريقة التى عاش بها هو نفسه حياته.

كتب له **انطونيس** (فى رسائله) عن **اثينا** التى ولدت من جديد كمدينة دون أن تموت ابداً من قبل بوصفها رمزاً، وكيف كان الأوروبيون يحلمون بها، وكيف ادى حلمهم بهذه المدينة المرمرية عبر القرون إلى بث الإلهام فى أيدى المهندسين (والفنانين) كى يشرعوا فى التعبير عن رؤياهم التصويرية بطريقة محددة. وغدا لزاماً على الحصون التركية ضئيلة القيمة وعلى القرى الجرداء التى تم تدميرها فى الفترة الأخيرة من الثورة - والتى تزخر بالآثار القديمة شبه المختفية تحت الركام - غدا لزاماً عليها الآن أن تتناظر مع الطريقة التى سيطرت بها كأسطورة على الروح الأوروبية، وان تتواكب كذلك مع متطلبات المدينة بوصفها عاصمة معاصرة. ولقد فكر **الفريق إسماعيل باشا** أن مدينة ما (مثل **اثينا**) يمكنها أن ترتد على أعقابها لتنهش ذيلها، بغض النظر عن ان ذيلها مغمور وسط ركام أعماق القرون السالفة، وبغض النظر عن ان هذه المدينة ذاتها لديها برلمان وصناعة ومصارف. والسبب فى ذلك هو أن شقيقه قد كتب له أن **اثينا** تخطط من أجل أن توجد - أو من أجل تمزج

بانسجام - بين القديم والحديث وبين التاريخ والسلطة الحاكمة. ولقد حدد له شقيقه (فى هذا الصدد) مركزين رمزيين، هما: **الأكروبوليس** والقصر الملكى، وهما مركزان رئيسان تم إنشاء المدينة بامتداداتها حولهما.

وفى مكان ما هنالك كانت توجد قطع الأراضى التى قام (**انطونيس**) بشرائها عندما وفد إلى **أثينا** وقام ببيع القمح الذى جلبه معه، وفقاً للمعلومات التى عرفها (**الفريق إسماعيل باشا**) بالفعل من (ابن عمه) **يوانيس**. وكان (**انطونيس**) - على أية حال - قد آلى على نفسه وارتبط بقسم معها على أن يستخدم ما يملك من ثروة فى أغراض معينة دون سواها، وكان يتمنى من أعماق فؤاده أن يتجاذب يوماً أطراف الحديث بصدد هذا الموضوع مع شقيقه. وكان قد تعود بالفعل على أن يعيش وفقاً لنمط الحياة الأوروبية الذى كان سائداً آنذاك فى عاصمة بلاد اليونان. إذ شيد قصراً (فاخراً) من ثلاثة طوابق فى وسط المدينة، وأحاطه بحديقة كبيرة، وأقام فيه مستودعات وأقبية وسراديب ومبان منفصلة للخدم والعاملين وحظائر للجياد. واستورد من أوروبا رياشاً وأثاثاً وطنافس فاخرة من الكريستال والفضة، كما كلف فنانين ألمان بزخرفة الأسقف والجدران برسوماتهم (البديعة). وكان (هذا القصر) يطل عن طريق شرفته الكبرى - التى صممها عمداً بحيث تكون فى اتجاه الجنوب - على البحر، بحيث يتمتع بمشاهدة البحر ويتنسم مع رائحته ذكرى سنوات طفولته الأولى (فى مسقط رأسه). (لقد أصبح يتوق إلى هذا) عندما عرف الآن أن شقيقه (**إسماعيل باشا**) - الوحيد الذى بقى حياً من أسرته - موجود فى مكان يقع أيضاً جنوب مسقط رأسه. وكانت هذه الشرفة ترتكز على عمودين من الرخام على الطراز الدورى، وكانت تغطى مدخلاً مزيناً بلوحات من المرمر. ولقد كتب لشقيقه أن الناس فى إقليم **أتيكى*** يبدون للرائى وكأنهم قد انبثقوا من المرمر، على حين أنهم كانوا فى الجزيرة (مسقط رأسيهما) - لو تذكر **الفريق إسماعيل باشا** هذا - لا يطأون بأقدامهم اللون الأبيض بل اللون الأحمر الداكن (الذى خلفته) جثث القتلى.

* الإقليم الذى تقع به العاصمة أثينا، وهو يعرف فى اللغات الحديثة نقلاً عن اللاتينية بإقليم اتيكا.

كما أنهم لن يحصلوا بوصفهم عبيداً على تاريخ آخر لبلدهم، اللهم إلا إذا تم ذلك من خلال كتابة تاريخ الموت والكوارث. ولا ريب أن أخاه (**الفريق إسماعيل باشا**) - بوصفه جندياً - سوف يعرف طبيعة الحرب، كما أنه - بوصفه واحداً من رعايا **محمد على باشا** - سوف يعرف طبيعة الاستقلال، وبوصفه شقيقاً له سوف يعرف طبيعة العبودية التى تقطر مرارة وألماً.

كان (**انطونيس**) يحيا بمفرده فى هذا القصر الكبير الذى كان من المحتمل أن يضم بين جنباته أطفالاً وزوجة وشيوخاً؛ ولكنه كان يظل تحت سقفه عائلة من نوع آخر. ولعله لم يكن يحق **للفريق إسماعيل باشا** أن يفترض أن شقيقه قد قام على هذا النحو بتبنى عائلة أو الحصول على أسرة (بغير طريق الزواج). فلقد ارتبطت وشائج الدم المشترك بينهما - وهى التى انقطعت عندما وقع كلاهما فى الأسر - ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالقسم الذى أخذه (**انطونيس**) على نفسه ومنحته أقارب آخرين (ليسوا من دمه)، يرتبطون به برباط القسم ويشتركون معه فى كونهم مطاردين. لذا فقد غدا منزله من الضخامة بمكان بحيث يتمكن هؤلاء الذين غدوا بمثابة الأهل بالنسبة له من اتخاذه ملاذاً لهم ومأوى، ومن أن يستمدوا منه المنعة والقوة التى تمكنهم من الاستمرار، ومن أن يتقاسموا داخله لقيمات الخبز مع رفاقهم الذين قدر لهم أن يلقوا بالفعل مصارعهم.

ومن المؤكد أن شقيقه (**الفريق إسماعيل باشا**) سوف يتفهم هذا ويسعد به أيما سعادة، ذلك أن (**انطونيس**) قد وضع فى غرفة زاخرة بأشعة الشمس (صوراً وتذكارات ورثها عن) والديهما (الراحلين)، ووضع فى غرفة أخرى ما تبقى من تذكارات تلك المذبحة (التى دارت فى مسقط رأسيهما)؛ ومن بعد ذلك توافد على القصر أشخاص قدر لهم أن يعيشوا بعد هذه الحادثة بفترة من الزمن. وكان هؤلاء يتجاذبون أطراف الحديث مع المنفيين الهاربين، كما كانوا يتريضون فى الحديقة الفيحاء التى كانت تذكرهم أحياناً بدار لنقاهة النفوس والأرواح. كانوا يذرفون الدمع مدراراً فى الليالى التى كان يسطع فيها نور القمر، عندما كان المنشد الطاعن

فى السن - أو ذلك الشخص الذى كان ينبرى للإنشاد بدلاً منه - يبدأ بالعزف على أوتار القيثارة ويمس بألحانه شغاف قلوبهم. ولكنهم كانوا لا يرقصون أبداً (على هذه الألحان)، وإن كانوا قد جعلوا أبدانهم نظيفة خالية من كل أثر للجراح. وكانوا قد ارتبطوا بقسم (غليظ) ألا يسمحوا لأنفسهم بالانسجام مع الألحان والموسيقى سواء بالرقص أو بالغناء إلى أن يعودوا إلى ديارهم أحراراً مرة أخرى. كما أنهم - من أجل أن يبعدوا أنفسهم كلية عن الاعتماد على رضى أية دولة حرة، يكون فى مقدورها دون أن تعى ذلك أو تدركه، أن تبتلع ذكرياتهم أو أن تطمسها - قد حرموا على أى واحد منهم مناداة زميله باسمه الحقيقى ولكن باسم مستعار. لذلك (فإن لك أن تعلم، ياشقيقى) أننى أدعى وسط نظرائى من الرفاق باسم مستعار هو **بتروس**، وإننى أبوح بهذا الاسم كتابة لك وحدك (ياشقيقى) رغم خطورة ذلك على حياتى، لأننى أحبك.

وجال بخاطر **الفريق إسماعيل باشا** أنه لم يسبق له قط أن لامس جسد امرأة من الحريم بمثل تلك العاطفة المشبوبة المغلفة بغمار اليأس، التى منحتها له من بعيد قبلة شقيقه **أنطونيس**، ولذا فقد رد على القبلة (المرسلة إليه) بمثلها والرجفة تعتريه. وأحس مرة أخرى بأن وجنة شقيقه تماثل فى نعومتها وجنة والدته، وأن رائحة حبات العرق التى كانت تغطى وجه أخيه أثناء فترة الأسر كانت مثل رائحة الحليب. اغرورقت عيناه بالدموع فأسدل عليهما الهدبين، وطفق يفكر فى والدته وتخيلها وهى تجلس فى حجرة يغمرها ضوء الشمس، حيث الجدران ذات اللون الباهت والسقف ذو اللون الذهبى واللازوردى، والمحلى بصور متناسقة لأفراس «**البيجاسوس**»* المجنحة والنسور وأكاليل الزهور، التى كان عدد منها يمتد على الجدران حتى أرضية الحجرة، بحيث يغدو بمثابة إطار للوحة كانت تزخر دون توقف بصور لوجوه أو تخلو منها، عندما يتوافد السكان ليقيموا فى الغرفة أو

* الفرس **بيجاسوس** Pegasos كان فرساً أسطورياً انبثق من نبع ماء pêgê ثم طار نحو السماء. ولقد آلت ملكيته للبطل **برسيوس** الذى قام بأعمال مجيدة، أشهرها حصوله على رأس **الجورجون** Gorgô ميدوسا Medousa التى كان من ينظر إليها يتحول فى الحال إلى حجر.

يرتحلون عنها . وعندئذ شاهد رأس والدته مرسوما فوق اللوحة الصفراء ذات الإطار المربع، وكانت جدائل شعرها شاهق البياض تغمر بنورها صفحة محياها الذى غشيته السكينة، بنفس القدر الذى تغمر به عينيها اللتين لم يفارقهما الفرح والحبور.وتخيل (والدته) وهى تسحب مقعدا وتجلس عليه قرب النافذة، ثم وهى تطلب من زوجها أن يحضر بدوره مقعدا ليجلس معها (وينعم) بأشعة الشمس. وكانت أمه (كما تراءت له) ترتدى ثوبها المخملى البراق ذاته الذى كانت ترتديه منذ سنوات شبابها، أما والده فكان يرتدى ملابس من اللباد، ولكن ملابس كليهما كانت قد غدت أسمالا بالية مع انصرام السنين. كانا يجلسان معا ويتطلعان بأنظارهما إلى شجرة صنوبر باسقة فى الحديقة، فقال والده: «*إن شجرة التفاح لا تشبه شجرة الصنوبر*»، أما والدته فقد تنهدت وتساءلت فيما بينها وبين نفسها عما إذا كانت هناك أشجار صنوبر فى مصر.

وشعر **الفريق إسماعيل باشا** بحنين جارف إلى وطنه، وتاق لكى يرى من جديد شجرة التفاح التى تنمو إبان فصل الربيع وشجرة التفاح التى تنمو إبان فصل الخريف.لذا كتب (رسالة) لشقيقه يقول له فيها إنه لو كان الأمر بيده لاستبدل بوظيفته (رتبته العسكرية) إحساسا بالبهجة والسرور يمكّن عينيه من أن تكتحلا مرة أخرى برؤية الثمرة وهى موثقة بإحكام مع الزهرة البيضاء الضئيلة التى تنمو فوق الهضبة(مسقط رأسه)، وبمشاهدة التفاحة الحمراء القانية بعد ذلك وهى تسقط فوق الأرض التى تم حرثها خلال فصل الخريف. ولقد كتب لأخيه (فى نفس الرسالة) أن السبب فى ذلك هو أنه قد أصيب بالإعياء والنصب من تكرار تردد هذه الصور ذاتها على مخيلته طوال تلك السنوات بأسرها، وأن اهتمامه كان منصبا على ملء ساعة الزمن التى توقفت خلال تلك المدة حتى لا يتسبب توقفها فى إصابتها بالعطب والتلف. (وأردف قائلا) إنه عزم على أن يجدد العلامات التى تكشف عن (هذه الصور)، مع أنه يعرف أنه بهذه الطريقة إنما ينصب لنفسه شركاً. ثم إن عليه أن يشعر بأن (هذه الصور) إنما تنتزع منه انتزاعاً ببراثنها اليونانية

حياته المصرية ثم تمزقها إرباً، لذا فإن عليه أن يبذل قصارى جهده فى أن يحتفظ (بهذه الصور) داخل دائرة من النار تحرق أجنحتها كما تشوى أيضا لحمها. وأردف قائلا إن الإرهاق قد حل به بسبب أنه قد أفلح حتى الآن وبفضل تتابع السنوات فى أن يجرد (هذه الصور) من أسلحتها، رغم أنه هو نفسه الذى خلقها ومنحها الحياة باستمرار، وأنتج نسخا طبق الأصل منها فى ظل الظروف الواقعية التى أنجبتها فيما مضى. وفيما عدا ذلك فإن زيارة كل من **يوانيس** والخطاب الأول الذى تلقاه من شقيقه كانا بمثابة ثورة من جانب تلك الصور، وربما لم تكن هذه الثورة ثورةً يستهان بها على الإطلاق. وهنا هتف قائلا: «*(آه يا أخى!) الآن فقط أدركت أن لك جسدا وصار بوسعى أن أحتضنك*».

وكتب له شقيقه (**أنطونيس**) قائلا إنه يعتقد أن من الضرورى أن تختلف حياته فى القاهرة بصورة ما عن حياته هو نفسه فى مدينة أثينا. وكان السبب فى ذلك هو أن (**الفريق إسماعيل باشا**) قد سأله عن رأيه فى أحوال بلاد اليونان، إذ جالت بخاطر (**إسماعيل**) فكرة طارئة مفادها أن تسنح له الظروف بفرصة السفر (إلى اليونان)، كى يتحدث بحرية أكبر مع (أخيه). لكن (**أنطونيس**) فى الوقت الحاضر سجل فى خطابه لأخيه النقاط التالية:

لم ينقض وقت طويل منذ قدوم (الملك) **جيورجيوس** (جورج) إلى بلاد اليونان، وهى حقيقة لم تسمح بعقد مقارنة رئيسة بينه بوصفه ملكاً وبين **أوثون**. إذ تم تنحية الزوجين الملكيين السابقين* عن العرش بمجرد عودتهما إلى أثينا بعد قيامهما بجولة سريعة فى أنحاء البلاد. إذ لم يكد (**أوثون**) يهبط على اليابسة من على متن السفينة البخارية **أماليا** حتى صعد إلى سطح السفينة الإنجليزية **سكيلاً** كى يذهب بها إلى منفاه. ولقد أصدر الملك المخلوع عن العرش بيانا لشعبه من فوق سطح السفينة الإنجليزية، أعلن فيه أن الإرهاق قد حل به من جراء الاضطرابات والثورات المستمرة التى لم تكن إدارته مسئولة عن حدوثها، وأنه مضطر إلى الرحيل عن البلاد التى أحبها حبا شديدا.

* أى الملك أوثون وزوجته الملكة أماليا.

وكان **أنطونيس** ينتقد مجمل فترة حكم هذا الملك، رغم أنه وفد إلى بلاد اليونان بعد انقضاء سنوات عديدة على إبطال الدستور الذى لم يتسن له أن يطبق بحذافيره حتى هذه الفترة بإخلاص. كما كان **أنطونيس** يفترض أنه لابد لأخيه أن يعرف الأهميه الفائقة للدساتير فى دول أوروبا. كما أنه لم يتجاهل فى حقيقة الأمر تلك النزعة القوية التى تعكس الإعجاب بالهيلّينة لدى الملك **أوثون**، الذى اضطر بعد انقضاء فترة من الزمن لارتداء **فوستانيلا** (تنورة)*حول جثمانه (بعد أن فارق الحياة)، غير أنه كان من المستحيل عليه أن يتغاضى عن أمور أخرى أكثر من ذلك الأمر أهمية.

فلقد كتب إلى (أخيه) **الفريق إسماعيل باشا** أن الجوع قد عضّ المناضلين القدامى بنابه، وأنهم جنحوا على أثر ذلك للثورة والتمرد. فلقد حدث أن تم وضع عدد من زعماء المناضلين ذوى المنزلة العالية فى السجن، بمجرد عزلهم عن الحياة السياسية فى الأقاليم التى كانوا يعيشون فيها. وبعدها أقحمت أوروبا نفسها فى سياسة بلاد اليونان بطريقة فجة، بحيث كانت كل دولة (أوروبية) تشكل لنفسها حزبها الخاص (الذى يأتمر بأمرها). ولقد أدى تدخل الملوك فى الانتخابات وفى فعاليات البرلمان إلى انتهاك الدستور وإتاحة الفرصة لقيام ثورة (عارمة). كذلك غدا رفض الملك لإنشاء قوات للحرس الوطنى أمرا ذا عواقب وخيمة، وأصبح عدم تعيين خليفة للملك مجرد حجة أو ذريعة. وسمعت هتافات الشعب وهى تدوى قائلة إن الكفاح من أجل تحرير البلاد لم ينته بأسره بعد، كى تستعبد البلاد وتخضع لسطوة الحكومة الملكية البافارية، وأنه بات واضحا أن هذه الحكومة لم تنجح - أو لعلها لم تكن راغبة فى ذلك - فى وضع حد لنهب الأموال العامة على يد (اللصوص) المتمرسين، ولا فى إنهاء السلب والنهب الذى يقوم به قطاع الطرق فى (شعاب) الجبال. إذ لم يفتأ هؤلاء يرددون القول بأنهم قد ورثوا نعالهم الريفية - هذا لو كانوا

* كان الزى الوطنى اليونانى للرجال من وقت بعيد وحتى تلك الفترة عبارة عن قميص فضفاض مزركش وتنورة وجورب طويل وخف فى القدم. وهو ما نشاهده حتى الآن فى حرس الشرف الذى يحرس البرلمان والمبانى الحكومية الهامة، وأيضاً فى زى فرق الرقص الشعبية.

يملكون ترف ارتدائها - عن قدامى الثوار (ضد الاحتلال). هذا بغض النظر عن أن (شقيقه) **انطونيس** قد سلم جدلاً أيضاً بالممارسات التى دأب المعاصرون له من صغار القيادات الإقليمية على انتهاجها، حيث إنهم كانوا عادة يجبون الضرائب من المزارعين دون أن يقوموا بتوريدها للدولة، وكانوا يديرون الأمور فى أقاليمهم بروح من التسلط والتعسف والطغيان. ولقد كتب (**انطونيس** لشقيقه) قائلاً إنه فى الحقيقة كان ينظر بعين الاعتبار فحسب إلى الظروف التى أسهمت فى وجود هؤلاء، ثم أدت فيما بعد إلى نبذهم والتخلص منهم. (وأردف **انطونيس**) قائلاً (فى رسالته) إن القسم يشدنى إلى حيث النور الذى تشرق به أحوال (الوطن) انطلاقا نحو لحظة فريدة مجيدة، وكان يبدو لى أنه لا يوجد فى بلاد اليونان من يمكن للمرء الاعتماد عليهم من أجل تشجيع أفكاره. وكان مما ظفر باهتمامه - قبل فترة وجيزة من خلع الملك **أوثون** - أن الطلاب فى الجامعة قد قاموا (على قلب رجل واحد) بثورة بعد أن ألهمتهم وأثرت فيهم أفكار **غاريبالدى**. ترى هل يعرف شقيقه (**إسماعيل باشا**) حقاً أفكار هذا (الثائر) الإيطالى؟ إذ هبت ثورة عظيمة فى مدينة **نافبليون** استجابة لهذه الأفكار ذاتها تقريبا، كما أنه تحت تأثير هذه الأفكار بالذات - وعلى نحو أكثر حدة بقليل - أقدم سليل أسرة كبيرة على إطلاق النار على الملكة فى اللحظة التى كانت عائدة فيها إلى قصرها وهى ممتطية صهوة فرسها. وكان **انطونيس** ذاته يعلم حق العلم - بل وكان يقر بذلك لشقيقه - أن مثل هذه التصرفات لا يمكن تقبلها أبدا بطريقة راسخة من قبل السلطة الحاكمة، حتى ولو كان مرام (هؤلاء الثوار) هو تقويض البناء القائم وتشييد نظام حكم آخر أكثر منه عدلا. كذلك كان **انطونيس** يعتبر أن كلا من الثورة والسلطة - حينما يتقدم بهما العمر - يقفان بالفطرة والطبيعة على طرفى نقيض؛ وحتى مع افتراض أن أحدهما قد يجذب الآخر للحظة، فإنهما سرعان ما يعودان ليتنافرا فى اللحظة التالية بطريقة أشد حدة وعنفا. فلقد كان بوسع **انطونيس** أن يتابع مثل هذه الأفكار التى كانت مدونة فى الكتب، حينما كان يعمل فى مكتبة **الكساندروس ستورتزا**، هذه الكتب التى كانت تصل من الغرب إلى مدينة **أوديسا** وهى مغلفة بغلاف خارجى مغاير

ومختلف. وعندئذ تذكر **انطونيس** انه هو نفسه فيما مضى قد اختبأ فى برميل فارغ لكى يصل إلى مدينة **أوديسا**، وأن مثل هذه الأمور كلها لا ينبغى أن تبدو لشقيقه أموراً غريبة أو بعيدة عن المألوف.

وفى مرفأ تلك المدينة الذى تم تشييده فى عصر **الملكة كاترين الثانية** على موقع قديم لمستعمرة إغريقية قديمة، كان يوجد تشريع يقضى بوجود ميناء حر، وكان من حق الأوروبيين أن يجوبوا بمقتضى هذا التشريع ربوع البحر الأسود دون أن يتعرضو لأية مضايقة. وكانت هذه الكتب التى تمت الإشارة إليها مطبوعة فى أوروبا، غير أنها كانت غالبا محرمة أو ممنوعة من التداول فى البلاد التى ألفت فيها. كذلك كانت هذه الكتب غير معروضة للبيع فى مدينة **أوديسا**، ولكن الناس هناك كانوا يتداولون قراءتها (سراً) وكانت تنتقل بذلك من يد إلى يد. ولو كان شقيقه مهتما بذلك الأمر، ولو أنه قام بزيارته يوما فى مدينة أثينا لكان بوسعه أن يطلعه على كافة ما حمله معه من كتب ومؤلفات، وإن كانت مطالعته لها فى السنوات الأخيرة قد قلت بعد أن انغمس فى العمل، وانشغل فى آلاف من القضايا والموضوعات. (ثم أنهى **انطونيس** رسالته بقوله): «*ومع ذلك فمازال عندى وقت على الدوام لأفكر فيك (يا أخى)*».

وأجاب **الفريق إسماعيل باشا** (على رسالة أخيه) بذكره لمصر التى شهدت ريعان شبابه، فمصر هى البلد الذى خلقه، ولن يقدر لشقيقه **انطونيس** أن يقف على حقيقة هذا الأمر أبداً، فيما لو أنه رغب فى زيارته بأرض النيل. كما كتب له قائلا إنه لو كان بوسع أى شخص أن يلمح صورة طيفه فى المرآة على مر الزمن والسنين، فإن **محمد على باشا** لن يتمكن من تحقيق مثل هذه الميزة لنفسه، حيث إن الأطياف تتجسد فحسب من خلال الأشخاص من البشر؛ أما **محمد على** فقد تخطى المعايير الإنسانية (المتعارف عليها). ولكى لا يعتقد شقيقه أنه - بوصفه عثمانيا - كان يجهل حركة التاريخ، (فقد كتب له إن) كلا من حياته الأولى وحياته الثانية، والحروب التى خاضها فى سوريا، ورحلاته إلى أوروبا إبان السنوات

العشر الأكثر اضطرابا طوال القرن، وتعليمه وذوقه وأهواءه ومشاربه، قد علموه جميعا أن التاريخ ليس قضيه من قضايا الأرباب ولكنه مسألة من مسائل البشر تخص علاقاتهم (المتشابكة).

ولم يكن عليه أن يكتب (لشقيقه) **أنطونيس** عن الأساطير التى تم نسجها فى مصر حول الخديوى (المصرى) والتى كان قد سمعها فى المدرسة (الحربية)، فلقد أدى تعاقب السنين والأعوام إلى رؤيته لهذه الأساطير بوضوح أكثر، وربما كان هذا راجعا إلى أنه شارك بفعالية فى إدارة البلاد، غير أنه لم يستطع أن يتجاهل حقيقة مؤداها أن امتيازاً ما أو ضربة من ضربات الحظ قد تمنح يوما اللمسة النهائية لإنجاز مشروع ما؛ والحق أن **محمد على** قد حظى عند وجوده فى مصر بنعمة من نعم القدر.

فلقد كان **محمد على باشا** إنسانا متواضعا جداً عندما ولد فى **قوله** من أب يمتهن زراعة الأرض، كان يدعى **إبراهيم**. وبعد أن مات والده ظل **محمد على** يحيا حياة جد متواضعة إلى أن تكفل برعايته قائد شرطة المدينة. وقام كفيله هذا بتزويجه وهو لا يزال فى سن غضة من إحدى قريباته، وكانت أرملة ثرية أنجبت **لمحمد على** ثلاثة أبناء، كان أولهم **إبراهيم باشا**. ومنذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدما **محمد على باشا** سواحل مصر بوصفه نائبا لقائد كتيبة من الجنود الألبان، كان مخططا لها أن تساعد السلطان (العثمانى) فى طرد الفرنسيين (من مصر)، كان **محمد على** يخطو بقدميه فى الحقيقة فوق عتبة الأسطورة.

وكان (هذا العاهل العظيم) قد حكم مصر بالفعل لمدة عشرين عاما حتى اللحظة التى وفد فيها **الفريق إسماعيل باشا** إليها بوصفه أسيراً مسيحياً، وكان مقدرا له أيضاً أن يستمر فى حكمها عشرين عاما أخرى، ربما لم يعتبرها العالم أزهى أو أسعد سنوات حكمه، حيث إنه أرجأ فيها مرارا وتكراراً قراره بالتخلى عن العرش. وحتى عندما تنازل عن العرش لابنه البكر **إبراهيم** لم يكن هذا بسبب فرقه أو هلعه

من الشيخوخة، بقدر ما كان نتيجة لرؤيته الثاقبة التى أبعدته ساعتها عن طريق الخبل والجنون ورسمت له مسيرة (ذات بصيرة). ألا فليعلم شقيقه (**أنطونيس**) أن ذلك العاهل - بعد انقضاء شهرين فقط على اعتزاله العرش قد هبَّ واقفا وسط نوبات الذهان التى كانت تنتابه، وطفق يندب حظ **إبراهيم باشا** قائد جيش (مصر) المظفر والحبيب جدا إلى قلبه!ألا فليعلم شقيقه (**أنطونيس**) أيضا أن **الفريق إسماعيل باشا** قد أحب الأمير إبراهيم باشا لسنوات طويلة، واعتبره بمثابة وطنه الثانى الذى كان يمد له يد العون مرارا لكى ينعم بوطن سعيد ومتفرد!

ولم يكن على (**الفريق إسماعيل باشا**) أن يكتب (لشقيقه) **أنطونيس** عن الحرب التى تم خوضها فى سوريا، وعن النزاع الذى نشب مع السلطان (العثمانى)، فالتاريخ هو أفضل ما يسجل مثل هذه الوقائع، ولكنه سوف يقص عليه عوضا عن ذلك (ما يخص) **أثينا بلاد العرب***. ذلك أن **إسماعيل باشا** لن ينس أبدا الرهبة التى خالجته عندما وصل إلى تلك العاصمة العربية التليدة، حيث يتجول ملايين البشر فى طرقاتها وأسواقها وخاناتها. ولم يكن (هؤلاء الملايين) من العرب فقط، بل كان منهم الفرنسيون والإيطاليون واليهود واليونان والسوريون والأتراك والبدو القادمين من صحارى ليبيا، وسكان جبال سيناء، والسود من بلاد السنغال، والهنود والفرس كذلك. وكان (هؤلاء الملايين) يرتدون ثياباً مختلفة ويتحدثون بلغات شتى وينتمون إلى ديانات متباينة. وكانوا أيضاً يختلطون ويمتزجون ويعيشون معا ويقيمون فيما بينهم علاقات سلمية أو عنيفة دموية على حد سواء، وتزخر بجحافلهم أحياء القاهرة العتيقة وأحياؤها الحديثة المؤسسة على الطراز الأوروبى، وأرض نيلها المغطاة بالعشب الأخضر، كما تشهد طرقاتها مسيراتهم لمسافات طويلة، سواء على الأقدام أو وهم ممتطون لصهوات أفراسهم وحميرهم وجمالهم؛ وتشهد صفحة نيلها المقدس كذلك الزوارق والسفن النيلية التى تشق صفحة المياه.

---

* تقصد المؤلفة هنا مدينة القاهرة التى تعادل بالنسبة لمصر والعرب مدينة أثينا بالنسبة لبلاد اليونان وأوروبا.

ولقد احتفظت هذه العاصمة - التى لم تُهْجَر أو تُقْفِر أبدا من سكانها منذ القرن الذى شيدت فيه - بطابعها العربى المميز، إذ كان لها واحد وسبعون بابا، وثلاثمائة مسجد، وقصور لا حصر لها، وكثير من المدارس العامة والمكتبات والجامعات، فضلا عن المبانى الأخرى ودور العبادة الخاصة بالأقليات والجاليات. وإلى جانب الطرقات المرصوفة الفسيحة التى شقها (المهندسون) الأجانب، كانت توجد طرق أخرى ضيقة أو أزقة غير مرصوفة ولا معبدة. وكانت هذه الطرقات - خصوصا فى الأسواق - مسقوفة بقماش سميك طبعت عليه زخارف ملونة من أجل حماية مرتادى الأسواق والبائعين من أشعة الشمس (الحارقة). ولقد تمت إقامة ميادين فسيحة رحبة تعادل فى اتساعها ميدان «**الكونكورد**»* ثلاث مرات - هذا لو أن شقيقه **أنطونيس** استطاع أن يتخيلها فيما لو أنه زار مدينة باريس. وكانت المبانى المشيدة حول ميدان **الأزبكية** تماثل المبانى الأوروبية تماماً بتمام، ولكن باقى مبانى القاهرة كانت تتخذ طرازاً خاصاً فى غرابته وبعده عن المألوف.

وكانت المدرسة الحربية توجد فوق تل القلعة بالقاهرة، فهناك وعلى قمة التل أقدم **محمد على باشا** على ذبح المماليك (فيما يعرف باسم مذبحة القلعة)، وعلى النحو الذى سوف يعرفه شقيقه **أنطونيس** من مطالعاته للكتب. ومازال الدم الذى سفك بغير رحمة (خلال هذه المذبحة) يغطى أسوار القلعة وأبراجها والبلاط الملكى والبوابات ومدخل القلعة، ومازالت رائحته المريرة النفاذة تنتشر هناك حتى بعد مرور كل هذه السنوات. وكأن هذا الدم كان يخطو (كالسحاب) فوق المدينة التى تمتد عبر الأفق، أو كأنه كان يصبغ بلونه الأحمر (القانى) الذى يماثل لون الرمان قمم المآذن، أو كأنه كان يتخذ طريقه هابطا إلى النيل من جهة اليسار، ومتجهاً إلى ما بعد أشجار النخيل وأشجار السنط متجاوزاً هذا كله ليصل بعيدا إلى خط الصحراء، إلى أن يتوقف عند الصخرة الرمادية التى يربض فوقها أبو الهول أمام الأهرامات. وليس هناك من شخص قدر له أن يعرف لماذا كان هذا الدم يجوس

---

* Place de la Concorde (الوفاق)، وهو ميدان مشهور فسيح فى باريس عاصمة فرنسا.

هنالك ويتجول، غير أن الرائحة المنبعثة منه قد ضاعت على أية حال، ولربما ضاعت معها أية إجابة منتظرة عندما تلاشى هذا اللون الذى يماثل لون الرمان داخل الأشعة (القانية) المنبعثة من شمس الأصيل.

ولقد شرع **محمد على باشا** فى تشييد مسجده ذى الأحجار المرمرية فوق تل القلعة، ولم يفرغ من تشييده إلا بعد سنوات طويلة، وكانت رغبة **محمد على باشا** أن يدفن جثمانه فى هذا المكان المقدس، فى ركن من أركان هذا المسجد بعد إتمام تشييده. وربما كانت هذه الرغبة من جانبه بغية نشدان الحماية من «العفاريت»* أو ربما كان يشعر بالحسد من قدرة قدماء المصريين على قهر الموت بقبورهم (الخالدة)، غير أن (المسجد) كان بكل تأكيد يحاكى (فى معماره) كنيسة الروم (**أياصوفيا**) التى كانت بالغة الشهرة فى **اسطانبول**؛ ولقد تحقق **الفريق إسماعيل باشا** من هذا بنفسه حينما قام بزيارة عاصمة الإمبراطورية (العثمانية). وفى وسط فناء المسجد المحاط بالأعمدة أمر **محمد على باشا** ببناء نافورة من الألاباستر لخدمة الراغبين فى الوضوء والتطهر، وبأن تتم زخرفة سقفها بالقرميد والصبغة الزرقاء والصبغة الصفراء والزعفران والصبغة الخضراء التى تماثل لون أشجار السرو. ومازالت الأحجار الخارجية للمسجد المشيدة من الألاباستر تحتفظ حتى الآن ببريقها الأخاذ الذى يبهر أبصار المثقلين بالأوزار ساعة سعيهم لدخول المسجد (للصلاة). وكانت القناديل والثريات تنير حرم المسجد المقدس بألوانها الزاهية وفق هندسة خاصة، إذ كانت الثقوب الشبكية الدقيقة للقضبان المشغولة بالحديد مع النوافذ تخمد وهج الضوء الأبيض الناصع الذى ينفذ إلى صحن المسجد من الخارج، وذلك كى تشرق بالنور أعمدة القبة الأربعة والعقود نصف الدائرية ذات الأضلاع الرباعية والشكل الأسطوانى، وكى يظهر من خلالها الضوء الأخضر المنعكس من الحديقة الغناء التى يرتوى عشبها بالماء، وكى تعكس كذلك لون الذهب الناتج عن (اندماج) السبائك القديمة. وفى هذا الموقع كانت رائحة الدماء

* ربما تقصد بهم «الجن»، ولكن المؤلفة دونت الكلمة بنفس النطق العربى لها. وهى لا ريب متأثرة فى ذلك بما قرأته من كتب، وبوجه خاص كتاب الف ليلة وليلة.

(التى أزهقت فى مذبحة القلعة) تتجمع وتتركز، غير أنها كانت تتسرب هاربة كل مساء من خلال القنينة المرمرية كى تصبغ بلونها الأحمر القانى تل القلعة المشرف على المدينة. ولقد تساءل **الفريق إسماعيل باشا** عما إذا كان المرمر الذى شيد منه **الأكروبوليس** (فى مدينة أثينا) قد تجمد وغدا بالنسبة لشقيقه **أنطونيس** على صورة دم، أو على صورة أخرى يمكن بها التكفير عن الجرم!

وقد بدأ الحديث يكثر فى تلك السنوات كذلك - كما سوف يعرف حتماً شقيقه **أنطونيس** - عن الحضارة المصرية القديمة، بعد أن تم فك رموز الخط **الهيروغليفى** القديم. ولقد قدر لهذا الكشف (الأثرى الهام) أن يتم فى آخر صيف عاش فيه مع شقيقه فى مسقط رأسيهما بالهضبة (فى بلاد اليونان)، حيث كانا ينصبان الشراك لاصطياد الطيور. وبعد ذلك الكشف راجت فى أوروبا بدعة (الولع) بالشرق التى ارتكزت فروعها المتشعبة كالأشجار على براهين أو دعائم خيالية ثم تطورت حتى وصلت إلى ذروتها، حيث إن المؤلفين والرسامين قد افتتنوا كلهم تقريبا بمصر الفرعونية أو سلب لبهم الشرق العثمانى بوجه خاص؛ إذ وحدت الظلال التى ألقت بها الأغصان على حامل لوحة الرسم بين الممنوع والمرغوب. وإن ما شاهده **الفريق إسماعيل باشا** فى أوروبا قد جعل (الشرق) يتمثل له فى صورة معارك ومحظيات داخل الحريم وأسواق تجارية فائقة الإبهار، وهو الأمر الذى جعله يستنتج أن هذه (المباهج) قد صيغت عمداً على هذا النحو وأنه افتتن بها لهذا السبب، حيث إنه هو ذاته لم يشاهد فى مصر شيئا أشد بهاء ولا أكثر واقعية من الإنجازات التى استطاع (صديقه) **إبراهيم باشا** أن يشيدها أو يكملها.

وكان يروق **للفريق إسماعيل باشا** أن يبنى (مثل الطيور) أعشاشا لذاكرته من القش وقطع الخشب التى يجمعها من الحضارات القديمة الغابرة. وكان لا يفتأ يردد القول بأن هذه الحضارات قد طبعت مسيرة الجسم البشرى فى الحجارة التى يبليها الزمن، بمثل ما طبعت رحلة أفكار هذا الجسم البشرى فى (كتب) المعارف الإنسانية التى قدر لقسط وافر منها أن يصبح مادة للتدريس حتى العصر الحاضر،

أو أن يظل حيا فى الدمى التى يلهو بها الأطفال حتى الآن فى الطرقات. ومن هذا المنطلق فقد قام بجمع القش وقطع الأخشاب بنفس الطريقة التى قام بها فيما مضى بأخذ المدية من الكهف والاحتفاظ بها. ولقد كتب لشقيقه **انطونيس** عن البرهان الفريد على فترة حياته الأولى، كما زوده بكثير من رموزها وجعله مؤتمنا رغم ذلك على ما هو أشد قسوة، وهو أنه قد اختط لحياته مسارا دامياً وسط المدى والخناجر.

وقد كتب لشقيقه كذلك أنه سمع أساتذته فى المدرسة وهم يتحدثون عن مناهج المنطق الأرسطى، وعن الخطط العسكرية التى تفتق عنها ذهن تلميذه **الإسكندر الأكبر**. وحكى له أن هذا الملك الوسيم مازال يلهم رواة القصص الحكايات، سواء وهم واقفين عند النافورات العامة أو وهم يجوبون الصحارى مثل البدو برحلات فى جنح الليل. كما ذكر له أنه سمع (أو خيل إليه أنه قد سمع) - خلف الضجة البالغة التى كانت تصدر عن طابور العرض - كلمات يونانية كانت أمهما تنطق بها، وخيل إليه كذلك أن وجه هذه الأم الكبير كان معلقا فى الفضاء، وأنه كان يتوسل أحيانا من أجل سلامة المقدونيين، أو كأنه كان يستدر العطف - خلال الحروب التى نشبت فى سوريا - من أجل سلامة ابنها وفلذة كبدها بغض النظر عن كونه مسيحيا أو مسلما....

(**وختم الفريق إسماعيل باشا** رسالته بقوله): «قبلاتى إليك.. وأرجو أن تُقَبِّل نيابة عنى مرة أخرى والدة الظلال»*.

وفى الخطاب التالى كتب **انطونيس** لشقيقه أن أيامه فى مدينة **أثينا** كانت تمر عليه بوصفه مواطناً ذى مرتبة رفيعة ومكانة متميزة. فقد دأب على الارتحال بصفة متكررة إلى أوروبا الغربية سواء لتلبية دواعى القسم (الذى أقسمه على نفسه) أو

*يتخيل إسماعيل باشا دوماً وجه أمه فى كل مكان، لأنها الذكرى الأساسية التى تربطه بالماضى المفقود. ومن هنا جاءت تسميتها «والدة الظلال» أى والدة الماضى الذى صار قاتماً مثل الظلال.

للمتعة والترفيه. وأنه حينما كان يمكث فى **أثينا** كانت حياته موزعة بين العقود المصرفية والأعمال الخيرية والقضايا المالية. كما أنه شارك مؤخراً فى الشركة اليونانية للسكك الحديدية، ولكنه لم يضطلع بالعمل فيها لأن الاختيار وقع على الشركة الفرنسية، كذلك شارك فى لجنة اسمها **أوليمبيا** اضطلعت بإعداد معرض تجارى لإنعاش الصناعة الوطنية. ولقد قام بجولات عديدة - ممتطيا عربته أو سيرا على الأقدام - جاب فيها طرق العاصمة الرئيسية وحديقتها، وتبادل الزيارات وحفلات العشاء مع نظرائه، وتابع المعارض الفنية التى كانت تقام فى العاصمة اليونانية.

كان يبغى لحياته أن تساير القواعد المرعية وتتكيف معها، وكان يعتبر أن معظم المواطنين الأثينيين مازالوا فى طور التلمذة، حيث إنهم لم يعرفوا بعد أن نوعية الحياة وجوهرها - حتى بالنسبة لمن حازوا منهم ثروة طائلة أو حظوا بعلاقات عامة ذات شأن كبير - إنما هى نتيجة ضربة حظ روحية أو معاناة لألم عظيم يعتصر الإنسان من الداخل. وبهذا فقط سوف يكون بوسعهم أن يفهموا أن ما يدور بينهم غالبا من أحاديث عامة أو شخصية إنما هى مجرد أقوال جوفاء قد تصل أحياناً إلى كونها أقوالاً مجافية للمشاعر الإنسانية.

وبهذا فقط سوف يكون بوسعهم أن يستنفروا عزائمهم للوصول إلى فكرة لامعة أو معاناة ذات مغزى، ربما تنقلب عليهم وتغدو ضد مصالحهم الشخصية. وكان هو نفسه يحس أن القسم الذى أقسمه على نفسه قد غيره وصرفه عن التأنق المعتاد فى التحدث مع المواطنين، رغم أن هذا التأنق لم يكن أمرا منفراً بالكامل بالنسبة له، طالما أنه لم يوقعه فى شراك الخضوع له فيما يشبه الاتفاق (المسبق). وعلى أية حال فإن القسم الذى ارتبط به كان الحُب، بل لعل الحُب - فضلا عن ذلك - كان هو العامل الوحيد فى هذا الصدد.

ولم يكن **انطونيس** يعرف كيف كان شقيقه يحيا فى مصر، وكان يتخيل أنه يحيا حياة مشابهة لحياته، مضافا إليها واجبات وظيفتة بوصفه وزيراً (للحربية)، فضلا عن وجوده وسط أسرة مسلمة. وكان يستشعر فى قرارة نفسه أن **الفريق**

إسماعيل باشا كان يحظى بنعمة سابغة وبحياة أسرية كان قرير العين بها، غير أنه لم يضغط على شقيقه أبداً بغية الحصول على تفاصيل تلك الحياة... ويكفى أنه يراسله بما تيسر من الرسائل، وياليته يداوم على مراسلته ! وختم (**أنطونيس**) رسالته قائلا: «*إنك تتربع فى موقع السويداء من قلبى وتحظى بحبى الخفى... محبتى لك*».

ورد عليه **الفريق إسماعيل باشا** برسالة قال فيها إنه لو كان بيده أن يطبع على الرسالة المرسلة لشقيقه أعمق مشاعر حبه لفضل أن يخط سطورها بالخط العربى، أو - لو أنه كان على دراية بهذا - لدونها بالرموز العتيقة (التى تمثل بواكير الكتابة القديمة)، ولفضل ذلك على أن يدونها بلغته اليونانية الجافة (القاصرة)، فقد كان **إسماعيل باشا** يرتجف فرقا من (استخدام) اللغة اليونانية خوفا من أن تنفذ إلى حياته (الحاضرة). وحتى لو لم يكن قادرا على أن يحدد لنفسه مسار حياته الخفية، فإنه لن يتمكن على الأرجح من تحديد مسار حياته الظاهرة فى مدى زمنى قصير.

كان فى قرارة نفسه يغبط **انطونيس** لأنه استطاع أن ينفصل عن الحياة التى صنعها وأن ينقلب هو نفسه عليها، ولأنه قد أفعم بأناشيد الظفر والانتصار وبمرأى الرؤى والأطياف، ولأنه كان يحظى بحب إخوة له يجهلهم الناس كل الجهل فى **أثينا**، ولأنه أيضا لم يكن يخشى أن يماط اللثام قبل الأوان عن مشاريع انتواها كان يمكن أن تمس كرامته كمواطن، وأهم من هذا وذاك لأنه كان بوسعه أن يطيل أعمار الموتى الهالكين بأن يهبهم القرارات التى اتخذها لحياته هو. ولقد كتب أيضاً أنه بسبب هذا كله كان يغبط شقيقه **انطونيس** لأن نصف حياته كانت حقا حياة خفية غامضة غير أنها كانت جد مشروعة.

وبغير (أن يضطر) إلى تفسير ما استغلق على التفسير، كتب إلى أخيه عن الفارق بين أن يقوم أخ بصنع فترة حياته أثناء الطفولة ويقوم بتشكيلها على أنها ذاكرة ينبغى أن تستمر وتتصل، وبين أخ له قام بتشكيلها على أنها حقيقة ينبغى أن تظل محرمة. فلو قدر عليه أن يرتد مرة ثانية إلى حياة الأسر لفضل من جديد هذه

الحياة الصعبة الشاقة ذاتها، والسبب فى ذلك هو أنه قد ألف تلك الطبيعة الجذابة الآسرة التى تتصف بها الصعوبة والمشقة، والتى يمكن للإنسان أن يعثر عليها لو أنه نظر إلى أبعد من نورها وظلمتها... لعله دأب على تغيير بعض التفاصيل ولكنه لم يقم أبداً بدراسة أية طريقة أخرى سواها.

لقد حالفه الحظ فى حياته المصرية، حيث إنها أتاحت له سواء فى الحرب أو فى السلم ميدانا للمعارك اليومية الحربية وفتحت أمامه سبل الترقى. ولما كان حظه يرتكز فى هذا الصدد على فضائله التى يحظى بها، فلقد أحس (**الفريق إسماعيل باشا**) بأنه مفعم بهذه الفضائل. أما فيما يتعلق بحياته السرية الغامضة - سواء بسبب أن **يوانيس** قد هز مشاعره، أو بسبب أن خطابات شقيقه (**أنطونيس** المرسلة إليه) قد جعلت الاضطراب يدب فى أعماقه، أو فقط بسبب أنه بدأ يدلف إلى عتبة الشيخوخة - فقد طفق يرى المرائى الآن مؤخرا وهى تنقلب ضده تماما بمثل انقلاب البشر. ورغم أنه بدأ الآن فى خاتمة المطاف بالاختلاط بذوى قرباه الحقيقيين، إلا أن الإحساس بالوحدة المطبقة ظل جاثما على صدره.

ومع ذلك..لا..لم يكن هذا إحساساً بالحسد من جانبه ! فمعاذ الله أن يقع فى مثل هذا التبسيط المخل ! إن التقابل الواضح بينهما كشقيقين أمر بالغ التركيب والتعقيد. فهو لن يتحمل وطأة ذلك - ولندع المشاركة فى هذه المشاعر تستمر بينهما - ولكنه سوف يكتب له بوضوح تام ما يلى:«**كان بوسع أنطونيس أن يتقاسم ذاكرته مع أحياء ومع موتى هالكين، وهو يستمع إلى عزف القيثارة بعد تناول العشاء. أما ذاكرتى أنا فلم يكن ينبغى لها أن تتقاسم مع الآخرين خبزها، ولم يكن ينبغى لها أن تورث نفسها لأبنائها**... *كان بوسع* ***أنطونيس*** *أن يستضيف والدتنا ووالدنا وأن يمد إليهما يد المساعدة، كى يرحلا عن الحياة بهدوء واطمئنان وفق التصور الذى كان فى عقل كل منهما . بينما كان فى وسعى أنا (**الفريق إسماعيل باشا**) أن أستضيف (فقط) الروايات الثلاث التى تواترت عن نهاية (والدتنا) - وهى الروايات التى علمت بها مؤخرا - وكنت مترددا أيضا فى أن أقرر الأخذ بأكثرها اقترابا من الإنسانية كى أشرع فى مساعدة أمى* ومساعدة نفسى.

إن موت والديّ لم يجعلني أحظى بحزن صراح واضح (أعلن فيه الحداد عليهما)، في حين أن **انطونيس** *ظل وحيدا.. ربما بسبب عشقه للقسم الذي أقسمه بينه وبين نفسه. أما أنا* (**الفريق إسماعيل باشا**) *فقد ظللت وحيدا - رغم وجود النساء والأطفال من حولي، لأن حزني الصامت الذي تضاعف مرات ومرات قد أخذ يسحقني. إن* **انطونيس** *لم يخض حرباً من قبل، أما أنا فقد خضت حروبا لسنوات طويلة وعايشت الفزع والرعب، حينما شاهدت بعيني رأسي لأول مرة مصارع أناس آخرين وعانيت موتهم. إن* **انطونيس** *قد خبر وجرب وتحمل الألم والمعاناة حينما كان يمد الهاربين بالمأوى والحماية، وعندما كان يقوم بالإعداد للثورات والتخطيط لها. أما معاناتي أنا فلابد وأنها كانت تتغذى على الهندباء البرية في الهضبة (مسقط رأسي)، ثم استسلمت هذه المعاناة بعدها للنوم وغطت في سبات عميق، دون أن تحظى بالأمل في أن شفاه اليوم التالي سوف تقوم بلثم جبهتها. ثم عندما ظهرت تباشير الصباح في اليوم التالي كان ينبغي على هذه المعاناة أن تخنق بدمائها أية ثورة ليلية يمكن أن تنشب مهما كان شأنها. لقد كان* **أنطونيس** *يلعب دور المواطن إلى حد معين، أما أنا فقد تجاوزت في قوتي دور المواطن أيا كان نوعه، ومع ذلك كان بوسعي أن أحطم نفسي بغير رحمة ولا شفقة. إن نذر النهاية العنيفة لم تعذب* **انطونيس**، *وإن كان من غير المستبعد أن تشده أطياف موت مجيد رائع مرارا وتكرارا إلى صفوف رفاق المعركة، وتضعهم معاً في بقعة ريفية حال لونها بفعل الزمان ودخان الثورة. أما أنا.. فما أن تم ميلادي في حياتي الثانية حتى أخذت أهبتي لأن ألاقي موتا قاسياً عنيفا، لأنه فقط على هذا النحو سوف يقدر لي أن ألمس من جديد مسار المدى والخناجر إبان فترة مولدي».*

ثم أردف **الفريق إسماعيل باشا** قائلا إنه قد كتب له بالفعل عن أمور كثيرة، وإنه لم يكن ينبغي أن يدع هذه الأمور تُكشف أو يُعلن عنها. ولكن هناك على الأقل مقولة واحدة لا يمكن أن توصف بعد الآن بدقة، وهي: «*هل هناك أمر قد بقي حتى الآن بغير أن يدور حوله الحديث، مع أنه لا يزال يهيمن بطريقته على النفس؟*» فلقد

أدرك **إسماعيل باشا** أن كل ما كان يدونه كان يقوده إلى أعمق أعماق مجاهل المشاعر، إلى حيث كان بوسعه أن يقضى نحبه وهو ينشد رؤية شقيقه بين طيات السراب، وفكر أنه ما كان ينبغى أن يكتب لأخيه مرة أخرى باللغة اليونانية. ثم اختتم رسالته لشقيقه بقوله:

«آه ! ليته كان بوسعى رغم ذلك أن أتمكن من لمسك قبل أن أرحل عن الحياة !!!».

ثم أخفى **الفريق إسماعيل باشا** آخر خطاب تلقاه من شقيقه مع المدية التى حصل عليها من الكهف، والتى كان يخفيها فى زناره حتى لا تتعرض يوما ما للضياع. فلقد كتب له **انطونيس** (فى هذا الخطاب) أن ما هو آت من أمور فى المستقبل سوف يقيم العراقيل بينهما، ثم أردف قائلا: «*لم تخبرنى بعد عن ملامح وجهك ولم تصفها لى. إن (جدنا) فرانجيوس كان يحظى بعينين فى مثل زرقة السماء وبشعر فى مثل لون الذهب الذى يذوب ويختلط مع دمائه، ولقد طفقت أفكر فيك مؤخرا وكأنك والدى (واقفا) فى الميدان. فلقد كنت (شديد) الشبه به وأنت صغير، ولا يمكننى أن استبعد وجود مثل هذا التشابه الشديد بينكما. ولو قدر لنا دوام التراسل وكان بوسعك أن تعاود الكتابة لى من جديد، فاذكر لى أوجه الاختلاف عن صورتك التى شاهدتك عليها يوم المذبحة (التى حدثت فى مسقط رأسنا)، وذلك حتى يغدو بوسعى أن أعرفك حق المعرفة، وكى لا أظلمك أو أسىء إليك بحال من الأحوال. ومن ناحية أخرى فلن أسمح لنفسى بالخوض فى تفاصيل الكتابة والمراسلة بيننا، ولذلك سوف لا أتحدث عن السياسة ولا عن أمور الحرب، لكنى سوف أزجى إليك تحية الوداع، كما لو كنت لاتزال غلاما حتى الآن...... غير أننى قبل ظهور تباشير الصباح عند انبلاج الفجر شاهدت حلما مؤداه أننا كنا نمتلك ونحن طفلين صندوقا صغيرا كان يحوى كنزا قديما، وأن شخصا ما قد استولى على هذا الصندوق وأخفاه. فأما أنت فقد توجهت من فورك قاصداً المرأة التى أقدمت على سرقة حفنة من القروش، وأما أنا فقد عدت أدراجى إلى مقربة من البقعة التى كنا موجودَيْن بها من قبل، عسى أن نكون قد نسينا هناك (هذا*

*الصندوق الصغير). فوجدنا خرائب كثيرة ودمارا فى الأماكن التى كانت المنازل قائمة فيها من قبل. وهناك شاهدت شجرة ضخمة (وارفة الظلال) وعثرت على الصندوق الصغير معلقا فى أغصانها. وعندما قمت بفتحه وجدت فيه الكتب القديمة: **التريوذيا***، **والمينايا****، **والباراكليتيكى*****. وما أن نزعت الغلاف الذى كان يغطى هذه الكتب حتى شاهدت ذهبا نقيا (براقا)، وعندئذ هتفت مناديا عليك (لأحثك) على أن نقتسمه سويا، وحضرت أنت عَدْواً ولكنك قلت لى: «دعنا نلقى هذا الذهب بعيدا حتى لا نتشاحن عند اقتسامه فيما بيننا». وهكذا فقد رمينا الذهب وبعثرناه حتى غدا ترابا. ثم قلت لى بعدها: «هلم بنا نقتسم الكتب التى اختفى بداخلها كنز أسلافنا، ودعنا نعطى والدنا واحدا منها». ثم وصلت والدتنا وقالت إنها سوف توصل الكتاب إليه، ثم انصرفت لحال سبيلها. ونجحت فى أن أنادى عليها بقولى: «ضعى هذا الكتاب فى يديه الموثقتين بدلا من الأيقونة».*

ثم قفلت عائدا أدراجى وشرعت فى النظر إليك..كنت بالغ الهزال والرقة بسبب موت والدنا، وكنت تضم كتابك إلى صدرك ثم انخرطت فى البكاء. ولما كنت أنا أخاك الأكبر فقد قمت من فورى باحتضانك وشرعت فى إسباغ الحماية عليك، وأخذتك من بين الأنقاض والخرائب، ثم دللتك على طريق السهل وقلت لك: «إن الهواء يحمل السنابل وهى خضراء يانعة ثم يعيدها بعد فترة من الزمن وهى ذهبية اللون بكاملها..أنظر! فها أنذا أحبك بنفس الطريقة». فاحتضنتنى أنت ثم قلت لى:«هلم بنا إذن نسير معا فى طريق العبودية حتى آخره». ومرة أخرى تطلعت إليك

* كتب الصلوات الكنسية التى كانت تقام خلال الأسابيع الثلاثة التى تعقب الجمعة الكبيرة وتسبق أول يوم أحد فى فترة الصوم الكبير.

** الكتب الإثنى عشر الخاصة بالصلوات الكنسية، وكان كل منها يختص بأعياد لا يقف فيها العابدون بل يصلون وهم جالسون. وكانت تختص أيضاً بأعياد القديسين خلال كل شهر من شهور السنة.

*** كتاب صلوات الكنيسة الأرثوذكسية الذى يحتوى على الأهازيج والتسابيح والورود التى كانت تنشد خلال أيام الأسبوع كلها بمصاحبة النغمات الثمانية للموسيقى البيزنطية.

فوجدت محياك وكأنه صيغ من النحاس، وكانت لك لحية قصيرة ذات شعر ملتو ومقصوصة عند الوجنتين، وكان هناك طربوش يغطى شعرك المتجعد.ثم قفلت عائدا أدراجك نحوى بعد أن أصبحت رجلا يكسوه الحزن والألم، وقلت لى بصوت كصوت الأطفال:«ليس العيب عيب الحرب، إنما هو عيب السلاح»

الجزء الثانى

أيام الأوبة للوطن
و
حكاياتها التاريخية

الفصل الأول

استغرق الأسطول المصرى مدة ثمان وأربعين ساعة كى يرسو، وتلامس سفنه ميناء الجزيرة (**كريت**) الكبير الذى صنعته يد الطبيعة، حيث كان بانتظارنا الأسطول التركى الذى كان راسيا بالفعل فى الميناء. وأثناء هذه الرحلة كنت كثيرا ما أصعد إلى سطح سفينة (القيادة) التى تحمل العلم، ولم (يكن مرامى من ذلك بحال من الأحوال) أن أحصى من جديد عدد السفن وعدد الجنود والمدافع وصناديق الذخيرة أو المؤن، أو أن أجرى تعدادا للأطباء والمؤذنين الذين بعث بهم خديوى مصر إلى السلطان (التركى)، بهدف مساندته ومد يد العون له لكى يتمكن من قمع الثورة الأخيرة التى أشعل نيرانها الرعية الخاضعين له فى الجزيرة. فالحق أننى كنت أصعد إلى سطح السفينة لأننى كنت متلهفا لكى ألقى نظرة من خلال منظارى المقرب على اليابسة التى كتبت عليها الأقدار أن تسد الأفق إلى الأبد.

وكانت الصورة الأخيرة للجزيرة قد تلاشت من ذاكرتى سريعا، هذا إذا جاز لى أن اعتبر تلك القطعة المبتسرة من اللباد التى رمقتها عيناى أثناء إبحارى برفقة **إبراهيم باشا** لحضور حفل تتويجه مجرد صورة. وسألت نفسى آنذاك عما إذا كانت هذه الصورة قد تراءت لى أساساً فى لحظة من لحظات الماضى، أو أن لهفتى وقلقى على **إبراهيم باشا** قد حالا بينى وبين رؤية أى شئ آخر سواه، برغم أن الصورة ظلت ماثلة فى ذاكرتى على الدوام. فليكن ! فبعد برهة وجيزة من الزمن سوف أهبط من السفينة إلى الميناء، وبعد ثمانية شهور بالتمام والكمال سوف أتوحد مع اليابسة. حقا إننى لا أدرى حتى الآن كيف، ولكن ما أعرفه فقط هو أن ذاكرتى قد غدت من جديد فعالة ونشطة.

وفى فجر اليوم التالى شاهدت قمة جبل تصطبغ بلون الحمائم الوردى، وكان هذا اللون يترقرق على الصخور ويسقط فوق الماء مثل الطائر العطشان؛ وكان البحر

شفافا آنذاك فى شهر سبتمبر. أما (الأصوات المنبعثة من) آلات سفينة القيادة، فكانت تتزامن مع ضوء الصباح وتصدر نبضات رتيبة بالتوازى مع أفكارى، التى لم يكن ينبغى على أن أعلنها أو أصرح بها. فما كان للإياب أن يكذب حقيقة حياة قوامها الفكر؛ ولهذا السبب طفق الإياب يحفز أحاسيسى لأقصى درجة ويرهفها. فقد كان اللون اللازوردى يمنحنى من جديد الحكمة العتيقة، أما البحر فقد كان يهبنى البخور الخاص بطقوسها وسكائبها، بمثل ما كان ملح البحر يمنحنى حبيبات الألم التى تمت صياغتها على شكل بلّورات دقيقة. ورغم صياح نوارس البحر الزاعق - وهى أصوات سوف يقدر لى بعد قليل من سماعها أن ترتفع معنوياتى إلى أعلى عليين - إلا أننى انغمست بكل كيانى فى سماع (الأصوات) التى كانت تنطق بلغة آبائى وأجدادى. وفيما بعد فإن الجبال سوف يقدر لها أن تجسد (هيئة) بدنى من عناصرها التى شكلت عالم تلك الحروف البارزة. كنت أنعم بالسكينة لأننى كنت أعلم حق العلم أن الانتقال فى وقت الحرب من الحياة إلى الموت، إنما هو بمثابة اختصار عنيف للفترات الزمنية التى تحافظ على انتظام أية ظاهرة طبيعية غير منطقية. ولقد أسلمنى السرور كذلك إلى وضع أكثر ندرة، وهو أن أموت لكى أولد من جديد على جناح السرعة أثناء فترة نشوب الحرب. ترى هل حدا بى اللجوء إلى العنف - الذى ليس له ما يسوغه، والذى كان يلف تلك اللحظات المتتابعة المتكررة، ويمزقها إربا فى ملاءات دامية - إلى أن أعشق النغمات البطيئة وأهوى التأمل والملاحظة ؟ أم ترى أن السنوات التى أصبح من المتعذر علىّ إلغاؤها هى التى أثقلت كاهلى؟!!!

أحسست ساعتها بحنين جارف إلى أسرتى العثمانية، وكان الدخان المنبعث من المدخنة يحيل صورتها إلى سواد بفعل مثابرة لهب الشمعة التى يهفو إليها الفؤاد (على البقاء بغير أن يذوى نورها). وتذكرت آنذاك القلق الذى استولى على أفراد أسرتى عندما كنت أعد نفسى للانفصال المفاجىء عنهم. فلقد حول أكثرهم قربا إلى نفسى بأبصارهم بعيدا، لأنهم لمحوا علامة من علامات القدر تنذر بالشؤم تتراءى ما

بين حاجبى، ولم يطلقوا العنان لمشاعرهم للانخراط فى بكاء اعتقدوا فى قرارة أنفسهم أنه أمر لا ضرورة له. فلقد انهمك العبيد والخدم جميعا فى عمل الاستعدادات (اللازمة لرحيلى) لدرجة أن أيا منهم لم يرد أن يشعل الضوء، وظلوا على مدى يومين كاملين يقتاتون على البقسماط والحلوى التى يقومون بشرائها ، وكأنهم مقدمون على (الاحتفال) بعيد من الأعياد، يمكن للمرء أن يطلق عليه عيد الحزن والأسى. ولقد طلبت منهم بصوت كان وقعه فى الأذن - على غير رغبة منى - خشناً أكثر من المعتاد، أن يتم كل أمر - بما فى ذلك مراسم الوداع - بطريقة عقلانية لا تشوبها العاطفة، وفى إطار من التحكم فى المشاعر. فلقد خشيت أن تتطابق صورة السيدة الأولى فى حريمى مع صورة والدتى فى الكهف، فتمنحنى على هذا النحو مبررا أقترب فيه من فترة جديدة من الأسر. وقد أدركت من نظرتى إلى وجهها أنها ذرفت ما يكفى من الدموع، ومع ذلك قد جاهدَتْ كى تكسو ملامحها وملامح سيدات الحريم الأخريات وأطفالهن الصغار تعبيرات من عدم الاكتراث الذى ناشدتهم التحلى به. كما أنها عجزت عن أن تعبر لى عن أمنيتها بعودتى لبيتى عودة طيبة. وعندما تعانقنا - وكنت ساعتها أعرف أننا لن نلتقى مرة أخرى - أحسست بذنبى لأن خيالى لم يترك لى فرصة للارتباط بعائلتى. ولعلها أدركت آنذاك أننى كنت أنشد غفرانها لى، أو لعلها منَّت على فى قرارة نفسها بالصفح.

لم يكن لدى الوقت الكافى لإنجاز الكثير من الأعمال، فقد كان على أن أتحدث مع الكاتب العام ومع المشرف، ومع ضباط الصف، وكان على كذلك أن أتحدث مرة أخرى مع ولى العهد*، رغم أنه لم تنقض بعد سوى ساعات قليلة على مقابلتنا الأولى. (وبدأ ولى العهد حديثه معى بقوله): «*إن الأخبار التى وصلت إلى القاهرة مؤداها أن الجيش المصرى الموجود فى جزيرة (كريت) قد اشتبك فى قتال عند*

* ولى العهد هنا هو على الأرجح عباس باشا الأول الذى تولى حكم مصر من قبل الباب العالى كخديوى، بعد وفاة كل من إبراهيم باشا ووالده محمد على باشا الكبير.

*مكان يسمى فريسيس Bryses (**الينابيع**) مع حشود السكان المحليين، وأن هامة الجيش التركى فى الجزيرة قد جللت بالخزى والعار. وأنه كان محتما بناء على ذلك أن يتم استدعاء قائد الجيش التركى شاهين باشا على جناح السرعة، وأن يتم إرسال أكثر باشاوات مصر قدرة على خوض الحرب وأكثرهم جدارة بالثقة (وهو أنت، أيها **الفريق إسماعيل باشا**)* بدلا منه». ثم أضاف ولى العهد إلى هذا قوله لى بأننى قد احتللت مكانة تكاد تصبح مضرب الأمثال بوصفى مرافقا لوالده **إبراهيم باشا** فى كثير من معاركه المظفرة، ثم مرافقا له فيما بعد أثناء مرضه الذى ألم به - حيث لم يعد هناك الكثيرون ممن هم باقون على قيد الحياة من شهود تلك السنوات الحافلة بالبطولة - وبأن جدارتى بوصفى وزيراً للحربية قد أهلتنى لكى أكون شخصا يمكن الاعتماد عليه والوثوق به. ثم لاذ (ولى العهد) بالصمت للحظة وواصل الحديث بعدها قائلا: «*إن أصلك ومنبتك لم يؤثرا على الإطلاق فى طريقة حياتك الإسلامية التى عشتها بعد (أن وفدتَ إلى مصر). وأنه أصبح الآن ممكنا بوجه خاص أن يتم استخدام تلك الحقيقة لصالح السياسة المصرية ومصالحها، وهى مصالح لا تتطابق - وهو أمر علمته بالإضافة إلى غيره - مع مصالح الباب العالى، ولن تتطابق من باب أولى مع هذه الحرب*». ثم أردف موجهاً حديثه لى بأن مشاعرى المعروفة تجاه السلطان (التركى) - وهى مشاعر نبعت من (فرط حزنى) على ضياع الملحمة المصرية - سوف يقدر لها أن تخدم مصالح ولى العهد على أفضل نحو ممكن. ورغم أن ولى العهد كان يمت بصلة قرابة حميمة **لمحمد على باشا**. إلا أنه لم يكن بقادر حتى على التفكير فى المطالبة بعرش **البوسفور**. وربما (كان كل ما يصبو إليه آنذاك هو الحصول على) القدر اليسير من بسط هيمنته على الجزيرة مرة أخرى، أو على الظفر بنوع مماثل من المعونة. (ثم واصل حديثه إلىّ بقوله): «*إن امتلاكَ لناصية اللغة اليونانية - حيث إن علو شأنك ومكانتك سوف يمكنانك من استخدام لغتك الأم - وكذا التعليم الذى حظيت به* فضلا عن ليونة عريكتك *(فى التعامل مع الآخرين)، إنما* يمثلون جميعاً سلاحا يعادل فى قوته سلاح

الحرب الحديث، والقوة المتكاملة التى يمتلكها الأربعة آلاف رجل الذين سوف يرافقونك ويأتمرون بأمرك».

استمعت لحجج ولى العهد المنطقية مدركا - فى مثل هذه الظروف - أن الحجة المنطقية تشكل قرارا. وكان اختيارى دليلا على إسباغ شرف عظيم على شخصى، وهو شرف يستحيل بأى حال من الأحوال (رفضه أو) رده ثانية على مانحه الملكى، دون أن ينطوى مثل هذا التصرف على إهانة. كما أننى - من ناحية أخرى - أحسست بالغبطة للشرف الذى تم إسباغة علىّ ولورود ذكر **إبراهيم باشا** فى الحديث. ولبرهة من الزمن طفقت أفكر فى الشرارات المنبعثة من نار المعسكر التى كنا نشعلها فى الخلاء، وفى أدوات الخيام وأثاثها الذى كان يسهل طيه وحمله، وفى التنهدات التى كانت تنبعث من أفئدتنا عند سماعنا لأغنيات الحب الليلية المفعمة بالمشاعر الجياشة، وفى الكلب والفرس (اللذين كانا يمرحان) فى المعسكر، وفى عدم وجود أية نساء أو أطفال معنا على الإطلاق، وفى طرح أى فكر منطقى يمكن أن يخطر على عقولنا جانباً أو نبذه وراء ظهورنا، فيما خلا الفكرة الفريدة التى تفرض نفسها على العقل من أجل ضرورة التعايش مع اللحظة التالية. تذكرت حياة المعسكر وكأنها كانت طريقة حياة من طرائق فترة شبابى، غير أن الحرب لم تكن مجرد مخيم أو معسكر بحال من الأحوال. وهنا أدركت أننى لم أحب الحرب لمجرد رغبتى فى الحرب، رغم أن الحرب أيضا كانت طريقة حياة من طرائق فترة شبابى.

فقلت (فيما بينى وبين نفسى) إن ما أعايشه هنا كان مماثلاً لما كان قد حدث من قبل فى مسيرة حياتى، وإنه لمن الغريب أن يقدر علىّ أن أرتد على آثارى قصصاً لمسقط رأسى بفعل متكرر الحدوث، أو بالأحرى بتعريف مناقض لإقامة المخيم، وكأننى غدوت عاجزا عن الابتهاج لأوبة جد مختلفة... كان مقدرا علىّ إذا أن أعود (لمسقط رأسى) على هذا النحو. ثم استجمعت أفكارى لأجد أن الأمر يدور حول كمين، وأحسست أنه حرى بى أن أنفذ مباشرة إلى النقطة الفريدة التى تفرعت

عندها المناقشة، رغم أننى كنت أستعد منذ سنوات لكى أعود مرة أخرى إلى المناطق المحرمة، وأن أقوم هناك بالبرهنة على هويتى كرجل بالغ، بغض النظر عن المعنى الذى يمكن أن يتخذه على الدوام الميلاد السرى لهذه الذكريات ذاتها. ولقد أدى تحقق رغبتى التى كنت أصبو إليها - بصورة سريعة وجد مباغته، وخاصة بالطريقة التى كان مقدرا لها أن تتم بها - أدى إلى عجز ركبتاى عن حمل جسمى. ولولا أن شملنى ولى العهد بعطفه وأتاح لى الجلوس، لتكومت منهارا أمامه فوق ذلك البساط المفروش على الأرض والمزين بصور الزهور، فلقد كان يراودنى ساعتها اعتقاد مؤداه أن بستانيا جامحا قد غرس فى كل من الجحيم والفردوس الزهور ذاتها المصنوعة من الصوف والحرير.

وطوال الفترة التى كنا نحتسى فيها الشاى المثلج كنت أبذل قصارى جهدى فى الإمساك جيدا (بفنجان الشاى) المصنوع من البورسلين الفرنسى، وكنت أفكر فى أننى عندما كنت أحارب فى سوريا، كنت أصغر سنا وأشد طموحا. وكان ينبغى على آنذاك أن أصف الوصمة التى يوصم بها الأسير فى كل رتبة أرتقيها صعوداً فى سلم درجاتى الوظيفية؛ ولم تكن لدى حتى ذلك الوقت أسرة (على أية صورة من الصور)،حتى ولو كانت أسرة تقليدية عادية. وكأن مشاعرى قد فردت مروحتها بأسرها لجلب النسيم، بغير أن يوقفها عن ذلك حتى الرعب الناشىء عن الاشتباك فى المعركة. والآن.. كلما ازداد اقتراب أسطولنا من الجزيرة كلما فكرت فى الألم الذى كان يعترى وجوه أفراد أسرتى العثمانية، واحداً إثر الآخر، بفعل تأرجح تلك المروحة التى تأخر بى الوقت فى طى ثنياتها. وكان حريا بى أن أنطق بهذا وأنا فى حالة أقرب للتأمل. وعندما كانت (السفينة) تدلف بى إلى المرفأ، (أدركت) أن هيئة (المروحة) المطوية كانت مماثلة لصورة المدية التى كنت أحتفظ بها دوماً (فى زنارى).

اخترت غرفا تطل على الجزء الشمالى من البحر، فقد كان يتعين على أن أبقى ها هنا أياما قليلة إلى أن أتمكن من نقل المعلومات المتعلقة بالأحداث ومن صياغة

تقريرى الأول لولى العهد. وكان الأسطول قد وصل بالفعل إلى ميناء الجزيرة الكبير، ودلف بى إلى مدينة **خانيا** Chaneia. فقمت بتحية القائد الأعلى للباب العالى **مصطفى باشا** الملقب **بالجريتلى**، وهو لقب يعنى الكريتى، وكان السبب فى حصوله على هذا اللقب هو أنه كان قد حكم الجزيرة فيما مضى لمدة عشر سنوات كاملة.

وعلمت أن القائد الأعلى هذا كان ألبانيا يمت بصلة القرابة **لحسن باشا** الذى جعلنى واحدا من أسراه ذات يوم. وكنت أعتبر (**مصطفى باشا**) عالما بأحوال الجزيرة وجنديا على قدر كبير من المهارة، ولذا فقد وضعت نفسى تواً تحت إمرته.

اخترت إذا هذه الغرف لكى لا أترك نفسى فريسة لسحر اليابسة، وهو سحر فتان كان يقلب كيانى رأسا على عقب حينما يضخم من حجم هذه الحرب ويجعلها نذيرا بحلول فأل سيء. فلقد بدت لى الحروب التى دارت رحاها فى سوريا مرة أخرى وكأنها حدثت منذ زمن سحيق ثم غدت متحجرة كالرخام، أما رفاقى القدامى فيها فقد بدوا وكأنهم يغوصون فى عباب اليم الأزرق، وبدوت أنا وكأننى أمسك بيد **إبراهيم باشا** وأقوم بجذبه خارج الأمواج، ولم أعد أراه باديا أمامى بعد ذلك إلا نادرا*. ومع ذلك فقد حظيت بعونه ومساندته فى هذه الحرب الجديدة بنفس القدر الذى أعاننى به فكر والدتى فى الحروب القديمة، كى لا أترك نهبا أو فريسة لسلاسة طريق واحد من هذه الطرق. ولكن كان هناك أمر أكثر عمقا من ذلك: فلقد كنت أتوق لأن أجعل **إبراهيم باشا** يشاهد بعينيه الأماكن التى ولدت بها وشببت عن الطوق فيها. وكان هو يعرف أننى طالما أبقيتها داخلى بحذافيرها دون أن أمسها، وأنها كانت تعذبنى خلال فترات الصمت التى كانت تسود بيننا أثناء حديثنا.لذ لم يسألنى عنها قط. وفكرت فى أن الكشف عنها لن يسفر الآن بحال من

* أرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن إبراهيم باشا كان آنذاك قد رحل عن الحياة، ولكن بطل القصة كان يتخيل وجوده ويتحدث مع طيفه، كما كان يفعل تماماً بتمام مع طيف والدته الراحلة التى رحلت عن الحياة منذ طفولته الباكرة.

الأحوال عن إيجاد تأثير مختلف عن ذلك التأثير الذى تحدثه الدماء الحارة التى تفور فى عروقنا؛ وهكذا فقد دعوته ليرى هذه الأماكن. وكنت قد أعربت له عن رغبتى فى أن يكون حاضراً ساعة رحيلى عن الحياة، على أمل أن تقوم يده بقطع خيط حياتى المصرية بسهولة أكثر، طالما أن مدار القدر سيسلمنى مرة أخرى إلى الهضبة التى تمثل مسقط رأسى. وهنا عضضت على نواجذى لأمنع نفسى من الانخراط فى البكاء، ولأغدو هادئا بمثل هدوء طاحونة الهواء.

ولقد اخترت هذه الغرف لسبب آخر علاوة على هذا السبب: فالبحر يجعلنى أتوحد مع الشرفة (التى يجلس فيها) شقيقى. وعلى أية حال فقد سألت نفسى على وجه السرعة عن المدى الزمنى الذى كان متاحاً أمام أخى **انطونيس**، كى يخرج (إلى الشرفة) ويتأمل الأفق الممتد نحو الجنوب. فلقد توافرت لدى معلومات مؤداها أنه تم فى **مدينة أثينا** تأسيس لجنة مركزية للدفاع عن الكريتيين، وكان أمين صندوق هذه اللجنة هو شقيقى **انطونيس كامبانيس باباذاكيس**، نظراً لأنه قدم لها أكبر مبلغ نقدى كتبرع، وكان رئيس هذه اللجنة هو **ماركوس رينييريس**؛ وكانوا يقولون إن شقيقى قد أعد منزله لكى يغدو مكاتب للعاملين بهذه اللجنة. ومن المؤكد أن (الشهداء) الذين لقوا مصارعهم (فى مذبحة الهضبة) كانو سيتزاحمون فى كل من الشرفة والحديقة، وهم فزعون من تدافع الوطنيين من الأحياء أثناء هرعهم فى الممرات وفى حجرات المنزل. وطفقت أشاهد والدىّ وكأن الحياة قد دبت فيهما مرة أخرى من منظور هذه الوقائع، وخيل إلى أننى أراهما وهما يتطلعان تجاه الجنوب كى يخمنا الحقيقة التى ستسفر عنها الأحداث. غير أننى لم أتمكن من أن أتطلع مليا إلى عيونهما التى كانت تبحث وتنقب وهى شاخصة إلى أعلى مثل منارات مقامة على رأس مهجورة (ممتدة فى البحر).

وبدأت أملى على الكاتب أول تقرير أرسله إلىّ ولى العهد وأنا أتطلع مليا إلى البحر. ولمحت آنذاك مركبا شراعيا منطلقا يشق عباب اليم الأزرق الساكن، فتسمرت أبصارى على حركته... فلعله كان متجها صوب (جزيرة) **كيثيرا**

Kythêra، ومنها بحذاء الساحل إلى ميناء **بيرايوس** Peiraieus (**بيريه**)! وفكرت فى أنها ليست رحلة طويلة رغم أننى لن أقوم بها أبدا. وكان السبب فى ذلك أن هناك إحساساً كان يراودنى بأنه لن تسعنى أية بقعة فسيحة، سواء أكانت داخل منزل شقيقى أم خارجه. وهكذا فقد جلست إلى مكتبى وحاولت أن أركز كل تفكيرى فى التقرير الذى أكتبه.

فمنذ شهور خلت قبل الوقت الحاضر - كما يحدث دوما عندما تقترب اللحظة التى تستثار فيها مشاعر الناس - اتخذ العثمانيون المدن مأوى لهم خوفا من (بطش) الثوار والفدائيين، أما المسيحيون فقد خرجوا من المدن ولاذوا بالمناطق الجبلية ليحتموا بها خوفا من المذابح (التى قد يتعرضون لها). ولم يكن بوسعى حينئذ أن أتفادى التفكير فى التحرك التالى لذلك مباشرة، وهو أنه فى حالة الضرورة فإن النساء والأطفال سوف يلوذون بالكهوف ويحتمون بالصخور وشعاب الجبال. ولقد توافرت لدىّ - على أية حال - معلومات مؤداها أنه فى مثل هذه الثورة العارمة سافر أكثر المواطنين ثراء فى رحلات إلى بلاد بعيدة انتظاراً لأن تضع المصادمات الدامية أوزارها. ومن ناحية أخرى فقد كان من ضمن الدوافع التى أفضت إلى نشوب تلك الاضطرابات، فرض ضرائب جديدة على المزراعين وتدخل الإدارة التركية فى شؤون الأديرة. ومن ثم فقد تجمع الثوار الفدائيون واتخذوا قرارا بإنهاء الهيمنة العثمانية، وأعلنوا فى نفس الوقت ارتباطهم واتحادهم مع بلاد اليونان. وجعلوا أمر تنفيذ قرارهم هذا رهنا ببسالتهم، ورهنا بإسهام بنى جلدتهم وذوى قرباهم وكافة المحبين لليونانيين، ورهنا بالوساطة القوية من جانب القوى الكبرى، ورهنا بقدرة الله سبحانه وتعالى على كل شىء.

تركت فوق مكتبى بيان الثوار الفدائيين وإعلانهم الذى تم طبعه بطريقة ارتجالية. ولم تكن هناك من الدول آنذاك دولة تبارك هذه الانتفاضة الثورية سوى روسيا. وكان **كوموندوروس** Koumoundouros, نصير السياسة الروسية فى أثينا،

يساند الانتفاضة الثورية علنا، أما حكومة **فينيزيلوس روفوس** Benizelos Rouphos فكانت تتخذ موقفا متحفظا، وكانت هناك أيضا - كما علمت - الجمعيات (المؤازرة للثورة). وكان هناك عدد كاف من هذه الجمعيات - منذ سنوات طويلة قبل الآن - التى تعمل سراً فى الجزيرة (**كريت**) أو فى بلاد اليونان. فعلاوة على اللجنة المركزية لمدينة أثينا، تم تأسيس اللجنة الخاصة بالحملات (العسكرية) فى جزيرة **سيروس** Syros، وهى لجنة كانت تتعاون بشكل وثيق مع اللجنة الأثينية. وأقدمت هذه اللجان بالفعل على شراء السفن وتأجيرها بهدف إرسالها للثوار وهى محملة بالبارود والسلاح والمدافع وطلقات الرصاص وحزم الورق، والخراطيش والجلود والملح والأدوات الطبية. وكان كثير من المتطوعين يسافرون فى هذه السفن كى ينخرطوا فى زمرة المنظمات الفدائية، وكان من بينهم أطباء وصيادلة وأدباء مثقفون وجنود مقاتلون ممن عركوا حياة الجندية فى فرق الجيش. وتم إنشاء لجان للدعم والمساندة فى المدن اليونانية العريقة، مثل: **باترا** Patra، **تريبوليس** Tripolis، **نافبليون** Nauplion، **اسبرطة** Spartê، **لاميا** Lamia. وكان من الممكن - على أية حال - أن يقدر مجموع قوات الثوار الفدائيين بحوالى خمس وعشرين ألف شخص، بينما كانت قوات الجيش الإمبراطورى (العثمانى) تبلغ حوالى خمسة وأربعين ألفا من الجنود النظاميين، علاوة على عشرة الآف من المجندين الأتراك - الكريتين، فيبلغ مجموعها بذلك خمساً وخمسين ألف جندى.

فقمت على الفور باستدعاء الضباط الذين قدر لهم أن يبقوا أحياء بعد معركة **فريسيس** (**الينابيع**) كى يدلوا بشهادتهم فيما حدث. وشاهدت فى ملامح وجوههم أمارات الركود البادى فى الأفق، وأدركت من ذلك أن الحرب كانت قد نشبت للتو. وقد أخبرونى بصوت ذى نبرة واثقة - كما لو كانوا قد حفظوا الكلمات (التى نطقوا بها عن ظهر قلب)، أو كما لو كانوا تبادلوا الحديث معا عددا لا يحصى من المرات قبل أن يتخذوا قرارهم فى النهاية - أنه رغم أن القائد السابق للجيش المصرى، **شاهين باشا**، كان يسير وفق سياسة ولى العهد، ورغم أنه لم يكن ينزلق

قط إلى التورط فى أحداث فرعية غير ذات أهمية، بل كان يسعى لتهدئة خواطر الجنود ومشاعرهم، إلا أنه قد وقع فى ورطة شديد الوطأة والخطورة. وذلك لأن الحفاظ على التوازن فى القتال مع انتفاضة ثورية اندلعت، أمر فى غاية الدقة والهشاشة - ولقد جاء هذا بنفس الألفاظ التى صاغوا بها عباراتهم تماماً - بل إنه أشد فى رقته من قشرة البيضة. فقد أقدم (**شاهين باشا**) على احتلال **فريسيس** كى يقطع الاتصال عن بعض الأماكن التى كانت تشعل نار الثورة فى نفوس السكان الوطنيين، وتحضهم على القيام بعمليات عسكرية (ضد الجيش المصرى). ولقد حدثت بالفعل مصادمات ومواجهات بين الجانبين، كما تعرض الجيش المصرى للحصار؛ ولقد (قرر **شاهين باشا**) أن ينقل قواته الحربية طالما كان قادرا على التحرك والانتقال فى أمان. لذلك سعى لإجراء حوار مع الثوار الفدائيين واتفق معهم على أن يغادر جيشه المكان فى نفس اليوم دون أن يتعرضوا له بسوء، أما عن الزاد الذى سيبقى فى المعسكر فقد نص الاتفاق على إرسال وفد فى اليوم التالى لتسلمه وحمله مع الدواب. وبعد الاتفاق المتبادل بين الطرفين قاموا بتبادل عشرة أسرى من كل طرف من الطرفين. ولكن ما أن غادر الشطر الأكبر من الجيش المصرى المكان حتى قام الثوار الفدائيون بالانقضاض على المعسكر الخالى من الجنود، وأقدموا على ذبح المرضى وطاقم الممرضين، وذلك لأنه فى كل سنة وفى مثل هذا الفصل بالذات كانت الحمى تنتشر فى منطقة **فريسيس**، وكان عدد كبير من السكان يضطرون بسبب الإصابة بها إلى ملازمة الفراش. كذلك أقدم الثوار الفدائيون على نهب الزاد والعتاد التى تركه الجيش المصرى فى المعسكر، كما أنهم سارعوا بالانقضاض على بعض الجنود المصريين الذين كانوا يسيرون فى مؤخرة الجيش المصرى وقتلوهم شر قتلة، وذبحوا معهم الأسرى العشرة. ولقد وردت أنباء فى ذلك الحين مؤداها أنه وفقا للخطة التى رسمها الثوار الفدائيون مسبقاً، فقد تمكن أسراهم العشرة من الفرار من أيدى قوات الجيش المصرى.

ولقد أضافت الأنباء الواردة إلى الثوار أن معركة أخرى ضارية قد نشبت، وأن جيش الإمبراطورية العثمانية قد تمكن خلالها من أسر شقيق القائد (اليونانى)

وأقدم على تمزيق أوصاله إربا، وأن العثمانيين على مدى هذه الأيام قد انطلقوا من أسوار المدن وهم يرومون الثأر وينشدون الانتقام من القاطنين فى المناطق المجاورة أو فى المدن ذاتها، وذبحوا من ذبحوا ونهبوا ما وقعت عليه أيديهم. أما الثوار الفدائيين فقد قاموا بدورهم بذبح كل عثمانى وقعت عليه أبصارهم أو قابلوه فى تجوالهم.

ولقد أثار عجبى حقيقة مؤداها أننى سمعت صوتى وهو يملى (على الكاتب) ببطء وبوضوح تام (الصياغة السليمة) للغة العربية التى ينبغى عليه أن يدونها، مع أننى موجود فى الجزيرة التى شهدت مسقط رأسى؛ كما لو كانت كل حقيقة من هاتين لا ترتبط على الإطلاق بالأخرى، أو بالاحرى كما لو كنت لم أطأ بقدمى بتاتاً فى حقيقة الأمر الأرض التى طالما امتلكتها على الدوام فى خيالى. (ومما أدهشنى أيضا) أن حروف اللغة العربية الجميلة الأنيقة التى خطتها يد الكاتب الرسمى لم تمنحنى السعادة ولا البهجة اللتين استشعرتهما عند كتابة صفحة واحدة من الرسائل التى كنت أبعث بها لشقيقى **انطونيس** مدونة بلغتى اليونانية التى تشى بالتلعثم والتردد. ولم يكن ينبغى على أن أنسى - على أية حال - أن الحملة العسكرية العثمانية التى كانت تحارب فى الجزيرة موضوعة تحت قيادتى وتتلقى منى أنا الأوامر.

ولقد ملأ جوانحى شوق جارف لا حد له كى أعاود الكتابة باللغة اليونانية، أم ترانى كنت راغبا فى أن أكتب الآن من جديد **لأنطونيس** بعد أن صار الأمر مستحيلا؟ كنت راغبا فى أن أكتب له عن أنه قدر لى أن أقوم بدور الوسيط بين قعقعة السلاح وبين الدماء، هذا لو كان بمقدورى حقا أن أستبق الأمر وأفلح فى تفسير وقائعه، (وكنت أرغب كذلك فى أن أكتب له) عن ما قدر له أن يختفى كروح خيرة أو شريرة فى رسم الأرض البارز الذى يذكر كل رجل بأنه كان من قبل غلاما.

كما ملأ جوانحى أيضا شوق جارف لا حد له كى أجلس تحت جذع شجرة ليمون وارفة الظلال وأفض من جديد الرسالة الأخيرة التى أرسلها إلىّ، ولم يتح لى

الوقت لكى أحفظها عن ظهر قلب. ولم يكن هناك أمر من شأنه أن يبعث الضيق فى نفسى، حتى لو شاهد جنود الحامية القذى فى عينى، وحتى لو وضع **إبراهيم باشا** يده على كتفى. فكل ما كانت تتوق إليه نفسى هو أن أفرك بأصابعى ورقتين من أوراق شجرة الليمون، كما لو كنت أنشد أن أحظى عن طريق ذلك بالمشاعر والأحاسيس التى قد يبعثها (تدخين) الحشيش (فى الإنسان).

ولن يقدر **لأنطونيس** أبدا أن يعلم شيئا عن الحرب التى أشعل هو نارها، والتى شهدها شقيقه الذى عاد مرة أخرى - ولكن بوصفه عدواً - إلى الأماكن التى شهدت مراتع حياته الأولى. إذ وضع القدر (**أنطونيس**) فى الجانب الذى سوغته له ظروف وطنية مثالية، وكان من حسن حظه أنه كان موجوداً آنذاك فى مدينة **أثينا**، وبذلك لم يتح له أن يتنصل من هذه الظروف أو ينكرها كل يوم. فالحق أنها ظروف تدفع المرء إلى التنصل منها، حتى أثناء إنجاز الأعمال البطولية التى تتسم بالجسارة - تماما مثل الميلاد الذى يحمل الموت بين طياته - كى لا يظل هناك شيئاً بالغ البساطة باقياً فى الفكر الإنسانى من شأنه أن يصيب ببساطته هذا الفكر بالتلف أو يفسده. ولم اكن أعنى بذلك أنه كان قادرا على التعاطف معى، فلقد كانت رسائلنا أدنى من أن تدعم وجود نوع من العلاقات التى تقوم أساسا على محبة البشر، ولست أعنى بذلك أنها كانت تقوم على إحساس الشفقة وحده، بل إنها كانت مؤسسة على قبول مبدأ الاختلاف. لقد كانت رسالته الأخيرة لى بمثابة مرثية ينعى فيها حياتنا التى كنا نتشارك فيها، وكان من حق **أنطونيس** أن يطلعنى على الدموع التى مازال يذرفها حزنا على هذا المصير. فلقد كان الحزن الذى استولى على قلبه حزنا حقيقيا، وهو حزن دفعنى - رغم أننى أفلحت فى إخفائه لعدة شهور حتى ذلك الحين - إلى أن أنخرط فى البكاء وأنشج نشيجا متصلاً مثل طفل حق عليه العقاب. ولقد تصورت آنذاك أن العقوبة كانت (عرفاً) وفد إلينا من العالم الخارجى. لقد فكرت بعمق فى **أنطونيس** لأننى كنت أحبه حبا مفرطا مثلما كانت والدتى تفعل، حتى وهى تفرض على أى واحد منا أن يتحمل عقابها المخفف، ومع ذلك فكثيراً ما كنت أنا وأخى نتلقى هذا العقاب معا دون تفرقة.

ولن يقدر كذلك **لأنطونيس** أن يعرف شيئاً عن مسيرة حياته (العكسية)، أى من فترة الرجولة حتى مرحلة الصبا أو من المرحلة الأخيرة حتى الموت، لأن أفكاره كانت تتطلب حماس الشباب المستمر الذى يدفعه لأن ينسى أن العدالة نعمة من نعم السن التى ينضج فيها الإنسان اكثر، هذا إذا جاز له أن ينعم بمثل هذه النعمة. كما أنه ليس فى مقدورى أن أحدثه عن العذاب الذى انتابنى فيما يتعلق بنهايتى، وهو عذاب ما فتأ يطبق على بكل ثقله مرارا وتكرارا، رغم أننى وشقيقى كنا فى ذات السن تقريبا. ولن يقدر أيضا (لشقيقى) أن يعلم شيئا بتاتاً عن تعاطفى مع العدو، وهو تعاطف محرم علىّ لا يمكن أن أبوح به أو أعلنه، ولكنه فى ذات الوقت تعاطف لا محيص عنه ولا مهرب منه. وفى الحق أننى لم أكن أملك فرصة النكوص عنه حتى ولو غدا معروفاً (للكافة) نتيجة لخطأ صدر عنى من غير قصد. لقد كان فى وسع **أنطونيس** أن يتخذنى عدواً له، أما أنا فلم يكن بوسعى أن أحدد بوضوح كنه الحرب التى كنت أوشك أن أشنها... فلقد كنت أعتقد أنه لم يكن راغبا فى معرفة أى شىء عنى وعن حياتى، حتى ولو لم نكن قد تبادلنا معاً عدة رسائل، وإلا لكان قد أرسل لى أمارة أو علامة تعلمنى بموقفه منى.

كان البحر قد اتخذ اللون الأزرق الداكن المرتبط ببدايات فصل الخريف التى تنذر بقدوم سحاب كثيف يحمل المطر، وهو أمر طالما اشتقت إليه وتمنيت أن أحظى برؤيته وأنا فى مصر، وكان القائد الأعلى **مصطفى باشا** قد استدعانى وطلب منى الخروج بصحبة جيشى كى أقابله عند موقع يعرف باسم **كيراميا** Kerameia يقع عند سفح ليفكا أورى Leuka Orê (**الجبال البيضاء**). خرجت إذن من المدينة لكى أخوض حربى الأولى، وطفقت أشق طريقى خلال الحدائق والبساتين التى كانت تزخر ببواكير الثمار التى لم تنضج بعد، كما طفقت أستحث فرسى على أن يركض بسرعة إلى بقعة مستوية من الأرض لكى أتحاشى ما أمكننى الخوض وسط الأشجار المزروعة. وكان الصيف يحتفظ حتى هذا الوقت بلونين فقط، هما الأصفر والبنى، أما لون الحرب الأسود فكان لا يزال فى براعمه الأولى. وشققت طريقى

وسط قرى هجرها سكانها، ووسط أراضى تابعة للأديرة أقفرت من زارعيها، ولم أكن أسمع آنذاك سوى وقوقة الدجاج أو ثغاء الماشية المختبئة، التى لم يتمكن السكان عند هروبهم من أخذها معهم. وشرعت فى ارتقاء الجبل وساورنى اعتقاد بأن حواف المعطف ذى اللون الرمادى المائل إلى الزرقة - الذى كان يرتديه الجبل عندما ترنو إليه من ناحية البحر - إنما تنتهى بشراشيب ملونة، كما لو كان الجبل قد استقر على الأرض وتخلى عن قمته الشامخة. ولقد أفضى بى تواضع هذا الجبل الجم إلى الإحساس بالراحة والشعور بالسكينة.

تابعت المعركة بغير أن أشارك فيها، وكان السبب فى ذلك أنه فور وصولنا أجبر (قدوم) **مصطفى باشا** (بقواته) الثوارَ الفدائيين على حفر خنادق لهم فى الأماكن الأكثر ارتفاعا والتحصن فيها، وبذلك أصبحت مشاركة المصريين فى القتال أمراً غير ضرورى. وحل علينا صباح اليوم التالى ونحن فى ذات الموقع دون أن يقع أى تبادل لإطلاق النار بيننا وبينهم طوال النهار. ويبدو أن خصومنا قد لاذوا بالجبال واتخذوها مأوى لهم، وبناء على ذلك فقد قفلنا راجعين إلى المدينة.

وفى اليوم التالى وصل شطر من قواتنا عن طريق البحر الى ميناء **ريثمنون Rethymnon**، وعقب إقامة إجراءات رسمية تم تعيينى قائدا أعلى للقوات المصرية التى كانت موجودة هناك قبل وصولى إلى الجزيرة. ولقد قبل **شاهين باشا**، الذى لاقى الهزيمة، قرار تنحيته عن القيادة على أنه قرار من قرارات القدر لا مرد له. غير أننى وددت أن أكرمه بامتطاء فرسى والسير بمحاذاته وإلى جواره، فى الوقت الذى حولنا فيه مسيرتنا عن طريق اليابسة شطر ميناء **خانيا**. والحق أننى أدين (**لشاهين باشا**) بمعرفتى لمعلومات كثيرة تتعلق بسياستنا فى الجزيرة.

وذات صباح بعد انقضاء يومين على رجوعنا - على ما اعتقد - وفد السيد **نيكولاؤس ساكوبولوس Nikolaos Sakopoulos**، قنصل بلاد اليونان فى الجزيرة، لمقابلتى وفقا لما تقضى به الأعراف (الدبلوماسية)، وكنت أنتظر فى قرارة

نفسى هذه الزيارة. ولقد قابلته فى نفس المكان الذى كنت أستقبل فيه كل الناس. ولكننى عدلت وضع مكتبى بحيث يقع بين النافذتين اللتين تطلان على البحر، وذلك كى لا يسمح الضوء للضيف بأن يتفرس فى ملامح وجهى، بينما يمكننى فى ذات الوقت من أن أتفحص أنا ملامحه وأتمعن فيها. وكنت الاحظ أن زوارى كانوا يرقبون وجهى بعناية شديدة وهو يبزغ من الظلال كما لو كان يرسم أمامهم بألوان مائية باهتة. وكنت أرى كذلك أنه عندما كانت الفرصة تسنح لى لكى أستدير تجاه الضوء المنعكس من البحر فى الصباح، كان زوارى يرمقون الألوان المائية وهى تغدو صلبة كما لو كانت تغطى صفحة تمثال نصفى مصنوع من البرونز. وفى الحق أننى - على امتداد تلك الزيارة - كنت ألجأ مرارا إلى استخدام الرموز والتلميحات التى كنت أعزو الفضل فى استخدامها إلى البحر.

ومن الجهة التى كنت أجلس فيها كنت أرى بوضوح تام ملامح وجه القنصل اليونانى: الشعر البنى الداكن المتفرق والخفيف فى غزارته على الجبهة، والسِبلَّتين من الشعر المنسدلتين على صدغيه بحيث تسمحان بأن تكون ذقنه خالية من اللحية، والعينين اللامعتين المدققتين اللتين تنمان عن أن صاحبهما مراقب متوقد الذهن للأحداث؛ وكان ينبغى على القنصل أن يحتفظ بمسافة محدودة بعيداً عن وهج النار. ولم يكن (ضيفى القنصل) مشابها فى هذا الصدد لشقيقى **انطونيس**، (ذلك أن **انطونيس**) كان معتادا على أية حال أن يرتدى الزى الأوروبى، وكان يحلق جزءً من شعر صدغيه تماشياً مع الموضة.

ولقد غُلّف الحديث الدائر بيننا بالتلميحات إلى البحر. وكان القنصل من الكياسة واللباقة بحيث لم يسع إلى أن يصف بالكلمات الظروف التى كنا نعيشها والحالة الراهنة، كذلك لم يحاول أن يصحح لى أخطائى اللغوية التى ارتكبتها. ذلك أننى قررت أن أتحدث باللغة اليونانية - ولم يكن هذا التصرف من جانبى بناء على نزوة لا يمكن التحكم فيها - وكنت واثقاً من أنه سوف يرفع تقريرا عن هذا الأمر لحكومة

دليجيوريس Delêgiorês، كذلك لاحظت أنه لم يسألنى أين تعلمت اللغة اليونانية.
ولقد علمت فيما بعد أنه كتب فى تقريره عن هذه الزيارة بالحرف الواحد ما يلى:

«*وصل إلى الجزيرة وزير الحربية المصرى. وهو كريتى المولد وتركى النشأة منذ أن كان غلاما. وهو - كما يقولون - شقيق باباذاكيس الذى يقيم فى أثينا*. وهو يتحدث اللغة اليونانية بصورة مبسطة...» (ورددت فيما بينى وبين نفسى عبارته الأخيرة): «*كما يقولون*»... إذن فالأمر كذلك !

لقد كان كل ما قلته يتوامم مع السياسة المصرية ومع أخلاقياتى بوصفى فردا. ولقد أعربت له عن احتجاج بلادى على نقض الاتفاقية المبرمة بين الجانبين، وعلى الانتهاكات التى ارتكبت من جانبهم، وطالبت بتطبيق القوانين العسكرية؛ لأننى لم أكن أطيق الخروج على القوانين والأعراف من جانب المسيحيين أو من جانب المسلمين سواء بسواء. كما أننى كنت قد اتخذت قرارا بألا استدرج أو أنزلق إلى إغواء استخدام العنف، حتى ولو كان هذا من أجل قمع نشاط الثوار الفدائيين. (ولذا صرحت له) بأن ولى العهد - وهو أمر لابد للقنصل أن يكون على علم به - قد شعر بالغضب الشديد من جراء المذبحة التى حدثت للأسرى.. وأضفت قائلا إنه بغض النظر عن مثالب الجيش غير النظامى فإن بوسعى بالتأكيد أن أرى مزاياه، وهى مزايا من شأنها - فى بعض الأحوال المحددة - أن تعوض النقص البادى فى كل من التنظيم والطاعة. إذ كنت أرى بوجه خاص أن الثوار الفدائيين - من وجهة نظرهم الواضحة - قادرون على أن يطلبوا لأنفسهم حقا ما. وأن المسئولية من ناحية أخرى عن سوء الإدارة - هذا لو كان للإدارة وجود - تقع بحذافيرها على كاهل الباب العالى دون سواه. وأوضحت أن الحرب على أية حال ليست قضية من قضايا العدالة، أو أنها بالأحرى ليست وحدها قضية عدالة، وأضفت مازحاً أن هذا الأمر هو الألف والياء فى الدبلوماسية. وكان هذا القول من جانبى تمهيدا لكى أضيف إليه - على التو وبكل تأكيد وجدية - أننى أحارب فى صف الجانب الذى انحزت إليه ونذرت له نفسى، وأننى سوف أقدم على فعل هذا بكافة الطرق والوسائل

(المشروعة). وأردفت قائلا إن (فخامة) القنصل ربما كان على علم بالفعل بأننى جندى عالم بدقائق مهنتى وخبير بها، وأننى كنت محظوظا لأننى حاربت مع **إبراهيم باشا** فى سوريا، وأن على (سعادة) القنصل ألا ينسى أبداً أننى أتلقى الأوامر من قائدى الأعلى التركى. وقلت كذلك إننى سأكون مسروراً لو أن الأمور انتهت عند هذا الحد، ولكن يبدو أنه أمر مستحيل حيث إنه يتطلب مرور بعض الوقت، إلى أن يتحول حماس الانتفاضة الثورية إلى يأس. وأوضحت كذلك أن الدبلوماسية الأوروبية فى مجموعها تقريبا - كما هو معروف - تعارض مثل هذه القضية الراهنة. وختمت حديثى بقولى إننى مدرك تمام الإدراك أن القوم فى الجزيرة قد قاموا على قلب رجل واحد وحزموا أمرهم على القيام بالثورة. وأن هذا الأمر - حسبما أتذكر - يتكرر دوما فى هذه الجزيرة.

تجاذبنا أطراف الحديث بعد ذلك لبرهة من الزمن، بعدها نهضت من مكانى ورافقت ضيفى بنفسى حتى الباب. وفكرت فى أنه لو كان يحمل إلىّ رسالة من **أنطونيس** فإن الكلمات التى قلتها كانت خليقة بأن تدفعه إلى إعطائها لى. وكان هذا ما يجب على أن أقوله للقنصل فى مثل هذا الموقف، ولقد قلته بالفعل باللغة اليونانية.

وفى بدايات شهر أكتوبر اشتبكت فى صدام مع الثوار الفدائيين فى موقعة **استيلوس Stylos**، وكانت هذه بصورة أساسية هى معركتى الأولى ضدهم، ولم تباغتنى الدهشة أن أصادف فيها على جناح السرعة ما يصلنى برباط وثيق مع شقيقى **أنطونيس**. فلبرهة من الزمن بدا لى أن السكان المحليين كانوا يخططون لتطويق العثمانيين، وأن الجناح المكون من الأتراك قد أصيب بالهلع والذعر. وحاولت وأنا ممتط لصهوة فرسى أن أبث الشجاعة والإقدام فى نفوسهم ما استطعت، ولكن الثوار الفدائيين انقضوا علىّ وهم يصيحون بصيحات مرعبة، وأصبت على أثر ذلك برصاصة جرحت ساقى. وقلت فى نفسى إن شقيقى **أنطونيس** قد أرسل لى هذه الرصاصة بمثابة علامة. ولم يكن الجرح بالغ الخطورة، ومع ذلك فقد شرعت فى

الانسحاب من ميدان المعركة التى انتهت بمجرد أن حل الظلام. ولقد أجبر نقص الزاد والعطش طوال النهار الثوار الفدائيين على الانسحاب، وكانت هناك خسائر فى الأرواح فى كل من الجانبين.

ورغم أن الجرح الذى أصاب ساقى لم يكن بالغ الخطورة إلا أن ولى العهد بعث إلىّ بأفضل جراح من القاهرة، وهو جراح درس الطب فى أوروبا وعاد مؤخرا إلى مصر بعد انتهاء دراسته. ولقد ناشدت هذا الطبيب أن يعطى لى الرصاصة التى قام باستخراجها من ساقى. ذلك أننى فكرت فى أن شراء هذه الرصاصة قد تم بأموال شقيقى، وأن يدى شقيقى **أنطونيس** ربما قامت بِعَدٌ هذه الأموال المتداولة فى السوق ورقة ورقة، وأن كل قطعة من المعدن الذى صنعت منه الرصاصة قد لامست نظيرتها؛ فاستقر فى ذهنى أننى بملامستى لها فإنما ألامس فى ذات الوقت يد شقيقى.

وأثناء إمساكى للرصاصة فى راحة يدى، وصل الضابط المختص ليحيطنى علماً بأمر الجنرال **زيمفراكاكيس** Zymbrakakês، الذى وصل مؤخرا وتولى القيادة العليا لجيش المتطوعين المحليين فى مدينة **خانيا** وما حولها. وهصرت الرصاصة بين أصابعى وسرحت بأفكارى وتخيلت أننى قمت بدعوة شقيقى **أنطونيس** ليقوم بإسباغ حمايته علىّ من الرصاصة الجديدة (التى ستنطلق نحوى)، وكنت ساعتها أرتعد فرقا من احتمال وقوع أحداث مماثلة لهذه عن طريق المصادفة. فلقد كان من عادتى أن أتوق دوما إلى أن أعرف (تفاصيل) حياة خصمى قبل أن أنازله أو أتصارع معه، لأن مثل هذه المعرفة كفيلة بأن تهدينى إلى اتخاذ الحركة الصائبة، فيما لو أننى وقفت خلال ذلك النزال موقفا عسيرا. كنت أعتبر أن مثل هذه الخبرة حق من حقوقى، وكنت فى أعماقى - فى مثل هذا الموقف - أحس بالقطع بأنه من الأنسب لى أن أقوم بالمفاضلة بين مسارين للحياة يحددهما الحظ أو المصادفة. ذلك أن التقاء هذين المسارين - أو بالأحرى الظروف التى يتم فيها الالتقاء بينهما - قد

جعلت من (هذا الحق الناجم عن الخبرة) أمرا بالغ الأهمية، لدرجة أنه يتجاوز صعودا كل طرائق الاتصال بين البشر. فكل مسار منهما كان يقبض بغتة بكلتى يديه على حياة المسار الآخر، مثلما يقبض الإنسان بيديه على قطعة من قطع العملة ذات القرش الواحد، أو كما يمسك بخرطوش رصاصة (فارغة) لا قيمة له. ولم يسمح لى كل ما فكرت فيه عن (مسارات) حياتى بأن أبقى بغير اكتراث إزاء الجانى مقترف الفعل، الذى سوف يقدر له أن يسجل اسمى بصورة قاطعة فى القصة الواقعية بحذافيرها وبأسمائها ومواقعها. ولو أننى غصت أكثر إلى الأعماق فسوف أجد أن الحكايات التى كانت تروى عن خصومى، قد ساعدتنى على أن أحصن نفسى ضد الخوف المشروع الذى يحس به كل جندى من جنودى. وأعتقد أننا تعارفنا دائماً أنا وجنودى، وأن كل واحد منا قد عرف رفيقه، وأن كل جندى منهم قد مد يد العون لزميله خلال الليالى الطويلة لفترة مكوثى فى الجزيرة.

ولقد علمت أن تعيين **زيمفراكاكيس** من قبل الحكومة اليونانية فى هذا المنصب لم يتم بسهولة أو بدون عوائق، رغم أن شقيقه كان وزيرا للشئون الحربية فى بلاد اليونان. كما فكرت فى احتمال أن يعرف كلاهما شقيقى **أنطونيس**. كما علمت أيضا أن والدهما قد تم اغتياله فى مدينة **خانيا** منذ سنوات عديدة بوصفه عضوا فى جمعية الصداقة* Philikê Etaireia، وأن هذا الاغتيال قد حدث فى ذات الوقت الذى لقى فيه والدنا مصرعه على أرض الهضبة، وغدونا على أثره أنا وشقيقى أسيرين. وقد قدر للجنرال **زيمفراكاكيس** أن يظل على قيد الحياة وأن يدرس العلوم العسكرية فى مدينة **نافبليون**، ولكنه اعتقل أيضا وأودع السجن لفترة قصيرة بسبب اتهامه بالخيانة وبالتآمر ضد الملك **أوثون**. وكانت سفينة (**زيمفراكاكيس**) المسماة **بانيلّينيون** Panellênion قد رست فى ميناء جزيرة **سيروس**، وكان الربان الذى يقوم بقيادتها هو **ساختوريس** Sachtourês؛ وما

* جمعية تشكلت إبان الصراع اليونانى - التركى وكانت تهدف إلى تحرير بلاد اليونان من سيطرة الأتراك العثمانيين عليها.

أن هلت غرة الشهر حتى ألقت بمرساها فى ميناء **لوترو اسفاكيون** **Loutro Sphakion** بالجزيرة. وكانت هذه الباخرة تحمل - مع الذخيرة والزاد الوفير - المقاتلين المتطوعين، ولكن لم يتسن لها أن تفرغ كل شحنتها من الذخيرة والزاد، إذ رصدتها سفينة من سفن الحراسة التركية، وأجبرتها على أن ترفع مرساتها وتقلع فى عرض البحر من جديد، ولكن بعد أن هبط منها المقاتلون المتطوعون وقائدهم الأعلى، ووحدوا صفوفهم مع قوات الثوار الفدائيين.

لم تنقض سوى أيام قليلة على استخراج الرصاصة من ساقى، ومع ذلك فقد شاركت - على الرغم من الاعتراضات التى أبداها الطبيب - فى المعركة التى دارت رحاها فى بلدة **فافى** **Baphê** ضد خصمى **زيمفراكاكيس**. وكما أصبح معروفا فيما بعد، فبينما ألح قواد المحاربين المحليين على اتباع خطة مؤداها أن أفضل موقع للمعركة هو المرتفعات الواقعة أعلى بلدة **فافى** حيث إن حشدا كبيرا من قواتنا كان يقترب منهم، أصر **زيمفراكاكيس** ومن معه من المتطوعين على أن تدور رحى المعركة فى البقعة التى قدر لهم أن يوجدوا فيها، رغم أن عددهم لم يكن يتجاوز الخمسمائة مقاتل بحال من الأحوال. وبالتالى قد حاقت الهزيمة إجمالا باليونانيين، سواء كانوا من المحليين أو من المتطوعين، ولم ينج منهم من القتل سوى من استطاع الهرب بسرعة؛ وهكذا فقد لقى كثير من المتطوعين مصرعهم فى أول معركة لهم على أرض الجزيرة.

وفى تلك الأمسية هطل مطر غزير بصورة تدعو للذعر، واستمر يهطل على هذا النحو طوال الأيام التالية. فأما الجيش الإمبراطورى العثمانى فقد آوى إلى معسكر فى بلدة **فافى**، وأما المقاتلون المتطوعون فقد عضهم الجوع بنابه وأحسوا بالبرد القارس، فتفرقوا وتشتت شملهم فى مجاهل الجبال والمرتفعات. ولقد نما إلى علمنا أن رهطاً ممن قدرت لهم النجاة من طلقات الرصاص ومن المطر الغزير، تجمعوا عند مَنْحَل كان يمتلكه أحد المواطنين كى يتجاذبوا هناك أطراف الحديث. كما علمنا أن **زيمفراكاكيس** ونفر من قادة المقاتلين المحليين قد غادروا هذا المكان والضيق يملأ

جوانحهم، دون أن يعرفوا ماذا يتعين عليهم فعله، وأن آخرين قد قفلوا راجعين إلى منازلهم. ولقد سرت شائعات وأقاويل تعكس مظاهر القنوط واليأس، مؤداها أن أفراداً من أسر المقاتلين كانوا يجوبون كهوف الجبال وهم عراة، بلا مأوى يأويهم ودون طعام يقتاتون عليه. وكان اليأس قد استبد بهؤلاء لعدم معرفتهم بالموعد الذى سيعود فيه الرجال المقاتلون إلى منازلهم، هذا إذ قدر لهم أن يعودوا. واشتد بهم الجوع الذى بدأ يفرى أمعاءهم، وتوقع الناس أن الأمر سوف يسوء أكثر من هذا خلال العام القادم، لو أنهم لم يتمكنوا من زراعة الأرض. وبدأت مثالب الجيش المحلى تتبدى لهم سافرة، إذ ترددت شائعات مؤداها أن الجنود قد لاذوا بالفرار من فصائلهم دون إذن قادتهم، للبحث عن كسرة من الخبز يقتاتون بها، أو يرسلونها إلى ذويهم الذين استبد بهم الجوع فى الكهوف التى آووا إليها. فلقد اقترب فصل الشتاء، وهو الأمر الذى سيزيد موقفهم صعوبة وهم لائذون بشعاب الجبال.

وطفقنا نتدارس فيما بيننا الشائعات والأقاويل، وكان من رأيى أن الثوار لم يصلوا بعد بفعل الإنهاك للدرجة التى تدفعهم إلى التخلى عن سلاحهم. وعلى أية حال، فقد استحسنت كل مسعى للتصالح، ومن هذا المنطلق وافقت من فورى على (وجهة نظر) **مصطفى باشا**. فقد كان القائد الأعلى يدعم وجهة النظر القائلة بأن هذه هى اللحظة المناسبة لإعلان العفو العام، بشرط أن يقوم الثوار الفدائيون بإلقاء سلاحهم خلال خمسة أيام وأن يعلنوا خضوعهم واستسلامهم؛ ولقد أذعن كثير من سكان السهول لهذا. ثم بعثنا رسولا من لدنا بهذا المعنى إلى بلدة **اسفاكيا Sphakia**، وطفق السكان هناك يتناقشون فيما بينهم عن الوعد الذى تم إعلانه بالعفو العام، وعن الموافقة التى تم منحها للمقاتلين المتطوعين كى يعودوا بمقتضاها لبلدان مسقط رأسهم؛ إذ كان كثير منهم بالفعل يبحثون عن طريقة يرجعون بها إلى بلادهم. وكان الناس يرون أن إنجلترا مازالت متشبثة بموقفها المعارض، وأنه لا توجد فى الأفق أية دلائل تبشر بالتغلب على مشكلة نقص الزاد على المستوى المحلى، وأن كل شىء باق على حاله فى انتظار المؤتمر الذى سينعقد بمبادرة من جزيرة **سيروس**، هذا لو نجحت السفن اليونانية فى كسر الكماشة التى كنا نطوقها بها.

وفى يوم من الأيام التى هطلت فيها الأمطار بغزارة بالغة، لدرجة أنه لم يعد بوسع المرء أن يتبين ما أمامه من أشياء لأكثر من عشرين خطوة، ترددت أنباء مؤداها أن جيشنا قد صعد إلى مناطق المرتفعات الجبلية القائمة فى تلك المنطقة. ولقد لجأت النساء والأطفال إلى شعاب الجبال هرباً من الإعصار والوابل المنهمر من الأمطار. أما المقاتلون فلم يعودوا بقادرين على معرفة ماذا يتعين عليهم أن يفعلوه، لأن زناد البنادق لم يعد يقدح النار اللازمة لإطلاق الرصاص؛ ولذا فقد تبعثر هؤلاء بدورهم فى شعاب الجبال. ولقد طرأت على ذهن **زيمفراكاكيس** فكرة نسف كنيسة كانت مليئة بالذخائر والأسلحة حتى لا تقع فى أيدينا. وكان على وشك أن يفعل ذلك لولا أن أفلح أحد المقاتلين المتطوعين فى إقناعه بأنه يستحيل علينا (أى على الجانب التركى) - فى مثل هذا الجو العاصف ذى الأمطار الغزيرة - القيام بأية محاولة مهما كان شأنها؛ ولهذا كله قرروا أن يستسلموا. ولقد طلب وجهاء القوم وشيوخهم - عن طريق توقيعاتهم - من **زيمفراكاكيس** وجنوده مغادرة المناطق التى يعيشون فيها. كذلك ألقت السفينة **بانيلّينيون**، بقيادة القبطان **أورلوف**، مرساها فى أحد الخلجان دون أن تدرى بحقيقة ما يحدث، وكانت تعتزم أن تفرغ هناك حمولتها من الدقيق. غير أن سكان تلك المنطقة أجبروا السفينة على أن تولى وجهتها شطر منطقة أخرى كى تفرغ فيها حمولتها. أما الثوار الفدائيون، الذين كانوا فى تلك اللحظة يقيمون فى منازلهم مع أسرهم فى أماكن متفرقة من الجزيرة، فلم يبدوا اكتراثهم حينما علموا بتلك الأنباء معربين عن رغبتهم فى عدم الالتحاق مرة أخرى بفصائلهم أو كتائبهم. كما أعلن كثير من المناطق الشرقية فى الجزيرة استسلامها.

أما نحن، فقد شرعنا فى عبور المناطق الجبلية فى تحرك منتظم وصفوف متراصة. ولم يكن **مصطفى باشا** مصرا على أن يسلم المقاتلون أسلحتهم، وذلك لأنه كان يعرف معرفة وثيقة - منذ عهد بعيد - (معظم) السكان المقيمين بهذه المناطق، ولذا فقد اكتفى بما صدر عنهم من إعلان الاستسلام.

وتركت العنان لنفسى كى أتشبع وأغتسل بأعاصير الخريف، غير أنه لم يكن بمقدورى أن أمنع نفسى من الاكتراث بقضية النساء والأطفال الذين لاذوا بشعاب الجبال، واختفوا داخل الكهوف كى لا يلحق بهم الأذى والهلاك؛ فلم يك هذا مبتغاى بحالٍ من الأحوال. غير أن هؤلاء (المستضعفين من الولدان والنساء) لن يعرفوا على الإطلاق حقيقة ما أبتغيه أو ما أعتزمه، ولكنهم بالقطع سوف يعلمون حق العلم أن هناك إنسانا واحدا - حتى ولو كان قائداً لحملة عسكرية - كان عاجزاً عن كبح جماح جنوده عن بكرة أبيهم.

كما أن الأمر لم يك قاصراً على هذا وحده، فلقد رأيت أننى - طوال تلك السنوات العديدة التى ولت وانقضت، والتى خضعت فيها للأسر بصورة من التعاسة يصعب على النفس التغلب عليها - كنت أتخيل عن طريق صور بالغة الرقة والهدوء المكان الذى ضاع منى والذى فقدته وأنا غلام. وكنت أتخيل أيضاً أن الروائح والألوان والأصوات وسطوح الأشياء من حولى كانت تمس جسدى، وكانت تلتقى بروحى وكأنها كيان كلى متناغم ومتناسق. كانت الأمور كلها بالنسبة لى جميلة ومتناسقة النغم، مثل اللوحات المرسومة التى نراها فى متاحف أوروبا الغربية، أو مثل الفردوس المسيحى الذى كنت أحلم به وأتخيله وأنا طفل صغير. إذ إن سنوات عمرى فى مصر لم تحرمنى أبدا من ذكرى ذلك الاستبصار المسيحى، فكل حياة من الحياتين اللتين عشتهما كانت تتمسك بالديانة التى تخصها، بغير أن تتناقض معها وبدون مبررات صارخة عالية النبرة؛ ولم تكن هناك صيغة أخرى يمكن التعبير بها عن ذلك الخلاف الجوهرى بين هذين المنهجين من مناهج الحياة. فلقد كنت فيما مضى ذلك الغلام شبه العارى الذى كان يشق بمعوله قنوات المياه فى بساتينه ثم يغلقها، والذى كان يهمس بعبارة «*رحمتك يا ربى!*». ولم يكن ذلك الغلام ينشد من وراء نطقه لهذه العبارة أن يكفر عن خطاياه، بقدر ما كان يتغنى بها كتعويذة أو لكى يتذكر بها تراثاً من المعرفة. (كذلك، كنت أنا الشخص ذاته) الذى كان يقف خاشعا

على سجادة الصلاة الحريرية كى يؤدى صلاته الإسلامية*. غير أنه لم يكن ينبغى علىّ من خلال افتقارى للشجاعة أن أحصر المشكلة فى هذه النقطة وحدها.

لقد غدوت الآن أتطلع حولى لأشاهد الصخرة الرمادية والشروط التى تفرضها الحرب. حقاً إن الرصاصات التى أطلقها شقيقى **انطونيس** قد جرحت ساقى وأدمتها، ولكن المشكلة لا تكمن فى هذه الحقيقة، حيث إن الرصاصات التى أطلقها **انطونيس** قد جرحت بالفعل سحر الطبيعة الذهنى جرحاً بالغاً، كما لو كان قد رشق رصاصة مميتة للأبد فى (سيقان) أشجار الزيتون. لقد انتابتنى رعدة حينما سيطرت علىّ فكرة مؤداها أن صورة الطبيعة، التى ظللت أحتفظ بها مصونة داخلى لسنوات طويلة،قد قدر لها أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بين ذراعىّ.وأيا كان الأمر، فمن الواضح أننا كنا قد أطلقنا الرصاصات الأولى لنا معاً فى لحظة واحدة، حينما قمنا (ونحن مازلنا غلامين) بسرقة سلاح والدنا من مخبئه وتسلقنا الجبل.كنا فى فصل الربيع، ولم يكن الطقس شديد البرودة، فقمنا بإطلاق الرصاص داخل أحد الكهوف، أو بالأحرى فى فجوة غائرة بين الصخور حتى لا يسمع دوى إطلاق الرصاص فى القرية. وأثناء هبوطنا من الجبل، شرعنا فى رفع عقيرتنا بإنشاد أناشيد الأبطال الشجعان،معتقدين أننا بما فعلناه قد تفوقنا عليهم وبززناهم. (وكنا نتخيل) - رغم انتشار الظلام الدامس حولنا - أن هناك ثورة خفية قد نشبت فى كل أنحاء الجزيرة، وأنه ما أن يبزغ نور الصباح حتى تكلل جهودنا بالنصر المظفر. ومع ذلك فقد استاء والدنا من مسلكنا، وتشاحن معنا على اعتبار أن العدو كان بمقدوره أن يسمع صوت إطلاق الرصاص. ثم أخبرنا بأنه كان علينا أن نحافظ على السلاح،وأنه لم تكن هناك ضرورة لأن نسرقه، ونصحنا بالتيقظ والصبر والاقتصاد فيما نملك من بارود.

* فى الأصل اليونانى «صلاته العربية». ويبدو أن المؤلفة التى خلطت فى بعض الأحيان - كما سبق أن لاحظنا - بين الأتراك العثمانيين وبين العرب، تخلط هنا أيضاً بين ما هو إسلامى وما هو عربى.

فإذا كانت رصاصة شقيقى **أنطونيس** قد جرحت جرحاً مميتاً حتى الموت الطريقة التى كنت أتذكر بها الطبيعة، فإن من المؤكد أنها أدمت كذلك ذكرى الطبيعة التى كان يحافظ عليها **أنطونيس** بدوره. فحينما كنا غلمانا لم يقدر لنا أبداً أن نواجه الطبيعة بوصفها أمراً يمكن أن تفكر فيه على أنه مكان، أو تنشد رؤيته من جديد على أنه صورة.. كانت (الطبيعة) بالنسبة لنا تعنى أعمالا هينة خفيفة الوطأة على النفس رغم كثرتها، كما كانت تعنى طائفة من الألعاب.. كانت (للطبيعة) قصصها الخاصة بها والتى تعلمناها كلها. وكان مقدرا **لأنطونيس** أن يحظى دون جدال بطريقة خاصة به يتذكر بها مثل هذه القصص. وطالما سألت نفسى عن مدى مماثلة هذه الطريقة لطريقتى، وكنت واثقاً من وجود تشابه بين الطريقتين فى وجوه كثيرة؛ وبالتالى فلابد وأن قدرته على التخيل قد جُرحت فى الصميم. وفكرت فى أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى أستطيع أن أرد بها إليه رصاصته دون أن أقدم على إيذائه، وهى أن أردها إليه بابتسامة مريرة تنم عن التواطؤ أو عن الاشتراك فى اقتراف ذات الإثم.

وفى ذات يوم - كانت السحب فيه كثيفة ممطرة حواشيها، وكان الضباب يلف بدخانه سريع الحركة أشجار السنديان والتين - شاهدت على حين غرة الغلام الذى كان يعيش ذات يوم فى الجزيرة*، ولاحظت أنه كان يتفرس فى محياى حينما غدونا وجهاً لوجه. (وخيل إلى آنذاك أن) الغلام كان يقف تحت الأغصان العارية على أمل أن لا تطوله الأمطار، وأنه كان يحملق فى وجهى من خلال كل شجرة من الأشجار. وما أن اقتربت منه حتى لفه الضباب بدخانه وطوى معه الشجرة. فزادنى هذا إصرارا على متابعته لأنه كان يهمنى أن أسأله أين يوجد والدانا، ولماذا - رغم أنه غلام صغير السن - ابتعد عنهما فى هذا الوقت العصيب. ولكن الجرح الذى أصاب

* يتخيل الفريق إسماعيل باشا فى طيف هذا الغلام الذى شاهده، صورته عندما كان غلاماً يعيش فى هذه الجزيرة قبل الأسر. وربما كان يتخيل فى طيفه صورة شقيقه أنطونيس الذى كان آنذاك غلاماً مقارباً له فى السن.

ساقى لم يتح لى أن أواصل العَدْو خلف الصبى الذى اختفى عن الأنظار، كى يجوب - فيما يبدو - أنحاء الجبال التى اتخذها مأوى له وملاذا؛ لذا فقد طفقت عائدا أدراجى مصحوبا بجيشى إلى مدينة **خانيا**.

الفصل الثانى

أخذت أذرع أرجاء مكتبى جيئة وذهابا متحاشيا كلية النظر إلى النوافذ. كان القلق يعصف بى خشية أن يغطى الدم الغزير (سطور) تلك الأحداث التى كنت أقوم بإملائها على الكاتب الرسمى، والتى لن أكون قادرا بعد على تذكرها. ولم يدر بخيالى قط أن **إبراهيم باشا** كان مستلقيا على الأريكة وهو يدخن حشيشة النسيان، وكان يحاول جاهدا آنذاك ألا يلوث نسيج الأريكة المخملى بالأوحال الجافة الملوثة بالدم*. ولبرهة من الوقت اعتقدت أن من هو مستلقٍ على الأريكة رجل عجوز غريب عنى. وانتابنى ضيق شديد من افتقارى للحصافة والتبصر، لأننى كنت منهمكا فى إملاء التقرير، ولأننى كنت قد أصدرت أوامرى (للحراس) بأن يدعونى بمفردى مع الكاتب الرسمى الخاص بى، دون أن أنتبه - عندما دنوت منه وقد اكتست ملامحى بتعبير مشوب بالاضطراب - إلى أنه (طيف) **إبراهيم باشا**. فلقد (لاحظت أن) الشيخوخة قد داهمته بصورة يصعب عليه أن يحتملها، وكأنه ظل يحيا باستمرار (إلى جانب سنوات عمره) كل تلك السنوات الطويلة التى حزنت فيها عليه، أو كأن الشيخوخة بدورها كانت ابتلاء له و عقاباً؛ فالحق أننى رأيته مشوها.. بل يكاد أن يكون دميما.

واصلت إملاء التقرير، وعرضت فيه للمعلومات التى قمت بجمعها عن الكولونيل **كورونايوس** Korônaios، الذى وصل منذ فترة قليلة إلى مدينة **بالى ريثمنون** **Bali Rethymnon** على متن زورق يونانى سريع الحركة يحمل حشودا من المتطوعين الجدد. ولم تجسر سفينة الحراسة (التركية) التى رصدت الزورق على

* سبق أن أوضحنا أن بطل الرواية، وهو **الفريق إسماعيل باشا**، كان يتخيل فى كثير من الأحيان أنه يرى طيف صديقه الحميم **إبراهيم باشا** وأنه يحادثه، رغم أن **إبراهيم باشا** كان قد رحل آنذاك عن الحياة منذ سنوات سابقة.

الاقتراب كثيرا من الشاطىء. وكان **كورونايوس** هذا مشهورا بوصفه رجلا بالغ الجسارة وفائق الخبرة فى الحرب، كما اشتهر بصفة أخرى تستحق التنويه، وهى أنه كان واحدا من أتباع (الثائر) الإيطالى **غاريبالدى**. ولقد تم تعيينه فى مدينة أثينا قائدا أعلى للضباط المحليين فى المناطق التابعة لمدينة **ريثمنون**. أما أرومته فتعود أصولها إلى جزيرة كيثيرا، رغم أنه ولد فى مدينة **اسطنبول** وتلقى العلم فى جزيرة **كيركيرا Kerkyra** (كورفو الحالية). ولقد شارك وهو مازال فتى صغير السن فى ثورة الاستقلال، ثم أصبح بعد ذلك جنديا محترفا وشارك فى كافة الحروب التى دارت رحاها فى شرق البحر المتوسط. ولقد ذاعت شهرته بعد خوضه غمار الحروب السورية، ولكننى لم أكن أعرف متى قدر له أن يخوض غمارها. ودار بخلدى أنه لم يحارب (مثلى) قط من أجل الباب العالى ولا من أجل مصر. ذلك أنه كان واحدا من أعتى الثوار ضد الملك **أوثون**، ثم ألقى القبض عليه ووضع فى السجن بسبب ذلك مع القواد الآخرين فى مدينة **نافبليون**. وفى داخل السجن قام بتشكيل تنظيم من بين المسجونين مناهض لحكم الملك **أوثون**، ونجح أفراد هذا التنظيم فى احتلال مدينة **نافبليون** والسيطرة عليها وإدارة دفة الأمور فيها، إلى أن وصل الجيش الملكى إليها ودارت بين الطرفين معارك دامية. ولقد اضطر الملك إلى العفو عنهم ثم أصدر قراراً بعد ذلك مباشرة بنفيهم. وأثناء الفترة الانتقالية بين عهد **أوثون** وخلفه **جيورجيوس** - الذى وفد إلى بلاد اليونان بعده ببرهة من الزمن - تمكن **كورونايوس** من تنظيم جبهة الحماية الوطنية وإدارتها، ومن بناء جيش مؤلف من عصبة سكان الجبال.

غير أن هذا الرجل المحنك والخبير فى شئون الحرب قد ارتكب خطأ لا يقع فيه إلا شخص غر قليل الخبرة، وإن كان هذا الخطأ فيما يبدو أمراً لا سبيل إلى تجنبه. فلقد حاول بدافع من الحماس أو التسرع احتلال مدينة **ريثمنون** الصغيرة، رغم أن ضباطه تحدثوا معه عن المدى القصير (لطلقات) بنادقهم وعن نقص الذخيرة اللازمة للحرب؛ وخلال هجوم شنه الأتراك لم يجد **كورونايوس** إلى النجاة سبيلاً

إلا بامتطاء جواد استعاره من أحد رجاله. ثم زار **كورونايوس** بعد ذلك (منطقة) **أركاذى Arkadi** واتخذ من الدير القائم هناك مكاناً يجتمع فيه القادة، وحاول أن يعيد تنظيم سير الأمور فى المنطقة. ولم يتوقف سيل الدماء حتى هذه اللحظة فى القرى، ودارت المعارك سجالاً بين الطرفين واقتسم الجانبان نتائجها. ولقد انتشرت شائعات عن **كورونايوس** مؤداها أنه كان يسعى لمد يد المعونة إلى **زيمفراكاكيس** فى بلدة **فافى**، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. وكانت هناك منافسة ضارية بين الرجلين، ولكنهما تقابلا رغم ذلك واتفقا على أن يجدا طريقة يتمكنان بها من دعم حركة الثوار الفدائيين التى أوشكت أن تحتضر قبل أن تبدأ.

ومنذ شهر سبتمبر توافد كثير من سكان المنطقة ولاذوا بالدير المحصن، على أمل أن تقدر لهم النجاة من الويلات والأخطار. وعلى الرغم من وجهة النظر التى أعرب عنها **كورونايوس** - ومؤداها أن موقع الدير وأسواره لا يقدران على تحمل هجوم جيش منظم كبير العدد - إلا أن النساء والأطفال عزفوا عن اللجوء إلى الجبال أو الاحتماء بالوهاد والوديان. ثم حل شهر نوفمبر فأقدم **كورونايوس** على طرد عائلات كثيرة، ولم يبق فى الدير سوى العائلات التى تربطها صلة حميمة بالقس الراهب **جافربيل Gabriêl**. ورغم نصائح القائد **كورونايوس** له بهدم طاحونة الهواء والحظائر الواقعة عند مدخل الدير، إلا أن القس الراهب (**جافربيل**) لم يقم بتنفيذ ذلك لثقته الشديدة فى قدرة أسوار الدير على التحمل، وفضلاً عن ذلك فى قدرة الله التى لا تضارعها أية قدرة أخرى. ولقد ترددت أقاويل مفادها أن **كورونايوس** قد غضب على أثر ذلك أشد الغضب، وأعلن أنه جاء إلى (**كريت**) ليضحى بنفسه من أجل الوطن، لا لكى يحتجز فيها أو يظل حبيساً داخلها، كما قالوا إنه رحل عن المكان وعين فى مكانه نائب القائد **ذيماكوبولوس Dêmakopoulos**. ولقد تبادل (**ذيماكوبولوس**) مع القواد الآخرين الذين كانوا معه فى الدير الرأى والمشورة، وارتأوا على أثر ذلك أن يقوموا بتحصين المكان وأن يحفروا حوله الخنادق، وأقدم **كورونايوس** على مداهمة

القرى المجاورة من أجل تكوين جيش، كما ناشد المجلس المحلى أن يصدر قراراً بتجنيد غير المتزوجين؛ غير أنه لم يعثر على نفر من المجندين إلا بصعوبة بالغة. ذلك أن القوم فى الجزيرة كانوا منهمكين آنذاك فى جمع محصول الزيتون، وفى بذر حبوب التقاوى فى الحقول، وفى رعى الأغنام والماشية، فضلاً عن أن الموفدين من لدن **مصطفى باشا** كانوا يجوبون القرى مطالبين السكان بالخضوع والاستسلام.

أما أنا فقد سرت فى معية القائد الأعلى، وتوقفنا بجيش كثيف العدد خارج الدير. وكانت القيادة العامة قد أسندت إلى **سليمان باشا**، شقيق زوجة القائد الأعلى، وبالتالى فقد أرسلنا فى التو رسالة طلبنا فيها من المحاصرين أن يقوموا بطرد اللجنة الثورية ومنعها من عقد اجتماعاتها مرة أخرى داخل الدير. وعندئذ كتب نائب القائد الأعلى (**ذيماكوبولوس**) إلى (رئيسه) **كورونايوس**، يلتمس منه أن يصدر له أمراً يخيره فيه بين البقاء داخل الدير أو مغادرته. وفى تلك الأثناء قام نفر قليل من المسلحين المحليين الذين يقطنون المناطق المجاورة باحتلال عدة مواقع خارج الدير. كذلك لم تتمكن إحدى السفن المحملة بالمقاتلين المتطوعين من الاقتراب من الجزيرة بسبب هياج البحر واضطرابه.

ولم أكن واثقاً تمام الثقة مما كنت أرغب فيه حينما كنت أطأ بقدمى درجات السلم الفضية باحتراس، فالجرح الذى أصاب ساقى قد بدل حركاتها الآلية إلى مجموعة محسوبة من الحركات المحدودة التى كنت أؤديها بليونة ورفق. وكنت كلما هممت بامتطاء فرسى يدور بخلدى أن (شقيقى) **انطونيس** هو الذى يقف حجر عثرة فى طريقى ويعوق حركتى.

أصدرت أوامرى بألا يرافقنى أى شخص حتى ولو من بعد، وشققت طريقى بمفردى وسط معسكر الجيش العثمانى وأنا متدثر بمعطفى، لأن الجو كان قارس البرودة. ثم توقفت عند أحد التلال المواجهة للدير، وأخرجت منظارى المقرب وأخذت أتفحص من خلاله مبانى الدير؛ وكنت خلال سنوات طويلة مضت أتفحص بنفس

المنظار المقرب مواقع المعارك السابقة. ولكن هذا المنظار المقرب كان يحمل لى الآن لوحة غير عادية تظللها المشاعر ثقيلة الوطأة على النفس. ولم أكن فى الحقيقة قد نسيت سحب شهر نوفمبر، ولكن الظلال التى كنت أراها آنذاك لم تك هى بذاتها ظلال هذا الشهر. وطفقت أتساءل عن السبب الذى جعلنى أنجذب بمثل هذا الانجذاب لرؤية مشهد لأحد المبانى قبيل الويلات التى سيتعرض لها! وعن السبب الذى دفعنى لأن أتحرق شوقاً لأطبع صورته فى ذاكرتى كما لو كان شخصاً (من لحم ودم)! (وفكرت فى أنه ينبغى على) أن أصف يوماً ما لشقيقى **أنطونيس** كيف كان الدير يبدو ماثلاً للعيان فى هذه الساعة، وكأنه كان وصفاً لموضع فى خيالى أصابه جرح دام، رغم أنه مع ذلك لن يتماثل أبداً فى الحقيقة مع أوصافى له. ولقد تملكنى الخوف من أن مثل هذا الوصف سيقدر له أن يقترب فى تماثله مع الحدود القصوى لطقس الاعتراف المسيحى. غير أننى لم أرغب فى أن أمنح تصرفى مثل هذه النبرة، ولم أك بقادر رغم ذلك على أن أجرد الأشياء من ماهيتها، ولا أن أجرد مشاعرى من اندفاعها وحدتها. ظللت أتطلع إلى الدير لبرهة من الزمن كما لو كنت ملزماً بالبحث عن ما هو خفى خلف أركانه وجدرانه المشيدة، وعن ما هو ظاهر وباد للعيان منها فى نفس الوقت.

كانت أسوار الدير تضم بوابتين كبيرتين وباباً صغيراً، فلقد دفعت الرغبة فى الانطواء والشعور بالخوف (المحاصرين) إلى بناء الجدار الخارجى بحجم أكثر ضخامة وسمكاً، وكان هناك على امتداد هذا الجدار صفان من النوافذ المدعمة بقضبان متشابكة من الزرد. ودار بخلدى أن العيون (التى اعتادت أن تنظر من خلال مثل هذه النوافذ) لم يكن مقدراً لها أن تنعم أبداً بأحلام هادئة. أما بالنسبة للفناء الداخلى للدير فقد كانت الأسوار زاخرة بعشرات الأبواب التى تفضى إليه، وكان كل باب منها يمثل غرفة قائمة بذاتها. ولم يكن من العسير علىّ أن أحصى عدد صوامع الرهبان الموجودة فى هذا الطابق العلوى وكذا الطابق الواقع تحته على مستوى الفناء، وعدد القلآيات المخصصة لمن يقومون بخدمتهم. (كما كان من

السهل على كذلك) أن أحصى عدد مخازن الزيت، ومستودعات النبيذ والعسل، وسروج الخيل وعدتها، وحظائر الخنازير، وأقنان الدجاج، والأقبية، والمائدة والمطبخ، وجناح الضيوف، ومخازن براميل البارود. وكانت هناك شجرتان أو ثلاث شجرات من أشجار السرو ترتفع ذؤاباتها الخضراء فوق المربعات البيضاء ومتوازيات الأضلاع التى تتكون منها مبانى الدير. وفى وسط باحة الدير تقريباً شاهدت مبنى كنيسة «**التجلى**» Metamorphosê ذات الطراز «**الباسيليكى**»، وذات الجناحين اللذين يضمان معاً تمثالى القديس **قسطنطين** والقديسة **هيلينى**؛ وكان هذان التمثالان يقفان منتصبين عند نقطة التقائهما بالبرج المزدوج لناقوس الكنيسة. وعن طريق منظارى المقرب تمكنت أيضاً من أن أتبين بوضوح الأقواس المعمارية القوطية ذات القمم المسننة، والأكاليل الزخرفية المصممة وفق طراز عصر النهضة، والحلى المعمارية ذات **الطراز الكورنثى**، والتى كانت تزين عناقيد الكنائس. وعند ذاك انقبض قلبى، وكان السبب فى ذلك أن عبارة: «*أنقذنى، يا ربى!*» كانت أول عبارة اخترقت شغاف قلبى فى حياتى الأولى، وكان مثلها كمثل شوكة أخرى فى الفؤاد. وتناهى إلى سمعى على حين غرة صوت السقف المزدوج للكنيسة ذات **الطراز الباسيليكى**، وهو يردد بقوة صدى صلوات النساء اليائسة وصدى ضراعة الأطفال، فى الوقت الذى كان فيه الرجال المدججون بالسلاح يعبرون الفناء المقفر على فترات، وهم يحثون الخطى أو وهم يجرون.

وكان الدير قد هيمن على أبصارى بمثل ما شدتها من قبل آخر صورة وقعت عليها عيناى للهضبة مسقط رأسى؛ وكنا آنذاك فى شهر نوفمبر. حافظت على منظارى المقرب وعضضت عليه بالنواجذ، لأن المشهد الذى كنت أراه من خلاله قد أسرنى وخلب لبّى، للدرجة التى لم أعد قادراً فيها على إبداء أية مقاومة. ترجلت من على صهوة جوادى دون أن أفكر فى الجرح الذى أصاب ساقى، ورغم الألم العنيف الذى سببته لى تلك الحركة المفاجئة، فلقد تكومت على نفسى فوق الأرض المشبعة (برائحة) الخريف كى أكون أكثر اقتراباً. وألصقت أذنى بالثرى على أمل أن أسمع

من بين أصوات النساء الرقيقة صوت (والدتى)؛ ذلك أن من المحتمل أنها كانت تنشد صلواتها بالمثل داخل الكنيسة. ولكن لم يقع عليها بصرى فانخرطت فى بكاء مرير مثل طفل صغير، ضاعت منه أمه وسط زحام البشر.

(وخيل إلى) أن طيف (**إبراهيم باشا**) قد وفد إلىّ فى تلك اللحظة التى لم أكن أنتظره فيها على الإطلاق، ولكنه وفد على أية حال .. (وخيل إلىّ أنه) جاء يشع بالوسامة التى كنت أعشقها فيه .. جاء **إبراهيم باشا** إذن! (وخيل إلىّ أنه) جلس بجوارى على الثرى، ووضع يده على منكبى وهو يمد بصره على الدوام نحو الدير. ولكننى رغم ذلك أحسست نحوه بالكره فى تلك اللحظة! وكانت هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها تجاهه بالكره على وجه الإجمال، وذلك لأنه لم يشأ أن يطّلع على (تفاصيل) خريف عمرى الذى ولى وانقضى، مع أننى كنت قد وهبته له. كنت أرى أن قَدْره ومكانته أبعد منالاً بكثير من كيانى العثمانى، وكنت أراه بالغ البأس فى وسامته التى يعرفها الجميع، وقرير العين راضياً عن الهيئة التى كان بعض الأوروبيين يرسمون صورته عليها وهو مرتد لبزته المزركشة. أحسست بالكره نحوه لأنه فى الوقت الذى كان يرجع فيه من معاركه منتصراً، كان يعجز عن استثمار رصيده العسكرى الكبير على النحو الأمثل؛ ولأنه كان مظفراً كذلك فى ميدان الحب الذى استثمر فيه كل رصيد له، عندما كان يفد إلى النساء والرجال وكأنه إله ويستبيح لنفسه النهب والسلب كيفما يشاء. أحسست بالكره نحوه، لأنه وهو ابن قائد عظيم لامع قد زعم أنه أحبنى، كما لو أن منبتى المجهول وأصلى المتواضع - اللذين تضاعف أثرهما بإخفائى لهما - لم يكن لهما تأثير فى حبه لى طوال كل السنوات التى نمت فيها الصداقة بيننا. وحتى لو افترضت أنه أحبنى، أفلم يكن من الواجب عليه أن يسألنى ولو مرة واحدة أين نشأت وشببت عن الطوق؟ أو لم يكن من الواجب عليه كذلك ألا يشعر بأدنى خجل من الإجابة على هذا السؤال - وهو الأمر الذى كان يفرق منه ويخشاه - حيث إنه لم يك قط يخجل من شخصى؟

أحسست بالكره نحوه لأنه وقع فريسة للمرض، عندما قضت الدبلوماسية على الصورة التى ما فتأ يضخمها للدنيا عن عظمته، ولأنه لم يدر قط بخلده أن من المنطقى أن يمنى ببعض الهزائم - على الأقل بوصفه بشراً فانياً - وحيث إنه كان بوجه خاص يتصف بالذكاء، وكان بوسعه أن يتقبل مثل هذه الفكرة وأن ينميها بطريقته الخاصة من خلال حبه للإنسانية. وأحسست بالكره نحوه أخيراً لفرط ضعفى تجاهه، ولأننى اضطررت إلى دعوته لكى يصحبنى فى هذه الحرب التى لم أشأ الاضطلاع بإدارة دفة الأمور فيها، ولأننى دعوته لمرافقتى فى هذه الأوبة (إلى مسقط رأسى) التى كنت عازفا عن معايشتها. فلقد كانت دعوتى هذه له أنصع دليل على أننى كنت أحبه دائما حبا لا مثيل له، وأننى كنت دوما تحت رحمته.

تملكنى الغضب آنذاك بسبب (إحساسى) بوجوده إلى جوارى، فأزحت يده بعيدا عن كتفى، وصرفت أنظاره بعيدا عن الدير بأن قمت بالانقضاض عليه والاشتباك معه فى مصارعة؛ وهنا طفق يجرى مبتعدا عنى والاضطراب والدهشة يملآن جوانحه. أما أنا فقد أخذت أطارد شبحه الذى تراءى لى حتى بلغ أشجار الصفصاف، وطفقت أقذفه بقطع الحجارة، كما لو كنت دوما ذلك الغلام الذى يلهو بلعبة حرب الحجارة فى الطرقات المرصوفة بالحصى.

طلبت من الكاتب الرسمى أن يعيد على قراءة الجملة الأخيرة التى كنت أقول فيها إن السفينة - التى كانت تحمل المحاربين المتطوعين - لم تتمكن من الاقتراب من الساحل بسبب العاصفة البحرية. وكنت فى أعماق نفسى أتخيل آنذاك أن **إبراهيم باشا** قد صار مشوها من جراء قطع الحجارة التى قذفته بها ، وتخيلت أننى لن أرى وجهه أبدا على الصورة التى كان عليها قبل ذلك. وشعرت أن الشفقة تملأ جوانحى عطفا عليه لأننى شوهت وسامته، (وأن ذلك التشويه) سوف يلازمه حتى موته. ساعتها خجلت من نفسى خجلا شديدا لأنه، رغم تلك الواقعة (التى عايشتها بخيالى)، كان لا يزال صديقى الحميم. فجلست بجواره على الأريكة بمكتبى

وتناولت سيجارة قدمها لى، وطفقت أدخنها وعيناى مسمرتان على ألواح الخشب الموجودة فى أرضية الغرفة*.

وعندما بزغ نور الصباح بدأت الاشتباكات من جديد، وقام الثوار الفدائيون - الذين كانوا قد احتلوا كثيرا من التلال المجاورة فضلا عن احتلالهم لطاحونة الهواء - بشن هجومين على قواتنا؛ وثبت لنا أن المدافع العادية لا جدوى منها فى مثل هذه المناطق الجبلية. ولذا فقد أرسل **مصطفى باشا** إلى مدينة **ريثمنون** لكى يرسلوا إليه مدفعين من مدفعية الميدان، وكان أحدهما يعرف باسم «*ذو الشفاه المبتورة*»! وقمنا بوضع المدفعين فى مواجهة أحد أبواب الدير. وكنا فى تلك الأثناء قد شرعنا فى احتلال التلال المجاورة والاستيلاء على الطاحونة، كما نقلنا المدفعية إلى الحظائر لكى تغدو أقرب ما تكون إلى موقع المحاصرين. ووردت إلينا أنباء جديدة مؤداها أن **كورونايوس** قد قام بجمع أكبر عدد ممكن من الرجال، وأخبرهم بالخطر المحدق بالدير. وكانت طلقات مدفعيتنا تنهمر على مواقع المحاصرين طوال النهار، ولكنهم صمدوا صمودا ملحوظا وظل علمهم يرفرف فوق بوابة الدير. وعندما حل الظلام بدأ الثلج يتساقط، ولكن المحاربين المحاصرين لم يغادروا مواقعهم رغم البرودة القارسة التى سادت. وما أن صمت دوى السلاح حتى بدأ صوت الصلوات والتضرع يتناهى إلى الآذان. وعلمنا فيما بعد أن ثلاثة رجال منهم قد نجحوا خلال تلك الليلة فى الهبوط بواسطة الحبال من الجهة الجنوبية لأسوار الحصن، وأفلحوا فى اختراق صفوفنا وهم يرتدون الزى التركى. وكان هؤلاء الرجال يحملون رسائل يائسة إلى **كورونايوس** وضباطه، وعاد اثنان منهم ودخلوا الحصن من نفس المكان الذى خرجوا منه، حيث إن الرسائل التى تم إرسالها من الدير كان مؤداها أنهم قرروا الصمود حتى الموت انتظارا لوصول المساعدة إليهم. وكانت الأنهار قد فاضت بسبب هطول المطر الغزير، وبناء على ذلك

---

* تنتهى هنا الصورة الخيالية التى رأى فيها بطل الرواية طيف صديقه **إبراهيم باشا**، الذى كان قد رحل آنذاك عن الحياة - كما سبق أن أسلفنا - منذ سنوات طوال.

لم يتمكن المحاربون من الهبوط من الجبال للانضمام إلى **كوروناليوس** وجيشه. وبالتالى، فقد رد عليهم **كوروناليوس** قائلاً إنه سيبذل كل ما فى وسعه من أجل مد يد المعونة إليهم. ولما كان **كوروناليوس** غير واثق من قدرته على مساعدتهم فقد آثروا أن يتصرفوا وفقا لما تمليه عليهم ضمائرهم

وقبل أن ينبلج نور النهار نشبت معركة طاحنة شديدة الأوار. ووصلتنا أنباء مؤداها أن القس الراهب قد جعل الناس فى الدير يتناولون العشاء الربانى. إذ قام واحد منهم بجذب فرسه إلى فناء الدير وبعد أن قبله أطلق عليه النار (لكى يغدو طعاما لهم)، أما المحاربون فقد احتسى كل منهم كأسا من شراب الراكى* (العرقى)، وناشد كل واحد منهم زملاءه أن يسامحوه؛ أما النساء والأطفال فقد تجمعوا معا فى مكان واحد.

تداعت بوابة الدير وانهارت بفعل طلقات مدفع الميدان (**ذى الشفاه المبتورة**)، واندفع جيش الإمبراطورية العثمانية إلى فناء الدير حيث لقى من المحاربين المحاصرين مقاومة ضارية، ولاقى عدد كبير من المدافعين عن الدير حتفهم فى لحظات قليلة، وغدت جثثهم منثورة فى فناء الدير الذى أصبح زاخرا بالدماء والصراخ. ورغم ذلك كان المحاصرون قد اتخذوا منذ ساعات خلت قرارهم: ففى اليوم التالى غدا معروفا أنه خلال الاجتماع الثانى للجنة الثورية نهض أحد الأعضاء - وكان طالبا يدرس الأدب فى مدينة **أثينا**، ويدعى **إمانويل مليسيوتيس** Emmanouêl Melissiôtês - وأكد فى لهجة حماسية بأن من الأفضل للثوار أن يلاقوا كأس الحمام من أن يركنوا للاستسلام، وساق أمثلة على ذلك من أحداث ثورة التحرير اليونانية الأخيرة. كما قالوا إن القس الراهب فى الدير لم يكن بوسعه أن يقترح على المحاصرين فى الدير فكرة الموت الجماعى، غير أنه ألح فقط إليها لأنه كان قد عقد العزم منذ وقت مضى (على ملاقاة الموت). وكان انفجار مستودعات البارود والذخيرة قد غطى بدويه المرتفع - لبرهة من الزمن -

* شراب كريتى وطنى مكون من عصير العنب والبرقوق والتين.

الجانبين المتقاتلين بالحجارة والتراب والنيران. ولم يكن أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كان القس الراهب قد قضى نحبه وهو يقاتل فى صومعته أو انتحر. ولقد خسر المسيحيون ما يقرب من تسعمائة قتيل من الرجال والنساء، أما العثمانيون فقد قتل منهم أو جرح زهاء ثلاثة آلاف شخص.

وكان من الطبيعى أن يسمع دوى الانفجار فى أماكن قاصية جدا عن الدير، وإن كان البارود لم يهدم كل مبانى الدير. وفى ساعة من ساعات الأصيل طلب ضابط تركى من ثلاثين شخصا كانوا محاصرين فى قاعة المائدة أن يلقوا بنادقهم (مع وعد منه بأنه) لن يلحق بهم أدنى ضرر (إذا ما فعلوا هذا). وحيث إنه لم يكن لدى هؤلاء المحاصرين أية ذخيرة من الرصاص فقد قاموا بإلقاء أسلحتهم امتثالا للأمر، وهنا اقتحم الأتراك القاعة وذبحوهم عن بكرة أبيهم. أما نحن المصريين، فلم ننجح إلا فى إنقاذ اثنين منهم فقط، وإن كان الجنون قد استولى على الجيش كله من جراء الدماء الكثيرة التى سالت مدراراً والدمار الذى حاق بموقع القتال. وكان هناك أيضا سبعون شخصا محاصرا فى صوامع الرهبان، رفضوا الاستسلام لأنهم سمعوا بآذانهم صرخات رفاقهم وهم يذبحون، إلى أن تناهى إليهم صوت القائد الأعلى للجيش العثمانى وهو يعلن لهم أنه سوف يضمن لهم الحماية عند استسلامهم، وأنهم ليسوا مرغمين على إلقاء سلاحهم أو التخلى عنه. ولكن عندما عُرِض الأسرى المستسلمون على القائد الأعلى لم يطلق النار إلا على تسعة محاربين متطوعين فقط منهم، كان من بينهم نائب القائد اليونانى **(ذيماكوبولوس)**، بالإضافة إلى اثنين من المحاربين المحليين. وكان هؤلاء الثلاثة يرتدون ملابس عسكرية مثل التى كان يرتديها عادة المحاربين المتطوعين، مفترضين أن عدوهم سوف يحترم البزة العسكرية وأنه سوف يراعى (قوانين الحرب عند الاستسلام). ولكنهم نسوا - على ما يبدو - أن القائد الأعلى العثمانى كان قد أقسم على أن يقتل كل شخص أجنبى يتم القبض عليه فى الجزيرة.

ولم يفتنى أن اذكر (فى تقريرى) أن (الجنود) الأقباط المصريين (الذين كانوا يحاربون مع العثمانيين) قد قاموا بإفراغ رصاصاتهم من خراطيشها، ولم يطلقوا

سوى (الفشنك) فقط من بنادقهم؛ إذ عثر (العثمانيون) فى المواقع التى كان هؤلاء يقاتلون فيها على أكوام صغيرة من الرصاصات التى لم يتم إطلاقها. وإن نسيت فلن أنسى أن أذكر أيضا تلك الحادثة التى وقعت فى تلك الليلة التى توافق ليلة التاسع من شهر نوفمبر، إذ ظهرت فى السماء تلك الظاهرة النادرة التى تحدث بعد هطول المطر، وهى ظاهرة سقوط الشهب والنيازك التى تهوى وهى تشق الفضاء؛ إذ ظلت هذه الشهب تشق أجواز الفضاء وتترك فيه أثرا لمدة ساعات، كما لو كانت السماء تواصل خوض المعركة التى توقفت بين الجانبين. وسمعت أن أهالى الجزيرة المحليين آمنوا بأن هذه الشهب الساقطة ملائكة من ملائكة السماء، وبأنها كانت تهبط - وفقا لاعتقادهم - طوال الليل لكى تحمل أرواح الشهداء الذين لقوا مصرعهم فى الحرب إلى جنة الخلد؛ أما الجنود العثمانيون فقد اعتراهم الرعب عند رؤيتهم لهذه الظاهرة. ونظرا لأن الإرهاق كان قد أصاب (العثمانيين) من كثرة (سفك) الدماء فقد اكتفوا بحرق هيكل الكنيسة وبعض صوامع الرهبان، ونظرا لأن رائحة الدماء التى سالت مدرارا قد غدت غير محتملة غداة اليوم التالى، ونظرا أيضاً لأن (العثمانيين) عجزوا عن مواراة كل جثث المقتولين فى الوقت الملائم داخل الآبار أو الحفر - سواء بإهالة الثرى عليها أو تغطيتها بالألواح الخشبية المنتزعة من الأيقونات أو من أثاث الدير - فقد بادروا بالعودة إلى المدينة تاركين خلفهم جثثا كثيرة غير مقبورة، على الرغم من الأوامر الشفهية التى أصدرناها لهم بدفن الجثث كلها قبل رحيلنا عن موقع المعركة.

وعندما تشاور **مصطفى باشا** معنا - نحن قواده وضباطه - عن الخطة التكتيكية المحددة التى سوف نسير وفقاً لها - استقر رأينا على أن كارثة الدير كانت أمرا ملحا لا مندوحة عنه، حيث إنه كان لزاما علينا أن نضرب بشدة أكبر مراكز الثوار الفدائيين أهمية، وحيث إنه لا يوجد شخص واحد منا كان يتوقع حدوث مثل هذا الدمار والإحراق الشامل.

وكما هو معتاد فقد ختمت تقريرى بوصف مسهب للاحتياطات والتدابير التى يتحتم اتخاذها عادة بعد انقضاء المعارك. وأضفت بعد ذلك العبارات الرسمية

المعتادة التى أعربت فيها عن تمنياتى لولى العهد بالصحة وطول العمر. وبينما كنت أقوم بإملاء التقرير على الكاتب الرسمى، لاحظت أننى لم أَلْمَحَ قط حتى الآن وجود ذلك الهرم الذى تكون من جثث القتلى المكدسة فى ساحة الحرب التى أصبحت الآن قاعا صفصفا، ولذا فقد اعترانى إحساس غامر بالذنب والمسئولية عما حدث. ولم يخفف من وقع هذا الألم فى نفسى حقيقة أننى قبل المعركة - وإن لم يكن بالأمر المعتاد فى مثل منصبى العسكرى أن يستولى الاضطراب على المقاتل (فيخلط بين ما هو عام وما هو شخصى) - قُمتُ على سبيل الاحتياط بإفراغ رصاصات بندقيتى من خراطيشها وتركتها تتدحرج خفية فوق الأرض المحروثة وكأنها بذور التنين*. ثم قمت بعد ذلك بختم الرسالة التى تحتوى على التقرير وسلمتها لإرسالها إلى ولى العهد. ولم يكن عقلى آنذاك فى حالة من الصفاء كما كنت أود، لأن صورة امرأة** تحمل فى يدها سيفا مشرعا كانت تخترق بصورتها هذه عقلى وهى ملطخة بالدماء. وبعد أن سألت نفسى أين سبق لى أن شاهدتها، قمت بإطفاء سيجارتى - التى كدت أنتهى من تدخينها - فى أرضية الغرفة.

---

* ترمز المؤلفة هنا إلى أسطورة إغريقية قديمة، قام فيها بطل أسطورى قديم يدعى «**ياسون**» ببذر أسنان تنين فى حقل. وكانت هذه الأسنان تنبت فور بذرها رجالاً مسلحين كانوا يعرفون باسم «أبناء الأرض». ولقد نجح البطل «**ياسون**» فى جعل هؤلاء الرجال المسلحين يقتلون بعضهم البعض، وتمكن بالتالى من استرجاع «الجزّة الذهبية» التى رحل فى طلبها، وعاد بها إلى بلاده ليسترد عرش آبائه وأجداده.

** يقصد والدته.

الفصل الثالث

انطويت على نفسى لأيام عديدة فى الجناح الذى أقيم فيه، معلنا أن الجرح الذى أصابنى فى ساقى قد تقيح والتهب، وتحاشيت أن أنظر إلى البحر. وكان الزوار الذين يفدون لرؤيتى يحيطوننى علماً بأنباء الحرب، وكنت أستقبل هؤلاء الزوار فى مكتبى وأنا أريح ساقى الملفوفة بالأربطة على مقعد منخفض. وعلمت أن **مصطفى باشا** طلب من القرى الواقعة فى إقليم **ريثمنون** الخضوع والاستسلام، وأن معظمها قد استجاب لهذا المطلب. كما أعلن **مصطفى باشا** عن مكافأة مالية هائلة لمن يأتيه برأس(الكولونيل) **كورونايوس** والكابتن **ميخائيل كوراكاس** Mikhaêl Korakas، قائد قوات إقليم **هيراكليون**. وكان الأخير قد أقدم منذ أيام كثيرة خلت على إضرام النار فى القرى التركية الغنية التى تقع فى منطقته - ويبلغ عددها أربعون قرية - معلنا بذلك معارضته لقرار القادة المسلحين الباقين الذين أعلنوا استسلامهم. وكان (**كوراكاس**) يقود جيشا قوامه ثلاثة من القادة برجالهم المسلحين، فضلاً عن فصائل الفرسان الشهيرة التى كانت تتبعه. وبناء على ذلك فقد قام **كوراكاس** مع رجاله بعمليات واسعة النطاق لقتل الأتراك وسلبهم ونهبهم، عادوا بعدها سالمين إلى كهوفهم التى كانوا يتخذونها قاعدة لهم فى الهضبة الشرقية. ترى هل سمع زوارى الذين كانوا يتحدثون معى وجيب قلبى عند ذكر عبارة (الهضبة الشرقية)؟ كما حمل هؤلاء (المقاتلون) معهم وهم عائدون إلى الهضبة عدة آلاف من رؤوس الأغنام والماشية (التى غنموها فى معاركهم). ولقد سرت أقاويل بين الناس وحاول البعض منهم البرهنة - عن طريق أسماء المواقع الجغرافية وعن طريق الخبرة بأواصر القرابة وصلات النسب، بحكم أن (**كوراكاس**) كان من السكان المحليين - على أن **كوراكاس** كان قاطع طريق فى الجبال قبل نشوب ثورة التحرير الكبرى وطوال المدة التى استغرقتها. (كما حاولوا

أن يقيموا الدليل أيضا) على أنه لم يهبط هو ورجاله إلى السهول من كهوفهم بعد انتهاء الثورة، بل ترك الجزيرة التى ظلت خاضعة لحكم الإمبراطورية العثمانية، وذهب إلى بلاد اليونان التى تم تحريرها ليتخذ منها مستقرا ومقاما، وأن عضو الحكومة **كابوذسترياس Kapodistrias** قد كرمه لبسالته فى ساحة القتال. وقالوا أيضا إنه على مدى السنوات الكثيرة التى انصرمت منذ ذلك الوقت لم يتوقف **كوراكاس** لحظة واحدة عن نشاطه العسكرى. ولكن أهم شىء تحدثوا به عنه فى كل هذه الأقاويل هو إنه كان يعرف عن ظهر قلب - بوصفه كان لصا فى الجزيرة منذ سنوات خلت - كل قطعة حجر فى سلسلة الجبال الشرقية للجزيرة، كما كان يعرف كل خفقة قلب لأى فدائى ثائر فيها.

وبعد انتهاء شهر نوفمبر أخذت السفن اليونانية التى تحمل المقاتلين المتطوعين والذخيرة والزاد تتوافد من جديد على الجزيرة برغم العقبات التى كانت توجد فى طريقها، وهى العقبات المتمثلة فى سوء الأحوال الجوية واضطراب البحر، وفى إقدام الأهالى سكان الجزيرة بصفة متكررة على نهب الزاد الذى كانت تأتى به السفن أو على المتاجرة فيه، و رفض المناطق التى أعلنت استسلامها إدخال حمولة هذه السفن أو نقلها إلى حدودها، وأخيرا فى مطاردة زوارق الحراسة التركية لها. ومن ناحية أخرى فقد قام قناصل الدول الأجنبية كلهم تقريبا بزيارات متعددة للقائد الأعلى **مصطفى باشا** فى منزله، ونصحوه بألا يسمح بانخراط جنود غير نظاميين فى المعارك، نظرا لأن هؤلاء كانوا هم الملومين والمسئولين بصورة رئيسية عن ارتكاب أعمال العنف والاغتصاب والاعتداء البدنى، التى من شأنها أن تثير الرأى العام الدولى ضد الإمبراطورية العثمانية. كما أوضحوا له أن الصحف فى كل من أوروبا وأمريكا - فى أعقاب الانفجار الذى حدث (بالدير) - قد حفلت بمقالات ساخنة تبدى تعاطفها مع مواطنى الجزيرة الذين امتلأت جوانحهم بالثورة والغضب مما حدث، كما نوه القناصل بأن الشاعر الفرنسى الشهير **فيكتور هيجو** - الذى كان منفيا آنذاك فى مدينة **بروكسل** - قد نشر فى **جريدة الشرق** مقالا يتضمن تحية (تقدير وإعجاب) بالثوار المناضلين. ورغم أنه تمت مصادرة أعداد المجلة التى نشر

بها هذا المقال، إلا أن القنصل الفرنسى قدم نسخة منها إلى القائد الأعلى **مصطفى باشا** واستأذنه فى أن يقوم بترجمتها له، ولكن **مصطفى باشا** الذى كان يعرف اللغة الفرنسية معرفة جيدة جدا آثر أن يقرأ المقال بنفسه.وقد توالت الحملات لجمع التبرعات فى كل مكان لصالح النساء والأطفال الذين غادروا الجزيرة وأصبحوا لاجئين فى بلاد اليونان، وفى فرنسا تم تأسيس لجنة للصداقة اليونانية. كما أصدر الإمبراطور الفرنسى نفسه أوامره بتنظيم اكتتابات لجمع التبرعات، وبأن يقيم النبلاء ممن يحملون رتبة الدوق حفلات وأسواق خيرية لدعم لاجئى الجزيرة، وربما أيضا لدعم الثوار الفدائيين.

تم حشد الجبهات وتنظيمها مرة أخرى فى كافة أنحاء الجزيرة، حيث إن القادة الذين لم يعلنوا استسلامهم للعثمانيين قد قاموا باحتلال مواقع جديدة. و رغم أننى كنت أتذرع فيما مضى بالجرح الذى أعانى منه فى ساقى، إلا أننى لم أنكص على عقبى وسرت فى معية **مصطفى باشا** فى المعارك التى تلت ذلك، ولكنهم كانوا لا يشركوننى فى خوض العمليات العسكرية. وفى موقعة **لاكى** Lakkoi انقضت علينا إحدى كتائب **السفاكيانيين** Sphakianoiالمتمردة، ولكنها اضطرت للانسحاب على أثر استخدامنا لمدفعى الميدان الثقيلين بعيدى المدى. وفى موقعة **سافوريه** Saboure دام الاشتباك بين الجانبين لساعات طويلة، إلى أن تمكن الثوار الفدائيون من إنقاذ ذخيرتهم ومن الانسحاب. ولقد تم أسر محارب إيطالى من أتباع الثائر **غاريبالدى** وإعدامه فى مكانه، وذلك لأنه لم يكن على دراية بالقفز فوق الصخور شديدة الانحدار.

ورغم حالة الحياد المعلن من جانب كل من إنجلترا وروسيا، إلا أن سفنهم كانت ترسو على السواحل وتقوم بنقل النساء والأطفال والجرحى الذين كانوا يتجمعون من كل المناطق ويتمركزون عند السواحل الصخرية الوعرة الواقعة جنوب الجزيرة، غير أن أنشطة هذه السفن قد توقفت تقريبا فى الحال بعد تدخل الدبلوماسية العالمية. ولقد راجت شائعات مؤداها أن الثوار الفدائيين قد تركوا فريسة للجوع

رغم توافر الغذاء والزاد الذى كان يُنقل إليهم من جزيرة **سيروس**، نظراً لأن هذه الأطعمة كانت تختفى بمجرد إفراغ حمولة السفن وكانت تباع فيما بعد خفية. وترتب على ذلك هلاك بعض الثوار الفدائيين فى الجبال جوعا، فضلا عن أن الشتاء الذى حل فى تلك الأثناء كان قارس البرودة بوجه خاص، وكانت أجسامهم تكاد تكون عارية من الملابس. ولم يطق المحاربون المتطوعون صبراً على تحمل مثل هذه الأحوال ولا على احتمال الجو المشحون بالمعارك التى لا تتوقف تكالبا على الظفر بالقيادة العامة للجزيرة، وبالتالى فقد قام كثير من المحاربين المتطوعين بمظاهرات طالبوا خلالها بإعادتهم إلى مسقط رأسهم مرة أخرى. وبعد أن وقف مصطفى باشا (بنفسه) على هذه الأحوال طلب من القادة **السفاكيانيين** أن يسلموه رجلين من كل قرية (كرهينة). وكان السبب فى ذلك أن (**السفاكيانيين**) كانوا يحافظون على الاتفاقيات من الناحية الشكلية فقط، بينما كانوا فى حقيقة الأمر يهرعون إلى المناطق المجاورة ويقاتلون مع المتطوعين الأجانب. وبذل هؤلاء القادة كل ما فى وسعهم من أجل المماطلة وكسب الوقت، وسعوا بالتوازى مع هذا لدى قناصل الدول الأجنبية كى يزودوهم على جناح السرعة بسفن لنقل المدنيين العزل.كما طلب **كورونايوس** من اللجنة الثورية فى أثينا أن ترسل له سفنا وأطعمة وأسلحة ابتغاء مرضاة الله، أو أن ترسل إليه فحسب مالاً يدفع منه رواتب الجنود ويشترى به الطعام الذى كان الأهالى يخفونه عنهم (للمتاجرة فيه). غير أنه لم يتلق من اللجنة رداً لأن عضو اللجنة الذى تسلم رسالته كان من أنصار (خصمه اللدود) **زيمفراكاكيس**.

واضطر **كورونايوس** مرغما للتحرك بجنوده دون طعام يكفيهم حتى ليوم واحد، وبغير ذخيرة أو أحذية أو ملابس، وكان السبب فى ذلك هو أننا كنا نقترب منهم شيئا فشيئا. وما أن حل مطلع العام الجديد حتى ثار المحاربون المتطوعون وأعلنوا تمردهم طالبين من **كورونايوس** أن يكتب رسالة إلى **مصطفى باشا**، وأن يلتمس منه فيها أن يزوده بسفينة تركية كى تقل المتطوعين فى رحلة العودة إلى

ميناء **بيرايوس** (بيريه). وبعد أن دارت بينهم مناقشة استغرقت ساعات طويلة، اتفق الجميع على أن تتم أولا كتابة رسالة إلى قناصل الدول الأجنبية ليرسلوا إليهم سفينة أوروبية لهذا الغرض، ثم على كتابة رسالة ثانية إلى (**مصطفى باشا**) بنفس هذا المعنى. كما اتفقوا على أنه إذا لم يرد رد قناصل الدول الأجنبية على رسالتهم فى غضون ستة أيام، فإن عليهم عندئذ أن يرسلوا الرسالة الثانية إلى (**مصطفى باشا**). غير أن المحاربين المتطوعين أقدموا على انتزاع الرسالة الثانية بالقوة وأرسلوها فى الحال إلى القائد الأعلى العثمانى (**مصطفى باشا**). ومن المستحيل علىّ أن أنسى مدى الدهشة البالغة التى استولت على مجلس الباشوات العثمانيين لدى تلاوة هذه الرسالة المفعمة باليأس عليهم، ولا الأقاويل التى راجت بعد انقضاء وقت على وقوع هذه الحادثة. فبعد أيام قليلة تلت ذلك أرسل **مصطفى باشا** السفينة التركية **تاليا** Talia كما أرسل الفرنسيون سفينتهم السلامندر Salamandre بهدف إعادة المحاربين المتطوعين إلى ميناء **بيريه**. ولقد نما إلى علمنا أن حشدا كبيرا من الناس قد تجمعوا، وشرعوا فى إطلاق صيحات الاستهجان والسخرية ضد هؤلاء (المتطوعين)، إلى أن اضطرت السفن التى كانت تقلهم إلى مغادرة ميناء **بيريه** والتوجه إلى ميناء بجزيرة **سلاميس** وإنزالهم هناك. وعلى أثر ذلك اتخذت اللجنة الثورية بمدينة **أثينا** قرارا بعدم إرسال محاربين متطوعين آخرين إلى الجزيرة (**كريت**). غير أن **ديمتريوس بتروبولاكيس** Dêmêtrios Petropoulakês كان قد أبحر بالفعل (قبل ذلك) بصحبة محاربين متطوعين كثيرى العدد بهدف مد يد المعونة إلى المناطق الشرقية من الجزيرة. ومن ناحية أخرى كان **مانياتيس** Maniatês (القائد) العسكرى، نجل **ليونيذاس** Lêonidas، يحمل بين جوانحه عداوة قديمة تجاه **كورونايوس**؛ وقد قدر لوالده **ليونيذاس** أن يشغل منصب قائد الجيش الملكى الذى أقدمت الحركة الوطنية فى مدينة **نافبليون** على تسريحه. وبعد أن تم خلع الملك أوثون عن العرش قام (**ليونيذاس**) بتكوين جيش موال للملك **أوثون**، وظل يحارب خصومه إلى أن صدر قرار من لدن الملك **جيورجيوس** بالعفو عنه. أما **ماركوس رينييريس** Markos Renierês نفسه، رئيس اللجنة التى كان شقيقى (**أنطونيس**) أمينا لصندوقها،

فقد قام بتزويد سفن هؤلاء المتطوعين بخمسة وعشرين ضابطا وقسيسا وطبيبا، وأربعة جراحين من ذوى الخبرة، واثنا وسبعين من ضباط الصف، وصيدليا، وأربعمائة جندى، وبرواتب مدفوعة لكل هؤلاء. وقدر لهؤلاء المتطوعين أن ينتصروا فى معاركهم الأولى، ثم انضم **كورونايوس** إلى صفوفهم، ولكنهم سرعان ما عانوا مرة أخرى من الجوع والعرى. وعندما كانوا يمرون على القرى فى الجزيرة، كان الأهالى فى عدد كبير منها يقولون لهم إن الأتراك قادمون، كى لا يصبحوا ملزمين بمنحهم الطعام الذى لم يكن يوجد لديهم منه ما يزيد عن حاجتهم، وكى لا يضطروا إلى منحهم المأوى وهو أمر كان بالغ الخطورة عليهم؛ ولقد قفل عدد من هؤلاء المتطوعين عائدا أدراجه فوق متن السفن التركية إلى بلاد اليونان. ولقد كتب **زيمفراكاكيس** إلى اللجنة الثورية خطابا يتهم فيه المتطوعين بأنهم يتاجرون بسفرياتهم البحرية تحت ستار التطوع، وبأنهم كانوا يهربون بعد ذلك من كتائبهم العسكرية لقاء دفع مبالغ من المال كرشوة. أما المحاربون المتطوعون فقد كتبوا بدورهم رسالة إلى اللجنة الثورية ذاتها، بينوا فيها أن **زيمفراكاكيس** قد أهانهم وهددهم بالويل والثبور وعظائم الأمور، لدرجة أنهم اضطروا اضطراراً إلى أن يذرعوا الطرقات فى القرى بحثا عن كسرة خبز جاف لا سواها. كما ناشدوا اللجنة الثورية ألا تسىء فهم موقفهم، وأن ترسل من لدنها شخصا لكى يقف على حقيقة الأمور بينهم وبين **زيمفراكاكيس**، ولكى يفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

أما رجالنا من العثمانيين فقد أقدموا على مصادرة الغنائم التى استولوا عليها من نهب المنازل وسلبها فى المدن والقرى، أو على إقامة الأسواق التجارية التى تباع فيها صناديق الأمتعة والخزائن والبطاطين، والمقاعد والموائد والمنسوجات، والأبسطة والحشيات، والماكينات والبراميل، والزيت والدقيق، والحيوانات. وكان هؤلاء الجنود ينقلون من هذه البضائع ما يقدرون على حمله، أما ما كانوا يعجزون عن حمله فكانوا يحطمونه أو يدمرونه ويقسمونه إلى أحجام أصغر كى يستطيعوا الاتجار فيه. ولقد انتشرت أقاويل مفادها أنهم كانوا يفكون مسامير أخشاب الأرضيات

ويقتلعون كتل الأخشاب التى كانت تحمل الأسقف، وأنهم اجتثوا أشجار الزيتون وباعوا جذوعها كأخشاب. وقيل أيضا إنهم قد اقتحموا المتاجر الموجودة فى المدن، والتى أغلقها أصحابها من التجار المسيحيين بعد أن لاذوا بالفرار على عجل من الجزيرة ، وإنهم قد وضعوا أيديهم على ما فيها من سلع تجارية واستولوا عليها، تحت زعم مؤداه أنه لم يبق لدى الأسر العثمانية المقيمة بالجزيرة أى مورد يقيم أودها بعد أن حوصرت داخل الأسوار.

ولقد تكالبت علينا عوامل عديدة أجبرتنا على العودة إلى مدينة **خانيا**، وكانت هذه العوامل تتمثل فى الشتاء (ذى البرودة القارسة)، ووعورة المنطقة، ونوعية الحرب؛ ويأتى فى مقدمة هذه العوامل جميعا (نشاط) الدبلوماسية العالمية. ذلك أن **سرفر** Serber أفندى*، مبعوث الباب العالى، قد حضر لمقابلة القائد العام فى موقعه الجبلى، كى ينهى إليه أن السلطان السمح ذا الشهامة والكرم قد اتخذ قرارا بأن يتم التعاون بين ممثلى المسيحيين وممثلى العثمانيين فى الجزيرة من أجل إقامة حكومة تتولى إدارة شئونها . ومن أجل ذلك طلب من كل مديرية أن ترشح اثنين يمثلانها، وأن ترشح منطقة **السفاكيانيين** أربعة أعضاء يمثلونها، حيث إنه لم يكن هناك أى عثمانى يعيش فيها. ورحل مبعوث السلطان فى ذات اليوم بعد أن أخذ فى معيته خمسة عشر شخصا من أنصار **غاريبالدى** كانوا قد استسلموا له. أما القائد الأعلى للجيش العثمانى آنذاك، فقد بذل قصارى جهده فى التقرب إلى أهالى الجزيرة وتملق مشاعرهم، ووعدهم بأنه سوف يرسل إليهم مقادير هائلة من الشعير والحيوانات. وهنا قرت أعين سكان الجزيرة، فقدموا له وعدا بأنهم سوف يطردون المحاربين المتطوعين، وأنهم سوف يختارون الأعضاء المطلوبين لتمثيلهم على جناح السرعة، (وفقا لما اقترحه مبعوث الباب العالى).

شرع الجيش الإمبراطورى العثمانى فى التحرك صوب مدينة **خانيا** فى مسيرة تم الاتفاق على بدئها فى جنح الليل، ودخل جيشنا المدينة تحت ستار الظلام. ولم

* كلمة «سرفر» أصلاً تركية من أصل فارسى، وهى هنا اسم علم، ولكنها تعنى فى الأصل «قائد طائفة» أو «زعيم»، أو «رئيس».

يكد الجيش يعبر وهدة فى الوادى تعرف باسم **كاتريه** Katre حتى انقض علينا **السفاكيانيون** بهجوم (شديد الوطأة). وخلال اليوم التالى دار حديث بين الضباط الأوروبيين - الذين تصادف وجودهم آنذاك فى مدينة **خانيا** - حول الشطر الأعظم الذى هلك من كتائب جيش الإمبراطورية العثمانية، بعد أن دخل أفرادها المدينة وهم يترنحون من هول الضربة، وهم حفاة لا يرتدون سوى أسمال ممزقة، بالإضافة إلى أن هذه الكتائب فقدت تقريبا كل قوافل تموين الجيش، فضلاً عن خسارتنا لأفضل مدافعنا؛ ولم يعد سالما إلى المدينة سوى نصف جنودنا.

ولقد قدرت عن طريق الإحصاء أنه فى خلال خمسة شهور كنت قد فقدت أكثر من نصف عدد جنودى، وذلك لأن المصريين لم يكونوا على دراية إطلاقا بظروف الحياة فى الجبال. وفى ذات الوقت كان الثوار الفدائيون يمضون فصل الشتاء فى مدينة **أومالو** Omalo، وكانوا يفرغون هناك بارود رصاصات البنادق التى يحملونها داخل ورش أعدت على عجل، ويصنعون منها مقذوفات نارية مستديرة ليحشوا بها البنادق ذات الطراز الفينيسى، ويجهزون منها أيضاً المقذوفات النارية الطويلة والرفيعة ليحشوا بها البنادق السلطانية. ولقد قررت كل من حكومة **كوموندوروس** واللجنة الثورية فى أثينا إرسال حاكم من لدنهم، كى يتوصل إلى حل لهذا الموقف المتأزم. وكان كل طرف من الطرفين يعتقد اعتقاداً جازماً أن مهمة المبعوث السلطانى **سرفر** أفندى وكذا المقترحات المقدمة منه ليست سوى كمين (يُستدرج إليه أهل الجزيرة)، لأن الممثلين سالفى الذكر - الذين طلب هو ترشيحهم - من شأنهم أن يشكلوا واجهة مناسبة تخدم فحسب أغراض الباب العالى فى مواجهة أوروبا. ورغم ذلك فقد قام الطرفان بِحَثّ قادة أسلحة الجيش أيضا على إعلان قائمة بأسماء ممثليهم بأية طريقة كانت، حتى لو لجأوا فى هذا الصدد إلى انتخابهم، ثم إرسالها إلى السلطان.

احتفلت بعيد (الفطر) فى مدينة **خانيا**، وامتلأ بهو منزلى بالضباط والبكوات والأغوات الذين توافدوا عليه - وفقا لما يقتضيه العرف الرسمى - لكى يتمنوا لى أرق الأمنيات، ولكى يستفسروا عما إذا كان الجرح الذى أصيبت به ساقى قد تفاقم

بسبب الحملة العسكرية التى دارت رحاها خلال فصل الشتاء أم تم شفاؤه. ولقد دار الحديث بين الجميع عن العمليات العسكرية التى وقعت مؤخرا، وبوجه خاص عن الوقائع التى جرت فى موقعة **كاتريه**. وكان هناك إحساس يخامرنى مرارا مؤداه أن كلمات زوارى كانت تلمس قماش بزتى العسكرية الرسمية التى كنت أرتديها، وسرعان ما تزوَرّ عنها كما لو كانت قد لمست حراشف مذهبة. وكنت أعلم منذ أمد بعيد أنه لا توجد أبداً حقيقة واحدة لأية حادثة - وربما لم يكن هذا هو أكثر الأمور أهمية - بحيث يترتب على وجودها أن أكتشف كنه الضرورة التى فرضت علىّ تصنيفاً لتلك الحقائق، لا يتم استبعاده أو غض النظر عنه فى التو عن طريق يد غير مرئية. وبالتالى، فإن هذه الحرب بدأت تصبح حقيقية، حيث إنها قد بدأت بالفعل فى التحول إلى روايات وتقديرات أو أحكام.

إذن فقد كان ما قلته هذا الصباح للقنصل اليونانى حقيقة! إذ أن هذا (القنصل) جاء وفقا للأعراف الرسمية (البروتوكول) لكى يرانى بمناسبة الاحتفال بالعيد. فكررت على مسامعه ما كان ينبغى على أفراد بطانة القائد الأعلى للجيش (التركى) أن يقولوه له، وهو: أن **السفاكيانيين** قد استسلموا، وأنهم قد استقبلوا جيش الإمبراطور العثمانى بود وترحاب فى منازلهم، وأنهم استضافوا قادة جيشنا، ومنحونا زادا وطعاما بكميات وفيرة. أما هؤلاء الذين انقضوا بالهجوم على الجيش وهو عائد إلى مدينة **خانيا**، فقد كانوا من الأجانب ومن المشاغبين مثيرى المشاكل، الذين كان الطموح يدفعهم لأن يطوروا التمرد ويحولوه إلى ثورة. كذلك نوهت له بأن خسائرنا - على أكثر تقدير - أقل مما قدره الأوروبيون، وأنه لا أحد يمكنه أن يعرف لصالح من يحدث هذا. ولقد تولد لدى انطباع بأن (القنصل) قد غادرنى وهو مستاء وغير راض عن المقابلة. ولكنه مع ذلك كان شخصا لديه من الذكاء - أو هذا ما كان يبدو على الأقل من ملامحه - ما يمكنه من فهم معنى مغاير لما كانت شفتاى تنطقان به من حديث رسمى. ولقد كان من شأنه أن يفهم أيضا أن هناك أمورا لم أتحدث عنها قط رغم أنها أمور تلقى منه اهتماما لأسباب عديدة.

وفى فترة المساء التى كانت الكلمات ومظاهر التكريم خلال ساعاتها تنهال على بزتى العسكرية، اكتشفت أننى أمّنت نفسى ضد انطلاق كثير من قذائف هذه الحقائق المتتابعة، وأننى تُركت لأسير كما أهوى فى طرقاتى المفضلة. ولأننى كنت آنذاك محاصرا بأشخاص طموحين من حملة الألقاب والرتب (الرفيعة)، فلم يتح لى أن أعرف ما إذا كنت قد ظفرت بالنصر أو منيت بالهزيمة. (وعجبت) من أن الضباط الشبان كانوا يبدون قدرا كبيرا من الثقة بالنفس بخصوص إحراز النصر، فى الوقت الذى كنت أشعر أنا فيه بشك لا مزيد عليه فى أن هناك نفراً من بينهم كانوا عاجزين عن إجراء حوار مع واقعهم المادى. ولم تك ثم طريقة أخرى أمام أى شخص (عاقل) كى يتحاشى بها فحسب تفاهة فكر إنسان طموح. ويحق لى هنا أن أسأل: كم شخصا من بين هؤلاء كان بوسعهم أن يتخلصوا من تصنيفاتهم الجامدة للحرب - وهى تصنيفات ناجمة عن مسلك متطرف يستوجب العقاب - حينما يقدر لهم أن يكتشفوا أنهم كانوا يصنفون الحب ثم ينزلون به العقاب؟ وهل كانوا بقادرين على التكفير عن إثمهم هذا بكفارة غير مدونة؟

كانت هذه حقيقة، أو بالأحرى واحدة من الحقائق التى تبنيتها فى حياتى وصارت ملكا لى، غير أننى كنت عاجزا عن التحدث عنها مع زوارى، وهى حقيقة مؤداها أننى - بعد الانفجار (الذى حدث فى الدير) - اتخذت طريقا مغايراً يبعدنى عن صورة الجنين الذى كنته فى رحم أمى، وبالتالى فقد أصبحت صغيرا بدلا من أن أغدو كبيرا. فكثيراً ما كنت أحظى بنظرة الغلام الغض، وكنت بفضل هذه النظرة أزيل الثلج من فوق قمم الجبال وأجتث الأشجار من جذورها، وتحدونى رغبة فى أن أتخلص من ذكرى المعرفة التى أحظى بها، لأنها كانت معرفة تسبب لى ألماً مبرحاً. وشيئا فشيئا توقفت الطبيعة عن الوجود حولى أو على مقربة منى، كما أن هذه الموجودات التى كنت أطلق عليها ذات مرة اسم الجبال والأشجار، قد خلت من المادة المكونة لها وأصبحت مثل الحيوانات المذبوحة. ورغم المحاولات المستميتة التى كنت أبذلها كى أظل صامدا، إلا أن نظرة الغلام كانت تقودنى مرارا وتكرارا إلى الحرب القديمة.. إلى التراب الذى كان يغطى تلك المنازل .. إلى والدى وهو قائم فى ميدان

القـرية .. إلى العـذاب الذى كـابدته فى الكهف .. إلى الأسـر الذى وقـع على بنى جلدتى وأقـاربى .. وإلى موتهم كشـهداء .. وإلى انتشـاء المنتصـر بمشـهد الدم الذى سـال من أجساد المهزومين! وقلت لنفسى: إن صـورة الفزع الأكبر القديم قد حلت مـحل صـورة الطبيـعة التى كـانت تحيط بى من كل صـوب وحـدب، وإن الحـرب التى خضتها حينما كنت قائداً أعلى - وكأننى لم أحارب قط من قبل مع **إبراهيم باشا** فى سـوريا - قد انتهت أيضا بحرب أخرى خضت غمـارها حينما كنت أسيرا. ولذا فقـد أهديت الجـرح الذى أصـابنى فى سـاقى إلى الحـرب التى انصـرمت، وذلك لأن هذه الحـرب لم تدم جسـدى ذاته بقدر مـا أدمت روحى. كـان من المسـتحـيل علىّ أن أفك رباط اللـحظة (الراهنة) من عقـال اللحظة التى تليهـا، إذ كـان إحسـاسـى المؤلم بوصـفى طفلاً قدر لـه أن يجد نفسـه وسط غمـار الحرب، مـعادلاً لفـعالياتى كرجل ينهى سجله الوظيفى بعملية حربية ناجحة، وإن كانت بلا جدوى أو طائل.

وأيا كـان الأمر فقد كـانت الحـرب الوحيدة التى ينبـغى على أن أخـوض غمـارها هى أن أقـاتل ضـد مـثل هذه الأفكار. وبعـد أن غـمرتنى الدهشـة وانتـابنى العـجب، طفقت أنتزع من أعماقى - ولم أكن لأجسر على (اعتناق) أفكار راديكالية أكثر من هذه - ذلك المواطن الأوروبى المتـحـرر، الذى كان يرفض أن يتقبل الأفكار الشـرقـية المعـادة والمكررة عن المكتـوب أو النصـيب.. ذلك المواطن (الأوروبى) الذى يسـعى كى يخطط لحياته مسـارها الرحب العريض، لأنه يعلم حق العلم أن مثل هذا التصـرف أكثر صعوبة على نفسه من مـجرد تقبل الأمر الإلهى فى استسلام وخضـوع! وكان مثل هذا التصـرف بمثابة عزاء لى فى بعض الأحيان. ترى هل استولى على الرعب الشـديد، لأنه ليس هناك فـردوس ألوذ به أو أطمع فـيـه؟ أم أن مـثل هذه الأفكار الجريئة فائقة التحرر - التى كانت تزدهر فى الغرب - هى التى كانت تجذبنى تحديداً وتثلج صـدرى فى اللحظات الصـعبة بسبب طبيعتها الهـامشية؟ فلو أننى جعلت اضطلاعى بالقيادة العـامة للجيش هو الأسـاس فى فتـرة الحـملة العسكرية، لكان بوسـعى أن أقـوم بسـجن هذا الخطر المتمـثل فى هذه الأفكار المتـحـررة، ثم أنبرى

لشنقه،وأجسر بالأخص على اجتثاث رأسه، دون أن أغدو مسئولا أمام أى إنسان مهما كان. فعلى امتداد هذه الأعوام الطويلة من حياتى التى عملت بها بوظائف القيادة العليا، كانوا يفرضون علىّ أن التزم بمسلك أشد قسوة وصرامة؛ والآن.. آن الأوان كى أقضى على هذا المسلك قضاء مبرما.

كنت أناضل نضالا عنيفا من أجل ألا أصاب بالجنون، وقلت لنفسى: لو أنه كان مقدرا لى أن ألقى نحبى، فينبغى علىّ أن أرحل عن الحياة بطريقة مشرفة! فمن المحتمل أن المشكلة كانت حَرية بأنه تتجه إلى إطار آخر من أطر الفكر ، ولكن حتى لو صحّ ذلك فلن يقدر لها أن تجد سبيلاً إلى الحل. واستولت على الحيرة (عندما عجزت عن معرفة) الطريقة التى كانت الروح الأوروبية قد هيمنت بها على ذاتى المشرقة كنور الشمس. (وقلت لنفسى): «*ولعلك باخع نفسك على القول بأن (الروح الأوروبية) قد عجزت عن إنجاز ذلك من خلال الأرومة والعرق، فعنّ لها أن تنجزه من خلال الذات!*». واعترانى شك فى أننى وقعت فى غمار اليأس المطبق، وكان حلول مثل هذا اليأس أمراً بالغ السهولة، فلقد استطعت أن أتبين على وجه التقريب أن انعكاس الثورة التى نشبت فى الجزيرة - وها أنذا أخيراً أطلق عليها اسم الثورة - كان يجعلنى ألتصق بنورها دون أن أريم عنه حولا. وسخرت من قياساتى المنطقية التى كان من السهل على تطويعها وتعديلها، إذ كنت أرغب فى أن أرتد مرة أخرى إلى حياتى الأولى لأعيش فيها، وكنت أعلم حق العلم أن مثل هذا الأمر لم يحدث (قبلاً) فى أية رواية من الروايات دون دماء تسفك؛ ومن أجل هذا لجأت إلى أكثر الأفكار السياسية حداثة. إذ كان حَرياً بمثل هذه الأفكار أن تخلصنى من الدنس الذى كان يسمم روحى، حيث إنها الأفكار التى كان يلوذ بحماها كل الثوار خلال هذا القرن من أجل أن يقلبوا نظام العالم .... وبناء على ذلك فقد وجدت نفسى أقف بجانب الثوار وأرجح كفتهم. وارتجف كيانى (كله) حينما سألتُ نفسى: هل كنت حقا لا أملك أى بديل آخر سوى أن أتخلى عن كل شىء وأنضم لصف هؤلاء الثوار؟

كنت فى أعماقى غير راغب فى ذلك.. فقبل أن أغدو قاب قوسين أو أدنى من الموت، كنت أقيم وزنا للحياة وأحسب حسابها. فلقد كانت حياتى المصرية ذات

قيمة، حتى ولو كان ذلك بحسبانها نوعا من الاستمرار لا غير، وحتى ولو كان ذلك باعتبارها ذاكرة أخرى فقط؛ لقد كانت حقاً ذات قيمة كبيرة - وأكرر ذلك - بالنسبة لى. فلو أن واحدة من هاتين الحياتين اللتين حظيت بهما قد رضيت بقبول الحياة الثانية فى يسر وسلاسة، لما قدر علىّ أن أقاسى الأمرّين على هذا النحو. فالحق أنه لم يكن لدى إحساس واع بانتمائى إلى وطن واحد لاسواه، يستحق منى أن أضحى فى سبيله تضحية كنت أراها تقريبا خليقة بالانتماء إلى أفكار ذات بعد أحادى. ولم يكن هذا يعنى أننى لم أغبط فى قرارة نفسى القتلى الذين أقدموا على مثل هذه التصرفات التى تنم عن اليأس وفقدان الأمل إلى أبعد حد، أو أننى لم أكن أغبطهم فقط من أجل الشهرة التى حظوا بها، بل (كنتُ أغبطهم) لقدرتهم على التعبير عن عاطفة جامحة بصرف النظر عن أنها كانت تفضى بهم إلى الهلاك؛ وفضلا عن ذلك فقد كنت على ثقة من أنه لن يقدر لهذه الثورة أن تظفر بالنجاح. وفى هذه النقطة بالذات دون سواها اكتشفت خيطا كان من شأنه أن يصلنى باشتراكى فى الحروب السورية، ففى تلك الحروب تعلمت أن أميز بين سمات الهزيمة النكراء وبين الانتصارات المفعمة بالقوة والبأس، وهو أمر مختلف جدّ الاختلاف عن مثل هذه الأحوال المبهمة الغامضة. كما تعلمت أن أحترم وأن اقدر البلاد التى قدمت العون والمساندة، باستثناء ما يخص الحق الذى تستند إليه تصرفاتها، ودون أن يصبح هذا هو المعيار الوحيد الذى يحركنى. وبناء على ذلك - فبعد الهزيمة التى منيت بها هذه الثورة فى الجزيرة - كان ينبغى علىّ أن ألجأ إلى منزل شقيقى **أنطونيس** فى مدينة **أثينا**، وهو منزل غاص حتى أسوار حديقته الحديدية بأطياف جديدة؛ والحق أن جيشى - وبالأحرى أنا - سيظل مسئولا عن ذلك الذى حدث. (وهناك فى منزل شقيقى) كان ينبغى علىّ أن أستلقى على المقاعد (الوثيرة) التى كان تصميمها ينحو نحو الطراز الكلاسى - هذا لو أننى أفلحت فى العثور على ركن أجلس فيه بالقرب من النافذة - وأن أشرع فى التفكير بمصر، وأنا أرمق أشجار الصنوبر الباسقة فى حديقة المنزل.

آه! لم يعد بوسعى فى مثل سنى هذا أن أغير ميادين الفكر التى تشكل ذاكرتى، فلقد كانت فكرة مصر دون غيرها من الأفكار - كمكان فقدته وضاع منى - هى التى تستحوذ علىّ وتدهشنى إلى حد بعيد. فلم يكن بوسعى - وبالتأكيد فإن هذا كان أمرا من شأنه أن يدفعنى للجنون المطبق - أن أحظى بمكانين مفقودين فى ذات الوقت بدلاً من مكان واحد لا سواه، أعيش فيه ما تبقى لى من حياة ! ولم يكن لزاماً على هذا المكان الثانى بوجه خاص أن يمتد ليغطى كل سنوات النضج من عمرى؛ وبالتالى فإن الموت الذى قدر علىّ أن ألاقيه سوف يعجز عن أن يتجسد مرة أخرى. وكنت أخشى - فضلا عن ذلك - أن أحيا عالة على شقيقى **انطونيس** الذى كان مجهولا حتى الآن بالنسبة لى، فقد كان من السهل عليه أن يصيبنى بجرح نافذ من إحدى رصاصاته الزاخرة بالتلميحات والإشارات.

ولقد ضحكت ملء أشداقى، لأنه لم يكن أمرا مستغربا بالنسبة لى - طوال السنوات التى حظيت فيها بعضوية الأرستقراطية العسكرية والسياسية - أن ألزم نفسى بالكف عن مسعاى لإحداث انقلاب جذرى حتى فى خيالى. فدعنى إذن أستمع إلى صوت الكمان وهو يعزف ألحانه، وكأنه يجرى من خلالها محادثة مع آلة العود، فمظاهر الاحتفال بالعيد تحيط بى من كل جانب. وهنا تقدمت للأمام ووقفت خلف إحدى النوافذ، ومن خارج ألواحها الزجاجية الموصدة كان صوت أمواج الشتاء يتناهى إلى أسماعى، ويتوحد مع صوت الموسيقى التى كانت تصدح فى بهو المنزل. فطفقت أرمق بناظرىْ البحر (الشاسع) بعد أن قمت بتجريده من كل مادة يتكون منها، فيما عدا ليل الشتاء البهيم وسواد الحرب. ولم يكن ثم طريق يوصلنى إلى شقيقى **انطونيس**، بعد أن ظللت لسنوات (طوال) أبذل كل ما فى وسعى دون جدوى كى أشاهد محياه الحبيب، متشوقا أن أستمد ملامحه من وجه كل شخص يونانى أقابله. ولكن لم يتح لى حتى الآن أن أرى وجهه وهو يبزغ مشرقا من الظلمة التى تجلل صفحة البحر، كمثل لوحة مرسومة تنبثق من أعماق السواد الذى تصطبغ به قطعة القماش الزيتى، التى يقوم الفنان بالرسم فوقها.

ولقد شاهدت بوضوح بالغ - كما لو كان هذا قد دون بحروف ناصعة البياض على صفحة الظلام - أننى تجولت لسنوات (طويلة) حتى الآن سعياً وراء اكتشاف نقطة ثابتة مستقرة، لا سبيل لتغييرها حتى ولو تكالبت عليها شتى أنواع التغيرات، وكأنها طريقة من طرائق (التعبير عن) الرقة الراسخة التى تبعث فى النفس السلوى والعزاء، مكانا كانت أو شخصا. ولم يكن هناك سوى شىء واحد فقط ظلّ ثابتاً دون أن يتطرق إليه التغيير، وكان هذا الشىء هو وجه الغلام الذى ظل ماثلاً (أمام ناظرىّ)، ربما لأننى كنت أعلم حق العلم الطريقة التى بدأت بها ملامحى تدلف إلى عتبة الشيخوخة، أو ربما بسبب طريقتى بالغة البساطة فى التحدث والتى كانت سمة من سماتى. فلقد شاهدت عينىْ ذلك الغلام الرطبتين مرتسمتين فوق زجاج النافذة، فأحسست وكأنهما عيناى أنا، ولم يكن حريّاً بى بعد ذلك أن أترك العنان لنفسى كى أبدو على هذا النحو أمام زُوارى؛ ولذا بادرت بالسيطرة على مشاعرى. وكانت أصوات عزف الكمان بمثابة تعبير يبرر رهافة الإحساس الذى عجزت عن حجبه عن عيونهم.

وخلال فصل الربيع سوف أقابل بكل تأكيد غلام الهضبة، وسوف أتوحد معه فى كيان واحد، وذلك لأن هذه الحرب لم تكن شيئا آخر سوى دراسة لفن (الجسد العارى.

الفصل الرابع

ولقد منيت حركة **سرفر** أفندى بالفشل (الذريع)، رغم أن بعض ممثلى الجزيرة (**كريت**) - الذين تم اختيارهم (كما أسلفنا) - قد تحركوا للقاء الباب العالى طوعا أو كرها. وقد أكدت القوى العظمى للسلطان أنها لن تتدخل فى الأمور نيابة عن الموالين له، كما ركز السلطان على تأمين هؤلاء الأتباع الموالين له، ثم قرر أنه قد عقد العزم على إنهاء الاضطرابات.وبناء على ذلك، قام باستدعاء **مصطفى باشا**، القائد الأعلى آنذاك، وأرسل فى مكانه **عمر باشا**، القائد الأعلى للقوات العثمانية فى أوروبا.

ووصل عمر باشا إلى مدينة **خانيا** خلال شهر مارس، وأبدى تقززه من المسكن الذى كان يقيم فيه سلفه، وسعى إلى الإقامة فى مسكن أكثر رحابة واتساعا فى ضاحية **خاليباس** Chalepas، لأن هذه الضاحية كانت مقرا مفضلا لقناصل الدول الأجنبية. ثم أقام احتفالا رائعا للسلك القنصلى فى الجزيرة، كى يعطى انطباعا عن نفسه بأنه متحدث لبق ونشط وشيخ ذو فكر عالمى. وكان (خلال هذا الاحتفال) يروى لهم حكايات فكهة طريفة، ويحدث البعض الآخر عن أحوال الجزيرة، وكيف أن القدر* fatalité قد تدخل لاختياره فى منصبه هذا، وبالتالى فإنه سيقوم (حتماً) بأنشطة وينجز فعاليات؛ ولم يغب عن ذهنه أن يحادث البعض منهم باستعلاء وتكبر.

وطفقت أتطلع إلى الأثاث المنزلى الفاخر الذى حمله القائد الأعلى الجديد معه إلى الجزيرة، وأدركت أن القصد من هذا الرياش النفيس لم يكن الحرب بل الحفلات المظهرية. ورغم أننى كنت أتقبل مثل هذه المظاهر لما لها من فائدة مرجوة فى بعض الأحيان، إلا أننى مع ذلك كنت أعتبرها وسيلة لا تفلح فى جذبى أو تظفر بإعجابى. ومن ناحية أخرى، فقد حاولت جاهدا أن أجد رابطة تجمع بين الزجاج

* استخدمت المؤلفة هنا لفظة فرنسية رأت أنها ربما تكون أكثر إيحاء بالمعنى الذى تريده.

البوهيمى والشمعدانات الفضية، وذلك الحشد الغفير من الخدم المدربين الذين يرتدون زيا يلفت الأنظار، والأثاث المذهب، والمعزف الضخم الذى يتوسط البهو الأوروبى - لو جاز لى هذا التعبير - ويحتل فيه المكان الأكبر، وبين المعلومات التى قمت بجمعها عن رئيسى الجديد. فمنذ سنوات بعيدة انصرمت - ترى هل كانت سنوات طويلة حقاً؟ - كان **عمر باشا** مسيحيا وكان يحمل ساعتها اسم **ميخائيل لاتّا** Michaêl Latta، كما كان يخدم فى صفوف جيش النمسا. ولكنه اضطر بسبب جرم اقترفه إلى أن يتخذ من **القسطنطينية (اسطنبول)** مستقراً ومقاماً، وهناك أشهر إسلامه وكان فى العشرين من عمره، وأخذ يترقى فى سلك الجيش بسرعة كبيرة بعد أن خاض حروبا كثيرة ومهمة من حروب الإمبراطورية العثمانية. بعدها تم تعيينه نائباً للقائد الأعلى فى منطقة ما بين النهرين، غير أنه ما لبث أن أقيل من هذا المنصب وتم نفيه بعد أن اتهم بالاستبداد وممارسة العنف. وحيث إنه كان يحظى بشهرة ذائعة بوصفه ضابطاً عالى الكفاءة والفاعلية - ولأسباب أخرى غيرها - فقد تم تعيينه من جديد بهدف قمع حركات التمرد والعصيان التى نشبت مؤخرا فى كل من البوسنه والهرسك والجبل الأسود. وبعد أن نجح فى قمع هذه الاضطرابات أرسله السلطان إلى الجزيرة لكى يضع حدا - بسرعة وبطريقة مثالية - للأزمة المتفاقمة هناك. ولقد سمعت أن **عمر باشا** - قبل أن يلتقى مع قادته الكبار لكى يتباحث معهم - قد جمع بنفسه، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، معلومات عن كل واحد منهم، سواء ما يتعلق منها بمسقط رأسه و محل إقامته وظروف حياة المقيمين معه؛ كما جمع معلومات عن عادات الثوار الفدائيين وعن إنجازات القادة وكبار الضباط. ولقد سمعت أيضاً أنه فكر فى الربط بين شخصى وبين الفشل الذى منى به القائد الأعلى السابق **مصطفى باشا**، وبالتالى فقد وجدها فرصة سانحة له كى يتخلص (بضربة واحدة) من ممثل مخلص ووفى لولى عهد* السلطان فى مصر، وليقضى كذلك على ميزتين داعمتين كنت أحظى بهما وتسببان له القلق والضيق،

* كان ولى عهد السلطان فى مصر آنذاك - كما سبق أن أسلفنا - هو **الخديوى عباس باشا الأول**، الذى تولى حكم مصر بعد وفاة إبراهيم باشا.

وهما: خبرتى العسكرية الفائقة بهذا الموقع - أو لعلها درايتى به كما عنّ له أن يستنتج من وضعى كأسير فيما مضى - وحب أفراد الجيش المصرى لى. ولم يكن بوسع (**عمر باشا**) أن يتهمنى بشىء ملموس، وإن كان قد أظهر اهتمامه الواضح بمعلومة عرفها عنى، ومؤداها أننى كثيرا ما كنت أنفرد بنفسى وأنعزل عن الآخرين.

ولقد أيقنت - قبل أن يستدعينى **عمر باشا** بأيام قليلة ليستمع إلىّ - أن مخاوفى كان لها ما يبررها، فلقد خمنتُ بسرعة أن عداوته تجاهى لم تكن تستند فقط إلى معارضته لسياسة مصر فى الجزيرة - وهى معارضة مشروعة - أو تكمن فى المنافسة الواقعة بينه وبين **مصطفى باشا**. ولقد هدانى تفكيرى إلى أنه لم يكن ثمة سبب يمكن أن أسوقه كذريعة لتلك العداوة، حيث إن كلا منا كان قد غير دينه ومسار حياته، وإن كان **عمر باشا** بالتأكيد وعلى نحو حاسم أعلى منى رتبة، ولكن هذا كان أمرا معتادا بالنسبة للقادة الضباط فى الإمبراطورية العثمانية.

وبمجرد أن دلفت إلى مكتبه حتى أدرك على وجه السرعة أننى أنتمى لطائفة من البشر الذين يحتفظون - لأسباب تختلف باختلاف كل فرد منهم - بشطر من ذواتهم ثابتاً لا يتغير. كما أدرك أننى كنت أتدثر بدرع الصمت مثلما تختفى الثمرة غير الناضجة خلف البرعم، وهكذا أصبحُ محصنا ضد كافة الجروح فيما خلا الموت. وكان من الواضح أن **عمر باشا** لم يكن يرغب فى أن يقرب إليه مساعدا له مثل مواصفاتى. ولقد فهمت ذلك تماما لدرجة أننى أحسست بريشة الموت وهى تلمس وجنتى بخفة.

كان يحق لى آنذاك أن أدافع عن نفسى، وأن أقارن بين فكرى وبين ذلك القرار الذى اتخذته بالتصالح مع دائرة حياتى هنا منذ سنوات طويلة خلت. وبالتالى فلن أسمح على الإطلاق للقائد العسكرى الجديد **عمر باشا** أن يعيث فسادا فى أرجاء روحى أو يسلب ذاتى منى، فحسبه الاضطرابات المحلية (التى كانت تشق عصا الطاعة على الإمبراطورية). لذا فلم أبه قط ما إذا كنت أروق له أم لا، ناهيك عن

الانزلاق إلى تملقه أو الوقوف منه موقف المنافقين. ذلك أننى سرعان ما تأكدت من أنه يريد أن يحيط نفسه بالعبيد والمنافقين، كى يدعموا قراراته التى تبعث على الأسى ويزينوها فى عينيه. وأثناء حديثنا المستمر ونحن نعد العدة ونتأهب للقيام بخطواتنا العسكرية التالية - كما لو كان كل منا لا يأبه على الإطلاق بما يدور بخلد الآخر عنه - لمحت فى عينيه بريقا ينم على تلذذه بالحرب وتوقه إلى خوض غمارها. وفكرت فيما بينى وبين نفسى أن **عمر باشا** ما هو إلا حية الصحراء الرقطاء، لا... بل هو أفعى العالم!

انطلق جيشنا فى مسيرته ثم توقف عند منطقة **اسفاكيا** Sphakia، وطالب **عمر باشا** سكانها من جديد بالخضوع والاستسلام قائلا لهم إن رحمة السلطان واسعة ولكن غضبه لا حدود له. غير أن **السفاكيانيين** ردوا علينا هذه المرة بقولهم إنهم يفضلون ملاقاة الموت عن بكرة أبيهم، على أن يسمحوا للجيش الإمبراطورى بالدخول إلى أراضيهم والعيث فساداً فى بلدانهم. ولقد ارتأى **عمر باشا** أن من الأصوب ومن الأحكم ألا يوجه ضربته إليهم فى التو. وعلى أثر ذلك وقعت بعض المناوشات التى اقتسم الطرفان نتائجها، كما وقعت خسائر فى كل جانب من الجانبين. وبعد أن اشتبكنا معهم فى معركة على قدر وافر من الأهمية قفلنا راجعين إلى معسكرنا، وهناك وجدنا وباءً مباغتا للتيفوس يقبع فى انتظار أفراد الجيش المصرى.

قمت على الفور بعزل المرضى الذين أصيبوا بالوباء فى مستشفيات تم إعدادها على عجل وبصورة مرتجلة، ودعنى أطلق تجاوزا اسم مستشفيات على هذه الأكواخ المبنية من فروع الأشجار ومن القماش المستخدم فى صنع الخيام. ثم قمت بإحراق ملابس المرضى، وأصدرت أوامرى بأن يجلبوا الماء إليهم من آبار بعيدة، وأن يقوموا بغليه قبل شربه، وأن يحملوا إليهم ثلجا ويحيطوه بالقش حتى لا يذوب، وأن يقوموا برش الجير فى جميع أنحاء المعسكر؛ وشددت على الجميع بمراعاة نظم الصحة وقوانينها بكل جدية وبدون أى تهاون. كذلك لم أسمح بأى اتصال مع معسكر

الأتراك ولا مع المدينة حتى لا يتسع نطاق انتشار الوباء. ولقد أمكننا اجتياز هذه المحنة بفضل الجهود التى بذلها الأطباء وبفضل الإجراءات الصارمة التى اتبعناها فى مجابهة المرض. ولقد بعث إلى ولىّ عهد مصر برسائل تحتوى على كثير من التقريظ والثناء على الإجراءات التى قمت باتخاذها، وكذلك الشكر على إشرافى بنفسى على تنفيذها وفقا للتقارير التى تم رفعها إليه.

فهناك حقيقة مؤداها أننى - رغم كونى قائدا أعلى ووزيرا للحربية وقائداً للجيش المصرى - آثرت أن أتولى بنفسى زيارة المرضى والتحدث معهم، وأن أرسل فى طلب الأطباء والأدوية الشافية والعقاقير الناجعة، وأن أقوم بنفسى بفحص الصهاريج التى كانت تنقل المياه، للتأكد من أنهم كانوا ينقلون المياه من الينابيع البعيدة فى براميل نظيفة ثم غسلها بالبوتاس قبل ملئها. كما أننى أشرفت كذلك بنفسى على غلى الماء المعد للشرب، وعلى إحراق ملابس المرضى، وعلى طلاء الجدران بالجير، وعلى كافة أعمال النظافة الأخرى. وكان هذا كله دافعا لجنودى للإعجاب بى، حيث إننى - على حسب قولهم - قد اقدمت على تعريض نفسى لأشد أنواع الموت الذى يصيب الجنود فتكاً وانتشارا، دون أدنى خوف، وبلا استعلاء أو تكبر، وبغير تواضع ظاهرى أو زائف؛ ولقد استنتج جنودى كذلك أن كل ما قمت به من تصرفات تجاههم كان صادقا ونابعا من القلب. ومما هو جدير بالذكر أن الذين منحهم القدر من جنودى فرصة البقاء على قيد الحياة - وكثير منهم قد بقى حياً لحسن الحظ - كانوا يبادلوننى حبا بحب من شغاف قلوبهم، دون أن يأبهوا كثيرا بتقصى دوافع هذا الحب، ودون أن يتمكنوا من الوقوف على أية بينة أخرى بخلاف هذا الحب الصادق. فالحق أن اهتمامى بهم كان حقيقيا وصادقا، وأننى شعرت بسعادة بالغة لمبادلتهم إياى هذا الحب.

احصينا عدد الضحايا الذين لاقوا حتفهم من جراء وباء التيفوس، بعد أن ظل جاثما على معسكرنا لمدة عشرين يوما تقريبا، قمنا خلالها بعزل أنفسنا داخل الثكنات المصرية. ولقد علمنا بعد برهة من الزمن أنه فى خلال تلك الأيام العشرين

وقعت حالات أخرى من الوفيات فى المعسكر التركى. إذ وفد إلى معسكر **عمر باشا** مائة من النساء والأطفال يعلنون خضوعهن واستسلامهن، ولكنه قام بذبحهن عن بكرة أبيهن، كما ذبح معهن ثلاثة رجال آخرين كانوا قد وفدوا إليه أيضا بوصفهم ممثلين للقرى الواقعة فى الإقليم، كى يعلنوا بدورهم استسلامهم وخضوعهم لسلطانه.

وعندما حل اليوم التالى شرعت فى عبور الحديقة التى كانت تطوق مسكن **عمر باشا** فى حى **خاليباس** من كل جانب، والتى كانت تنشر أريجا ينبعث من بواكير أزهار الربيع، ولكنه أريج جنائزى؛ وطلبت مقابلته للتحدث معه. ولقد شرحت **لعمر باشا** فى التو أن المذابح التى جرت فى المعسكر التركى إنما تنتمى إلى مفهوم غوغائى، يرى كل من المدنيين والعسكريين أنه يمثل سلوك القطيع، وأننا لا يجب أن نبدو مثل الوحوش آكلة اللحوم. كما بينت له أن سياسة مصر الرسمية ترفض بوضوح تام مثل هذه الممارسات، وأن مصر ليست راغبة فى أن تعتبر شريكة فى اقتراف مثل هذا الجرم. (كما أوضحت له) أنه لو كان يجد متعة فى اقتراف مثل هذه الأفعال - بصفته القائد الأعلى - فعليه على الأقل أن يفهم أن مثل هذه الأفعال تكتسب علاوة على ذلك مغزى آخر، بغض النظر عن كونها سفكا للدماء. ثم بينت له أنه ترك جيشه وضباطه بكل رتبهم كى يدبروا وكى يمارسوا عنفا لا نهاية له، بغير أن ينتابهم أدنى خوف من العقاب. ثم إننى من بعد ذلك شرحت للقائد الأعلى - إن كان هذا الأمر يهمه حقا - أن هناك قناصل وسفراء لدول أجنبية لم يتوقفوا عن الاحتجاج والتنديد باستمرار، وأن الصحف الأوروبية والأمريكية طفقت تكتب مقالات عن أعمال العنف التى يمارسها الباب العالى ضد رعاياه؛ ولقد تعمدت ألا أذكر فى هذا السياق - والحق يقال - الدور (الفعال) الذى قامت به حكومات دول أوروبا وأمريكا. ثم أضفت قائلا إننى خضت غمار الحرب ومارستها بنفسى، ودرست التاريخ ووعيت درسه، وأن على القائد الأعلى ألا يعتبرنى غِراً ساذجا. ولذا فإننى أعلم حق العلم أن هذه الطريقة فى إنزال العقاب بالثائرين وقمعهم، وفى إدارة

دفة الحرب هى الطريقة الأقدم بلا جدال، ولكنها ليست الطريقة الأكثر سلامة أو نجاحا. كما قلت له إن هناك طرقاً أخرى (قديمة) لا ريب أن القائد الأعلى يعرفها حق المعرفة، غير أننى بحكم طبيعتى أوثر من ناحيتى أن أنحو دوما فى ميدان السياسة نحو ما هو أحدث (وأرقى).

ولقد أرغمنى **عمر باشا** على المكوث فى معيته وعلى الإصغاء إلى ردوده، التى كان مؤداها أنه يصعب بمقتضى مثل هذا الفكر الذى طرحته تضييق الخناق على الثوار الفدائيين؛ والدليل على ذلك أن **مصطفى باشا** وقادته - وأنا واحد من بينهم - قد وقفوا عاجزين أمام الثورة ولم ينجحوا فى إخمادها. وأضاف إلى ذلك أننى أخفى بالأحرى خلف ما أتظاهر به من مشاعر إنسانية رقيقة ظلاما أشد فى حلكته من السياسة الخارجية للدولة (يقصد مصر) التى قدر لى أن أقوم بتمثيلها. ولم يكتف **عمر باشا** (بالأقوال)، بل انبرى لجمع معلومات عنى - حيث إنه كان يرتاب أشد الارتياب فى أمرى - مفادها أننى مسيحى فى الخفاء ومحب لليونانيين؛ وكان بوسعه على أية حال فى كل لحظة أن يتخلص منى عن طريق تلفيق ما يرغب فيه من تهم ضدى.واختتم حديثة فى النهاية بقوله: «*حيث إنك لم تعاين بعد من ناحيتى أى مسلك من مظاهر العنف ضدك، فإن هناك فى انتظارك فى القريب العاجل وقائع عرضية مماثلة وكثيرة، سيكون من شأنها أن تمد حواراتنا الصباحية هذه بالمتعة وتغذيها بالترويح*».

نهضت واقفا لأنصرف وفى نيتى ألا أعود إلى مقابلته إطلاقا بعد ذلك. وكنت فيما مضى أقول (لنفسى) بوضوح إننى سوف أعزف وأضرب صفحاً بمحض رغبتى عن كل ما لا يروق لى أو يعجبنى، لو أن ذلك كان فى إطار إمكاناتى وكان مفهوما بالنسبة لى. وأثناء انصرافى والاضطراب يمور فى أعماقى، (خُيّل لى أننى) شاهدت الغلام (الذى سبق أن شاهدته من قبل فى الجزيرة) وهو ممسك بعنان فرسى تحت التعريشة ذات الظل الوافر والأزهار العنقودية الزرقاء. امتطيت جوادى

وكنت أرقب (الغـلام) وهو يحـدق فـى وجـهى أثناء إعطائه اللـجـام لى، ولفت نظرى بوجه خاص أنه ترك يده لبرهة من الزمن فى يدى؛ وكانت يده صـغيرة ورقيقة.ولكنى آنذاك شاهدت على حين غرة حبراً ذا لون بنفسجي وهو يتسـاقط متقطعا على هيئة قطرات من العناقيد المزهرة المتدلية فوقنا. كما شاهدت لون أيدينا وهو يتحول إلى ذلك اللون البنفسجى. لقد كان (غلاماً) رقيقاً - هذا ما استنتجته - لذلك فسوف أعاود رؤية هذه الألوان من جديد أثناء مشاركتى فى أعياد الربيع الجنائزية، وأن هذا سيكون بمثابة اعتذار تقدمه الطبيعة لى تعبيراً عن رفضها السابق أو عن شرور البشر. كان غلاماً رقيقاً - كررت هذا القول لنفسى من جديد - إذ أنه لمس يدى لأول مرة كى يزجى إلى تحية الوداع... أم تراه لمس يدى ليمدنى بالشجاعة؟

غير أن طيف الغلام تلاشى فى هذا المداد البنفسجى الذى كان يغمر التعريشة! أغلب الظن أنه سوف يحتفل مع ذويه بعيد الفصح اليونانى - كان هذا هو ما فكرت فيه - فدعه إذا يذهب إلى كنفهم!

ورفعت إلى خديوى مصر تقريرا عن محادثتى مع **عمر باشا**، وأضفت إليه أننى على أثر تلك المحادثة - منذ أيام قليلة خلت وإلى الآن - لم أتخاطب معه أو أتصل به إلا عن طريق جنود المراسلة. ورد الخديوى علىّ بأنه يوافق على ما فعلته ويقره، وإن كان يرى أن من الأصوب فى المستقبل - من أجل أن تنجح خططنا وتفلح مساعينا - ألا نجعل الأمور تصل بنا إلى مثل هذه النهاية؛ ونصحنى أن أتخذ موقفا وسطا أو توفيقيا بغير أن أقدم على تصرف يشى بالتذلل أو يصمنى بالإهانة.

ولم يكن أمامى خيار أو بديل آخر، ولذا فقد قبلت (مرغما) أن أتخاطب مع **عمر باشا** عن طريق جنود المراسلة فى انتظار أن تكون الأيام القادمة أفضل، ذلك أن الشجار بما يحويه من صياح ورفع عقيرة كان يثير الضيق فى نفسى، خاصة عند الوصول إلى نقطة كنت أسأل نفسى خلالها أكثر من مرة عما إذا كنتُ بالفعل على حق فى كل ما نطقت به أم لا ! ولم يكن ينبغى على أن أنسى (أو أتناسى) أن (**عمر**

باشا) كان يعلونى برتبة فى سلك الدرجات الوظيفية، وأن هذا كان من شأنه أن يتطلب منى اتباع طريقة معينة فى أسلوب التخاطب أو التحادث معه. ترى هل فاته أن يذكر فى حديثه لى - أم تراه فعل ذلك عمدا - أنه كان يتمنى لى الشر والأذى؟ لقد كان وقحا ما فى ذلك شك، ولكن ما أثارنى وأغضبنى حقاً هو أنه كان وبنفس القدر خبيثا وشريرا.

وكان ذلك الأمر على وشك أن يثير غضبى ونقمتى عليه أكثر، لولا أن وفد جندى مراسلة ذات يوم وأنهى إلى أن الجيش التركى - المصرى سوف يرحل عن المناطق الغربية من الجزيرة، وسوف يتجه إلى المناطق الشرقية، بهدف أن يطبق على حركة الثوار الفدائيين هناك عن طريق احتلال الهضبة الشرقية الكبرى. **(واستبشرت آنذاك خيرا)** لأن هذا سوف يتيح لى أن أرى من جديد وعلى وجه السرعة وطنى الأول ومسقط رأسى.

الفصل الخامس

انطلقت بصحبة جيشى فى المناطق الشرقية، وكنا نسير خلف الجيش العثمانى الذى كان يضرم النيران ويقدم على السلب والنهب فى كل مكان يخضعه لسلطانه. وبينما كنا نتقدم جاءتنا أخبار مؤداها أنه رست - فى ميناء صغير كان يسمى ميناء **سيسى الأركادى Sisi to Arkadi**، وأسماه العثمانيون نظرا لسرعة حركة مياهه **خيطان فابورى Cheitan Bapori**-* رست سفن كان على متنها متطوعون كثيرون، وزاد من الأطعمة، وعملات مالية من فئة العشرين فرنكا، وأدوات طبية، وذخيرة. وهرع السكان كى يوصلوا هؤلاء الغرباء المتطوعين إلى مخابىء الثوار الفدائيين وكهوفهم، حاملين على ظهر دوابهم أو على أكتافهم كافة الأدوات التى يلزم نقلها. وكان الضباط (اليونانيون) فى هذه المناطق يتابعون تقدمنا عن كثب، وكانوا يضعون العراقيل فى وجهنا، أو يقضون مضجعنا كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وكان **كوراكاس** قد هرع بالفعل إلى الهضبة على أمل انتظار الجيش الإمبراطورى العثمانى فى الموقع الذى سيصل إليه، وذلك لأنه علم أن الهضبة هى هدفنا ومبتغى حملتنا العسكرية. وكان من المعروف على الدوام - على الأقل بالنسبة لى - أن الثوار الفدائيين كانوا يتكاثرون بمثل تكاثر الأعشاب الضارة فى حقول القمح ذات السنابل، وأنهم كانوا يخفون أنفسهم أسفل بطون الخراف**، وأن سكان الجزيرة العزل من السلاح كانوا يعطون طوعا واختيارا للمقاتلين المسلحين كل ما يلزمهم.وسرعان ما تم جمع حشد غفير من الجنود النظاميين والجنود الاحتياطيين.

---

* وهى تسمية تركية لهذا الميناء، وتعنى باللغة العربية «**باخرة خطاى**»، نظراً لأن كلمة وابورى (التى تنطق فى اللغة التركية «فابورى») تعنى باخرة أو سفينة. أما كلمة «**خيطان**»، فالأرجح أنها مشتقة من كلمة «**خطاى**»، الاسم التركى للواء **الإسكندرونة** القريب من حدود سوريا.

** فى هذا إشارة إلى ما قام به البطل **أوديسيوس**، هو وزملاؤه - بعد فقأ عين **الكيكلوبس** Kyklôps، الوحش الأسطورى ذى العين الواحدة فى ملحمة **الأوديسية** - عندما أرادوا ألا يقبض عليهم هذا الوحش عند هربهم من الكهف الذى أغلقه عليهم.

وفى بواكير شهر مايو توجهت إلى مدينة **هيراكليون** Hêrakleion، وكان التجار اليونانيون الذين وفدوا للاستقرار فى هذا الركن من الإمبراطورية العثمانية قد غيروا اسم المدينة(القديم) إلى **هيراكليون**، وكأنهم كانوا يعمدونها من جديد باسم واحد من رواد الاستيطان البحرى القدامى*، الذى ورد ذكره فى الأساطير القديمة مرتبطا بذات الموقع. والحق أن الاسم الجديد لم يصنع منها مدينة جديدة، وبمعنى أدق لم يغير شيئاً من مينائها الشهير، وهو الموقع الوحيد فى المدينة الذى قدر لى أن أشاهده بصورة مختلفة (عندما كنت غلاما صغيرا). فهنا.. وفى ذات المكان ـ منذ سنوات بعيدة خلت ـ تولد لدى إحساس بأنه عند هذا الموقع توجد نهاية الأرض، ونهاية اللغة، ونهاية الرحمة. ولكننى الآن عرفت أن هذا الإحساس كان يمثل حقيقة، ولكنه لم يكن الحقيقة. وطالما تساءلت فيما بينى وبين نفسى عن كنه ذلك الخيال التاريخى الذى أقام الحصن تقريبا وسط البحر ذى اللون الداكن، والذى كانت أمواجه تلتهم الأحجار الضخمة لأسوار الحصن الخارجية، وكأنها مرض بشرى فتاك. وكانت الراية المرمرية المرسوم عليها أسد القديس **ماركوس**، والمرفوعة والمشرعة باستمرار عبر القرون، قد تقادمت وبليت بفعل مرور الزمن، وكادت تصبح غير معروفة من كثرة ما طرأ عليها من تمزق؛ على حين كانت راية الباب العالى المصنوعة من الحرير تتماوج مع هبات الريح خلال النهار.وتصادف أن الرياح آنذاك كانت تهب من جهة الشمال، فيممت شطر اتجاه هبوبها لأحظى بالانتعاش والراحة حينما يداعب النسيم جبهتى التى كادت تلتهب من فرط الحرارة.

وقلت فى نفسى إن كلا من المنتصرين والمهزومين ـ منذ قرون كثيرة خلت ـ قد شيدوا مسرحا مثل تلك المسارح التى كان من حظى أن أشاهد فيها عروض الأوبرات الأوروبية قبل سنوات طويلة، وذلك من أجل أن يعرضوا فوق هذا المسرح الفصل الأخير من حياتى، ويقوموا بتمثيل أحداثه على خشبته. ذلك أن ذكرى الغلامين اللذين تم أسرهما واللذين افترقا عن بعضهما إلى الأبد فى هذا الميناء، ثم تضافرت على التفريق بينهما حتى النخاع سبل مختلفة، قد غيرت الماضى

---

* تقصد المؤلفة هنا البطل الأسطورى **هيراكليس** الذى جاب أقطارا كثيرة واستوطن عددا منها.

والحاضر بغتة، وأحالتهما إلى عناصر زخرفية لحادثة عرضية عابرة. لقد كان تأثير الزيف علىّ عنيفا جدا، لدرجة أننى فكرت فى أن تلك الحادثة العرضية العابرة التى تم تمثيلها أمامى لم تحدث على الإطلاق فى حياتى الحقيقية.فماذا يعنى - يا ترى - أن يكون لى شقيق غريب عنى وخصم لى فى آن واحد؟ ومما زاد الطين بلة أنه لعب دوره بامتياز، إلى الحد الذى جعلنى أعتقد أنه شقيق حقيقى. وعلى أية حال، فلو كان هناك شخص يستطيع أن يقيم الدليل على أنه وجد حقا فى هذه الرواية التمثيلية، ولو كان هناك شخص تمزق قلبه حقاً وانفطر حزنا على هذا الفراق، لكان هذا الشخص هو أنا لا سواى! ولم يكن بمقدورى أن أبرهن على صحة شىء آخر بخلاف أمر واحد، وهو أننى كلما وُجدت مرة أخرى فى هذا المكان ذاته، كلما عرفت فحسب حقيقة حياتى، بوصفها حياه فعلية لا بوصفها تقليدا أو محاكاة للحياة؛ ولكننى كنت أشك وأستريب فيما عدا ذلك من أمور.

شاهدت الحصن الخشبى الذى تمت كسوته بألواح من الكرتون المصبوغ من أجل أن يبدو للناظرين وكأنه شيد من كتل من الحجارة أوهنتها أمواج البحر. وكانوا قد رسموا أيضا الإنجيل وأسد مدينة فينيسيا*، بالقرب من إحدى رايات السلطان العثمانى التى كانت ترفرف آنذاك وتتماوج. وأمام الحصن شيدوا رصيفا صغيرا معبّدا بالحجارة، حيث كانت توجد أعمدة منخفضة تبدو وكأنها مبنية من الحجارة. وهناك فوق واحد من تلك الأعمدة كنت قد لامست يد شقيقى للمرة الأخيرة.

تقدمت وأنا أرتجف تجاه هذا العمود ولمسته بيدى، وسمعت مرة أخرى ذلك الصوت المصاحب لأمواج البحر وهو لا يكف عن الثرثرة مع الموانى. وأحسست ببرودة العمود تسرى فى أوصالى كما لو كان عمودا حقيقيا من الحجارة، ولكننى

* كانت مدينة فينيسيا إبان ازدهارها تسمى بالصفة Serenissima، التى تعنى «المدينة ذات الهدوء البالغ والسكينة، أو المدينة ذات الديمقراطية الهادئة». ولقد تمت ترجمة هذه الصفة فى اليونانية بكلمة Galênotatê، وغدت تطلق بعدها كناية على المدينة ذاتها بغير أن تترجم كمعنى.

لم أولى هذا الأمر من الاهتمام أكثر مما يستحق. فأزلت الرطوبة المالحة التى تراكمت على العمود بلمسات رقيقة من يدى، كما لو كنت أمسح حبّات العرق عن جبهتى؛ أم ترى أن هذا كان نوعا من هذيان الحمى؟ فلو أننى تحسست جبهة شقيقى بيدى لوجدتها باردة لا تنم عن وجود حياة به. إذ أنه لم يرد علىّ- مثله فى ذلك مثل كل الهالكين لا محالة - حينما سألته مرة أخرى فى ذات الموقع بعد انقضاء عدة سنوات عن اسمه، وأنا أتوسل ضارعا إليه أن يرحمنى بصوته، ولكنه لم يتكلم. لقد وقعت كل هذه الأحداث ذات مرة مثل جريمة قتل اقترفت دون أن يقوم أحد بعرض تفاصيلها؛ ولقد انتهت (هذه الأحداث) الآن وأصبح من المستحيل تغييرها. ولم يعد هناك من شىء يبحر فوق الماء سوى رغبة الجسد الآخر، وكأنها قطعة قذرة من الخشب استغنى عنها العامل ذو الخبرة... أجل ! إنها قضايا المهزومين والمنتصرين (مرة أخرى).

(سقطت مغشيا علىّ)، وعندما أفقت من إغمائى وجدت نفسى ممددا فى خيمتى ومحاطا بالأطباء وبالضباط. وكان الأطباء منزعجين للغاية بسبب الحمى التى داهمتنى على حين غرة وبسبب سقوطى مغشياً علىّ. ولقد نصحنى طبيبى الخاص - بل كاد يتوسل إلىّ - بأن أعهد إلى أحد الضباط المحيطين بى بالاضطلاع نيابة عنى بالواجبات الإدارية لمدة يوم أو يومين. وبينما كان (الطبيب) يحدثنى لمحت ومضة تنير مثل البرق فى عينىْ أحد ضباط الصف الأتراك الذى كان يقف على مقربة منى. وكنت أعرف فيما بينى وبين نفسى أن (هذا الضابط) كان يتجسس على، ولكننى لم أكن أخشاه، لأننى وبكل تأكيد كنت أعرف مبتغاه. وكانت حالة الإغماء المفاجئة التى أصابتنى من شأنها أن تخدم مخططات **عمر باشا**,حيث إنه كان قد شرع فى الوقت الحاضر فى نشر شائعات حولى، مؤداها أننى مسيحى فى الخفاء ومحب لليونانيين. ورغم أننى كنت فى غاية الإرهاق إلا أننى رفضت أن أعطى لواء القيادة لشخص سواى، وأعلنت أننى بحال لا بأس بها، كما طلبت من كل الحاضرين أن ينصرفوا بعد أن أزجيت لهم الشكر، ورجوتهم الا يبقى منهم

أحد سوى الضابط المعاون التابع لى لكى نتباحث سويا فيما يمكن أن نقوم به؛ كما أنهيت إليهم أن السبب فى مرضى هو أننى قد تناولت طعاما فاسدا، أو ربما انتابنى الإرهاق من طول المسيرة وتقلب الطقس.

وخلال الأيام التى تلت ذلك تلقيت أنباء من ولىّ العهد فى مصر، يطلب منى فيها أن أتمهل فى تنفيذ عملية الهضبة الشرقية مراعاة لصالح مصر، التى كانت (حكومتها) ترغب فى أن تنال السيادة والسلطان على الجزيرة، ولم تكن تريد فى نفس الوقت أن تتورط فى معارك أكثر مما حدث، كما وعدنى ولى العهد بأن يمنحنى مزايا أكثر. كذلك كتب لى ولىّ العهد أن **نوبار باشا** - الذى كان يتولى أمر التفاوض مع الباب العالى بخصوص المسألة المصرية - قد تلقى أمرا منه بأن يستخدم المرض الذى ألمّ بى كمبرر يفسر وجوب عدم تقدم الجيش المصرى أكثر من ذلك صوب المناطق الشرقية، قبل أن يتم تماثل قائده الأعلى للشفاء. كما نصحنى بأن أتظاهر بأن وطأة الإغماء قد اشتدت علىّ أكثر من ذى قبل.

ولم أكن بحاجة لأن أتظاهر باشتداد العلة علىّ، لأن الحزن الذى انتابنى بسبب أوبتى إلى مسقط رأسى كان يجثم بشدة على صدرى. ولم يكن من المستطاع أن تظل حالتى خافية تماما عن الأعين. فلقد بدأ أكثر الناس قربا منى فى النظر إلى بطريقة مختلفة.

وعلمت أن **عمر باشا** كان يعد العدة لبدء حملته العسكرية. ولم أكن قد خرجت على الإطلاق من المعسكر، لأننى لم أكن أطيق لأى سبب من الأسباب أن أشاهد هذا الميناء مرة أخرى. أما باقى أجزاء المدينة فكان مجهولاً بالنسبة لى، ومع ذلك كنت أخشى أن أعبرها مثلما كنت أخشى وأنا غلام صغير أن أذهب فى جنح الليل إلى الجبانة، وأن أصغى إلى ذلك الصوت الهامس الصادر عن الهواء وهو يحرك أشجار السرو، ويهدد (بإطفاء) القناديل ذات العدد القليل. ولقد علمت من مصادر كثيرة ومتنوعة أن **عمر باشا** كان قد أرسل المنادين إلى كل القرى طالبا تطوع

الأفراد فى الجيش، كذلك قام الدراويش (رجال الدين) بدعوة المؤمنين إلى الحرب المقدسة. وغصّت طرقات المدينة الرئيسية بالأغوات، والبكوات، والمشايخ، والخيول؛ كما امتلأت الحارات بالسيدات الهوانم اللائى استولى الجزع على نفوسهن. وكانت هناك أقاويل سَرت مؤداها أن والدة **على بك**، ابن **فراتزيريس** **Bratzerês** الأصغر الوسيم، قد خرجت من بيتها من غير نقاب ولا (يشمك) كى تلحق بولدها (**على بك**) فى منطقة تريس **كاماريس** Treis Kamares (الغرف الثلاث)، وأنها تحدثت معه عن الكلب الذى ظل ينبح فى حظيرته لمدة يومين (بلا توقف)، وعن الحلم المزعج الذى حلمت به امرأته الأثيرة إلى قلبه؛ وقالوا إن ابنها ترجل حينئذ عن جواده ليقبل يد والدته ويقسم أمامها بعزمه على الانتقام. وعقب ذلك انطلق خارجاً من المدينة بغرض الانضمام إلى جيش **رشيد باشا**، القائد التركى على تلك المنطقة؛ وكان رشيد باشا قد تقدم فى مسيرته وأقام معسكره فى **كاستيلى** Kasteli، وهى قرية كبيرة تقع خارج نطاق ستارة الجبال التى كانت تطوق الهضبة.

وبينما كنت أنتظر زوال هذا السقم الذى حل بى - أثناء إقامتى فى معسكرى الواقع فى منطقة **الكهوف** Spêlia خارج مدينة **هيراكليون**، وأثناء قيامى بما استطعت من استعدادات من أجل الحملة العسكرية التى لا محيص عنها، تذكرت معلومة كان (ابن عمى) **يوانيس** قد ذكرها لى. وفى الحق أنه لم تكن لى أدنى علاقة - طوال الوقت الذى أمضيته فى الجزيرة بوصفى قائداً للجيش المصرى بها - (بقريبى) **يوانيس**، لأننى كنت أخشى أن أثير الشكوك حولى. وكنت أعرف من ناحية أخرى أن ولىّ العهد بمصر كان يراقبنى عن كثب مستعينا برجاله الذين بثهم بالقرب منى، وكنت بالفعل قد عرضت نفسى للخطر عندما ساندت (**يوانيس**) بمحاباتى له فى مصر، بطريقة جعلت الألسن تلوك سيرتى. ولقد استشعرتُ سلفا - بل وبرهنتُ على صحة ما استشعرته بعد فترة قصيرة تلت ذلك - أنه كانت هناك رغبة شديدة كامنة داخل (**يوانيس**) فى أن يصبح ثرياً، بالإضافة إلى مشاعره تجاه قريبه المفقود، وأن هذه الرغبة قد دفعته إلى أن يطأ بقدم لا ترحم فى قسوتها

أثقل الأوزار التى أفترض أننى قد تعرضت لها. والحق أننى أتحت له الفرصة لأن يغدو ثريا، ولأن يعتقد ما يحلو له بالنسبة لى. ولم يكن الأمر متعلقاً بالحديث معه عن التوازن الصعب الذى يمكن تحقيقه بالفعل بين الإدانة والبراءة؛ كما أن (**يوانيس**) كان من ناحية أخرى مختلفا عنى (فى شخصيته) جِدّ الاختلاف.غير أن السحر الناجم عن مقابلتنا معاً ظل يسيطر علىّ باستمرار: فلقد كنت مديناً له بالأخبار الطيبة التى عرفتها عن حياة شقيقى، وعن بداية النهاية بالنسبة لى. وفضلاً عن ذلك، فإن الحيرة البالغة ظلت تسيطر علىّ أملا فى معرفة كنه الحتمية، التى توجد فى نفس شخص واحد بين الفضيلة و الرذيلة فى طريق واحد.

فحينما كنا نتحدث معاً عن الأقارب أخبرنى **يوانيس** - الذى كان يعرفهم جميعا بطريقة مدهشة، رغم أنه لم يكن قسا من رجال الدين بل كان موظفاً يعمل فى شركة وطنية - بأن هناك اثنين من أقربائنا يسكنون فى إحدى القرى بالقرب من المدينة؛ وتصادف أن هذه القرية كانت تقع بجوار المكان الذى كنت قد أقمت فيه معسكرى. لذا فقد ناديت على أحد الأتراك من سكان المنطقة، وبعثت به لكى يستدعى هذين القريبين لمقابلتى، لأنه كان من الشائع فى كثير من الأحيان أن يفد مواطنون يونانيون إلى معسكرنا للقيام بأعمال نكلفهم بها، ولم يكن مثل هذا التصرف مسلكاً مثيرا للشك أو الريبة. ولم يكن هناك سوى شخص واحد فقط، هو الذى يمكنه أن يلوى عنق حقيقة مثل هذه الزيارة عن عمد وتشويه صورتها، ألا وهو **عمر باشا**. ولكننى لم أعر مثل هذا الأمر التفاتا أو أعلق عليه أهمية، حيث إن الشهر الأخير من عمرى كان قد بدأ بالفعل فى التناقص، وحيث إن الكراهية القائمة بيننا كانت حقيقة مسلماً بها. ولكن الرجل التركى الذى بعثت به رسولا لم يخبر هذين القريبين، ولذا فقد طلبت منه مرة ثانية أن يذهب إليهما ويخبرهما، حيث إننى لازلت مريضا وليس فى مقدورى أن امتطى جوادى. وبالفعل استطاع هذا التركى العثور عليهما آنذاك، وأخبرهما بما قلته، ولكنهما خشيا أن أقوم باتهامهما بالاشتراك فى أنشطة معادية للإمبراطورية العثمانية، وأن أقوم بالتالى بأسرهما كرهينتين على أسوأ تقدير. وإلا

فما معنى - وكان هذا هو ما قالاه لنفسيهما - أننى غير قادر على امتطاء فرسى، والذهاب بنفسى للعثور عليهما بوصفى قائدا للجيش المصرى؟ حيث إن منزلتهما الاجتماعية كانت تتطلب مثل هذا التصرف، لأنهما كانا من المواطنين البارزين، وكان واحد منهما يشغل منصب القس. ومع ذلك فقد تملكهما الرعب بدرجة كبيرة خشية أن أقوم بمطاردتهما واضطهادهما، إذا هما لم يمتثلا لأوامرى. وعلى ذلك فقد وفد إلىّ القس، تقريبا فى اللحظة التى كان الجيش بأسره يتحرك فيها لشن الحملة العسكرية، وما أن شاهدنى حتى بادر بالانحناء أمامى وقد ملأ الفزع جنانه.ثم التمس منى الصفح لعدم حضور شقيقه معه - كما أمرت - وأخبرنى (أن أخاه تأخر) لأنه لا يزال يرقد فريسة للمرض، وأنه سوف يحضر لمقابلتى بمجرد أن يتعافى. كان الرجل يرتجف وهو يخبرنى بهذا العذر المختلق الذى ساقه عن شقيقه، رغم أننى لم أشك فيه، لا ولم تداخلنى الريبة حتى فى مظاهر الرعب التى استولت عليه، وجعلته يفضل الاحتماء خلف زيه الدينى. وطلبت من رجالى أن أبقى وحدى مع الضيف فى الخيمة، وبعد أن انقضت برهة من الوقت اقتنعت خلالها بأننا أصبحنا بالفعل وحدنا، أوضحت له من أكون فى الحقيقة، وتحدثت معه عن عائلتى التى كانت تعيش فى الهضبة وعن الموضع الذى كانت تقطن فيه. ولم تبد عليه أدنى رغبة فى تصديقى، ولكنه كان يخشى أن تكشف ملامحه عن أمارات عدم التصديق، فاكتفى بقوله بأنه قد مرت سنوات وسنوات منذ أن اختطفت يد المنون أفراد أسرتى جميعا.
ولم يعترنى اليأس من موقفه، فشرعت أتحدث معه عن (قريبى) **يوانيس**، وعن المساعدات التى قدمتها له (عندما جاء لزيارتى) فى مصر، وعن المقابلات التى جرت من قديم بينه وبين يوانيس، وهى علاقات كان **يوانيس** قد أحدث لى منها ذكراً، وكانت تشتمل على ولائم وكرم ضيافة، وصلات تعميد و زواج ومصاهرة، وعلاقات بيع وشراء، وغيرها. ثم إننى أخبرته فى الختام بالعلامة المميزة التى كانت توجد فى رقبة أفراد عائلتنا، وجذبت ياقة قميصى لكى أظهرها له، وكنت أثناء ذلك أقول له إننى لم أكن مجبراً حتى الآن، على إظهار هذه العلامة لأى مخلوق مهما كان، وكنت أعنى بذلك (ابن عمى) **يوانيس**.

وعند ذلك الحد تعرف كل واحد منا على زميله، فأطلقت العنان لنفسى لأعترف أمامه حثيثاً بالخوف من النذر التى توحى بأن نهاية عمرى كانت توشك على الاقتراب، ولكى أحكى له عن شكوكى تجاه القائد الأعلى **عمر باشا**. ثم أفضيت إليه بأن ما بعث الضيق فى نفسى هو أننى عدت إلى الهضبة (مسقط رأسى) على هذا النحو؛ ولكنى فى الوقت نفسه تحاشيت وصف الطريقة التى عدت بها. وعسى ألا يعتبر الرجل هذا التصرف من جانبى بمثابة خطيئة! وعسى ألا يكون مسلكى هذا - طبقاً لإحدى وجهات النظر - مسلكا بريئا خاليا من أى وزر! غير أنه مسلك يشكل - على أكثر تقدير - مجرد تحقيق واقعى لخيالى؛ هذا لو كان بوسع الرجل أن يفهمنى. وبدا لى أننى لم أتح للرجل فرصة تتحرك فيها مشاعره بفعل وقع كلماتى، لا من منطلق البعد الذى وجب عليه فيه - بوصفه (كاهناً) يتلقى منى اعترافا - أن يحافظ على (سرية) اعتراف حقيقى، بل بسبب كونه عاجزاً عن التعاطف فجأة مع باشا قاهر منتصر ومرتد عن دينه. ورغم هذا كله، وحيث إننى تفهمت حقيقة اعتراضاته، فقد التمست منه أن يفعل شيئاً من أجلى، على الأقل كى يصبح بوسع أحد أقربائى بالدم أن يتبعنى فى هذه الحملة العسكرية فأتخذ منه حارسا لى، حيث إن الشائعات التى كان يروجها **عمر باشا** مؤخرا كانت قمينة بأن تؤثر أبلغ الأثر فى نفوس أخلص ضباطى وأكثرهم وفاء لى، وأن تقدم لهم كذلك مبررا (لمناهضتى) لو فرض وأنهم كانوا يحتاجون مبرراً لذلك فى وقت من الأوقات. توسلت إليه بإلحاح رغم أننى كنت أعلم حق العلم أننى أحقر من شأنى فى عينيه كضابط كبير، حينما ألتمس منه مثل هذه المساعدة الضئيلة. ورد على بقوله - وكان قدر من التعاطف معى قد بدأ يغمر جوانحه - بأنه لا يستطيع أن يتبعنى بسبب زيه الدينى، ولكنه ألمح إلى (استطاعة) شقيقه القيام بهذا، وتعهد أمامى بأنه سوف يتولى إقناعه. واتفقنا على أن يقابلنى عندما أتخذ طريقى صوب معسكرنا فى **كاستيلى**، وهى المحطة الأخيرة للجيش العثمانى قبل أن يصل للهضبة.

عدت أدراجى مرة أخرى لكى أمضى فى طريق الأسر ذاته، وكان الفرق الوحيد هو أننى أذرع الآن (هذا الطريق) وأنا ممتط صهوة جوادى، وأقطع الآن صفحته

وأنا فى صحبة جيش غفير العدد، وأن مبتغاى هو أن أقوم بأسر الآخرين. وقبل أن أنطلق فى رحلتى هذه، كنت قد تأكدت من أن المدية لا تزال موجودة فى الزنار الذى يطوق خصرى، ولذا فقد كنت أثناء تقدمى على ظهر فرسى أضغط على المدية لأحس بملامستها لجسمى، حيث إنه لم يكن بمقدورى - على أى حال من الأحوال - أن أخلع نعلىّ، وأن أسير بقدمى العاريتين فوق التراب، وأن أردد فيما بينى وبين نفسى: *أن هكذا ينبغى أن يلامسنى الثرى*! ثم تلفت حولى بحثا عن صحبة الغلام الذى اعتدت أن أراه مؤخرا، والذى هجر صحبتى خلال هذه الأيام كلها؛ وخمنتُ أنه كان يقيم فى تلك الأثناء مع ذوى قرباه عشية الاحتفال بالأعياد الدينية. وبغض النظر عن ذلك، فقد كان (هذا الغلام) يحضر من تلقاء نفسه عندما يحس بالرغبة فى ذلك، دون أن يلقى بالا لرغبتى أو اشتياقى له. كذلك لم يحضر شقيق القس لكى يصحبنى فى مسيرتى، وكنت أتوقع منه أن يشعر بالخوف منى. ولقد تملكتنى الحيرة من أمر هذين الشقيقين: إذ كيف فكرت فى أنهما سوف يقبلان رفقتى ومد يد المساعدة لى؟

كنت وحيدا وحدة قاتلة، فتركت على الغارب حبل أفكارى الذى أماط نفس الطريق عنها اللثام منذ أكثر من نصف قرن، لكى يكشف لى مرتين عن طريق الخروج من عالم الواقع، كما لو لم تكن هناك مساندة أخرى يمكننى الاعتماد عليها .كنا فى هذه الآونة نمر بفصل آخر من فصول السنة، وحرصت على ألا أسأل الغائبين عن أعمالهم خلال فصل الخريف الذى يتعلق بفترة الأسر الذى تعرضت له، بل عن أعمالهم إبان فصل الربيع الذى يتعلق بعودتى إلى مسقط رأسى. كنت أسألهم عما إذا كانوا قد قاموا بتنظيف أرض الحقول والحفر التى تغرس فيها الأشجار من الأعشاب البرية، وعما إذا كانوا قد قاموا بوضع السماد للبذور التى غرست وفرغوا من تسميد البساتين، وعما إذا كانت أشجار التفاح قد أينعت وتفتحت براعم أزهارها. وكان ينبغى - فى مثل هذا الوقت من العام - أن تكون مساحة الهضبة المربعة على امتدادها قد اصطبغت بالخضرة اليانعة، التى تشكل

قوامها أوراق الشجر النابتة حديثا والتى بدأت تتخذ فى التو لونا داكنا بفعل نضجها. ثم عاودت السؤال مرة أخرى، وسمعت بأذنىّ من جديد كل أسماء العائلات والأسر، وكذا اسم قطعة الأرض البارزة الممتدة فى كل من السهل والجبال؛ كل شىء فى الهضبة إذن ظلّ باقيا على حاله لم يتغير! وشعرت بالغبطة والسعادة من أننى سرعان ما ألتقى بحقيقة التسميات وأمتزج معها، لأن صداها الذى ظل دون تغيير يذكر كان يبدو لى وكأنه قابع فى انتظارى.وقلت لنفسى إننى كنت آنذاك أشاهد أشخاصا أمامى..أجل كنت أشاهد أشخاصا لا ينقصها سوى الحركة..أشخاصا انقلبت فى التو إلى ألغاز وأحاجى!

اختلط الوداع فى ذهنى مع العودة، وطفق كل منهما يؤثر فى الآخر، وكان مبتغاى آنذاك أن أقوم بالفصل بينهما، وأن أمتلك القدرة على التمييز بين كل منهما. وأدركت على الفور أنه - طالما أننى ارتكبت الخطأ الذى أدى بى إلى أن أقرن بينهما - فلن يتسنى لى أبداً أن أفصل كل منهما عن الآخر. فإذا كانت هذه الطريق نفسها لم توصلنى ذات مرة إلى الأسر، فإنها لن تكون قادرة الآن على أن تقود خطاى نحو العودة. فلقد كانت أوبتى لمسقط رأسى ببساطة مجرد صيغة مختلقة لرحيلى. واعترتنى رعدة خوفا من أن يكون مقدراً علىّ ألا أنجو أبدا من أغلال العبودية. وكان السؤال الذى طرأ على ذهنى هو: *ماذا كان هدفى إذن من سعيى إلى العودة؟* وكانت الإجابة على ذلك السؤال هى: *ربما كان هدفى هو الحصول على حرية ملاقاة الموت*. ولكن، ترى هل كنتُ آنذاك قد قضيت نحبى على المستوى الرمزى؟ وكيف سيصبح فى مقدورى - بناء على ذلك - أن أضمن أن موتى الثانى هو الذى سوف يحررنى؟

لم يكن ينبغى علىّ أن أتقبل لعبة الأفكار هذه، لأنها كانت تخرج خيالى عن إطاره وتشتته تشتيتا. وبناء على ذلك - ففى غمرة السعادة التى تمنحها للإنسان أكثر الألعاب (الذهنية) خطورة - وجدت نفسى أتحول على حين غرة إلى الشعور بالمقت تجاه أى أمر يمكن أن يعنيه لى سنّ طفولتى التى ولّت وانقضت. فلم أكن أرغب فى

أن أحيا فى مثل هذا المكان، ثم أتعرض بعدها للأسر وذل العبودية .. ترى من منهما جعلنى أرسف فى أغلال العبودية: هل هو ذلك المكان المفقود، أم هى مصر؟ ثم سألت نفسى من جديد عما إذا كانت سعادتى باللعبة (الذهنية) الخطرة تنبع من رهانى على الأوبة! ولكننى وجدت مرة أخرى أن كلا مما عرفته وما جهلته لم يتضح أمامى (بحذافيره) فى كل لحظة. ذلك أن كراهيتى فى تلك اللحظة كانت تامة غير منقوصة، غير أننى علمت أن (هذه الكراهية) يمكن فى اللحظة التالية أن تنسحق ثم تطحن، ثم تغدو رمالاً فى الصحارى القاصية. ولو أنه قدر علىّ أن أخوض معركة حربية ضد أى شخص، لكان هذا الشخص هو حياتى الأولى. إذ أنه سوف يقدر علىّ أن أتسبب فى وجود نفس الأخطار التى سممت حياتى لسنوات عديدة فى ذات المكان. ففى وسط النساء اللائى سوف يتم اغتصابهن، وفى وسط الرجال الذين سوف يتم نحرهم، وفى وسط الأطفال الذين سوف يساقون (إلى الأسر) وهم مصفدون فى الأغلال، سيكون مقدرا علىّ أن أعايش من جديد تاريخ أسرتى، بل أن أنزل العقاب الصارم بتاريخ عائلتى. وشعرت بفرحة (غامرة) من أنه سوف يقدر علىّ - أنا نفسى - أن اقتل فى داخلى الطفل الذى كان يعذبنى وكأنه رجل. أما متعة الدم الذى كان مقدراً له أن يسيل (أنهاراً)، فقد هيمنت علىّ، وكأنها اضطراب ناشىء عن إحساس بالدوار تزوغ فيه الأبصار؛ وكنت أكن مقتا شديدا حتى هذه اللحظة تجاه هذه المتعة التى أراها متجسدة فى الآخرين.

هفت نفسى إلى الراحة والاسترخاء، (وقلت لرفاقى) أنْ ليس بى شىء، أريد فقط أن أجلس تحت شجرة زيتون وأدخن. ثم دلفت مع الحاشية التى كانت ترافقنى إلى ظل شجرة زيتون باسقة، وترجلت عن صهوة جوادى... وأخيرا وطئت قدماى ثرى الهضبة (مسقط رأسى). وطلبت من رفاقى أن يضعوا الوسائد على أطراف السجادة، وكنت وأنا منهمك فى التدخين أسحق بأصابعى كتلة متجمعة من تراب الأرض. ولقد تابع طبيبى الخاص ما كنت أقوم بفعله ولم يعلق عليه بشىء، فلقد كان يعلم أن جسمى قوى وأن ساقى كانت تقريبا بخير. ولو كنت حقا أرغب فى محادثة

(طبيبى الخاص) لفعلت هذا فى التو، فبعد برهة وجيزة من الزمن لن تسمح المعارك لى بالإدلاء باعترافات أخرى. ولكننى لم أكلمه رغم أن كلينا كان يحس بأن الآخر مستعد لإجراء تلك المحادثة. فلقد كنت غير قادر فى هذه اللحظة على التحدث إلى نفسى إلا باللغة اليونانية فقط، وقطعا لن يفهم طبيبى الخاص منها شيئا. وكنت قد أيقنت من قبل أن كل حقيقة تنشد اللغة التى تناسبها، مثلما كان الحال عندما وفدت إلى مصر، إذ افترضت بوحى من إحساسى أن كل بلد أو مكان يتطلب لغة خاصة به. وربما كان السبب فى هذا هو أننى لم أكن أملك بعد حقائق تميز حياتى هنالك، وربما كان السبب الآن فى ذلك هو أن المكان (الذى يمثل بالنسبة لى مسقط رأسى) قد توقف عن الوجود فى الجزيرة (بهذه الصفة) طوال فترة الحملة العسكرية، وأن ألوان فصل الربيع قد زودتنى قبل أيام قليلة بالشجاعة دون وجه حق. وهنا حولت بصرى فجأة عن وجه الطبيب الذى كان ينتظر منى (أن أحدثه)، وطفقت أتطلع إلى النهر القديم الذى كان يتماوج على مبعدة منى، والذى كان مؤلفاً من الجنود والدواب والمعدات. وهنا تناهت إلى سمعى أصداء من الأصوات البشرية وصليل الآلات الحديدية. ولم أشأ أن أغوص مرة أخرى فى قاع هذا النهر، ولكن لم يكن بوسعى أن أتصرف على نحو مختلف، بل سوف يقدر علىّ أن أطلق العنان لنفسى كى أنساب مع مجراه. وما أن استجمعت قواى وعافيتى حتى أحضروا لى المشروبات الباردة والحلوى. لقد كان صباحا جميلا ومشرقا حقا... ولكن ضد دماء من ياترى، سيتبدى هذا الجمال المشرق؟

وعاودت امتطاء صهوة جوادى المحبوب وسط جيشى، واقتربنا من المحطة الأخيرة قبل سلسلة جبال الهضبة، وحيث يقع معسكرنا فى بلدة كاستيلى. ولمحت الجبال قبل أن يتحول ضوء النهار فوقها شيئاً فشيئاً إلى ظلام، لمحتها فى اللحظة التى كانت تكتسب فيها ألواناً أكثر رقة تستمدها من نور الشمس الغاربة، ففكرت فى أنه ربما كان الفضول وحده - على أسوأ تقدير - هو الذى يطحننى ويقضى علىّ.. ولكنه على أية حال فضول قوى شديد، بل لعله فضول يكاد أن يكون

شيطانيا.. فضول يبعث بأفضل البشر جسارة وتهورا إلى زيارة مملكة الإله **هاديس*** ذات اللون اللازوردى.

وما أن وصلت على جناح السرعة إلى معسكر **كاستيلى**، حتى تلقيت أمرا من **عمر باشا** بالصعود مع جيشى إلى الهضبة، لأن شخصا من السكان المحليين كان قد دلّ العثمانيين على وجود معبر فيها لا توجد قوات يونانية تقوم بحراسته. وبعد انتهاء مشاوراتى فى المجلس مع كبار ضباطى، ظللت بمفردى فى خيمتى نشداناً للاسترخاء والراحة. وعندما علم (طيف) **إبراهيم باشا** أن الحملة العسكرية بصدد التوقف فى هذا المكان، حضر لكى يمضى بعض الوقت فى صحبتى، وكان ما دفعه لهذا نابعا من إلحاح اللحظة وضرورتها. وكان وجهه لا يزال مشوها، وكأنه كان يذكرنى بأنه لم يكن حرياً بى على الإطلاق أن أقرن ملامحه وعلاقته (الحميمة) معى بالحكايات المتواترة عن طفولتى وشبابى. وإذ ذاك تبسم (طيف) **إبراهيم باشا**، حيث إنه كان بمثابة الأم (الرؤوم) بالنسبة لحياتى الثانية. وكان قد تبدى أمامى - علاوة على ذلك - بملابسه الحريرية التى كان يفد دوما لزيارتى وهو يرتديها، كى يذكرنى بأعيادى اليونانية؛ وكنت ساعتها بكل تأكيد واقعاً تحت سطوته.

كان قد شاخ كثيرا لدرجة اعتقدت فيها أننى لن أراه مرة أخرى، وكانت مقابلتنا معاً بالغة الصعوبة، لأنه كان يتلعثم فى نطقه للكلمات، كما لو كان يحس بدوره بأننا لن نتقابل مرة أخرى على هذا النحو. ترى هل كان يفترض فيما بينه وبين نفسه أنه سوف يموت؟ أم كان يفترض أننى سوف ألاقى حظا عاثراً؟ وبالتالى، فقد تحاشى كل واحد منّا أن يتحدث مع زميله عن القَدَر الذى لا محيص عنه ولا مهرب منه. ولم يكن أمامى سوى أن أتمنى لصديقى هذا من أعماق فؤادى أن يكفر بموته المادى السريع عن شيخوخته التى لم يقدر له أن يصل إليها وهو فى مصر. وطفقت أتحدث مع (طيفه) بعدها عن الأرض التى سوف أراها رأىْ العين بعد قليل، والتى أحس

* هو إله العالم السفلى فى أساطير قدماء الإغريق، وكان يهيمن على مملكة الموتى التى تخيلوا أن مقرها يقع تحت الأرض.

تجاهها بمشاعر عميقة، والتى أؤمن بأننى مازلت قادراً على مشاركته فى وصفها. ولم يتسن لى أن أدرك إلى أى مدى كان **إبراهيم باشا** مهتما بكلماتى هذه. ولكن (خيّل إلىّ) أن عيناه كانتا تبرقان بذلك البريق المعهود بالنسبة لى منذ سنوات طويلة. ولقد كنت أشك فى أنه كان يفكر مرة أخرى فى نزهاتنا التى كانت تدوم لفترات طويلة، وفى رحلاتنا التى كنا نقوم بها فى نهر النيل، كى يظلّ حتى النهاية بعيدا عن ذاكرتى اليونانية. وعلى أية حال، لم أتوقف عن الوصف، وشعرت بالراحة حينما لم ينبرِ (طيفه) لقطع تسلسل ذكرياتى التى كانت تتدفق بعنف وقوة. كما أن الارتياب لم يساوره فى أى شخص، ولا فى أية صلة من صلات القرابة، ولا فى أى عمل يجرى فى الحقول، ولا فى أية أغنية أو حكاية أسطورية. فلقد كان - كما سبق أن ذكرت - بمثابة الأم الرؤوم لحياتى الثانية، بل إنه ذكّرنى من جديد بذلك متجاهلا تماما ما يتعلق بحياتى الأولى. وحاولت جاهدا أن أسبر أغواره من خلال النفاذ إليها من عينيه، فقلت له إن الأرض التى حدثته عنها هى التى سوف يقدر لها أن تمنحنى الموت، وأن القلق يعترينى لأننى لازلت أجهل الطريقة التى سوف أقضى بها نحبى. ترى هل كان يعرف هو هذه الطريقة؟ غير أنه لم يجب آنذاك عن سؤالى، وتحاشى الرد علىّ اعتماداً على حكمته، وعلى ثقته بنفسه، أو انطلاقاً من عدم اكتراثه بالتحدث عن المسائل الإنسانية. وفكرت للحظة آنذاك فى أنه قد تحل (على الناس) لحظات لا يرد فيها حتى الأحياء من البشر على أصدقائهم بأية إجابة. إذا فقد وصلنا إلى النهاية!.. وعند ذلك اقتربت من النور الذى كانت ملابسه الحريرية البراقة تشعه فى عمق الخيمة الداكن، والتمست منه بكلمات معسولة أن يمكث فى الخيمة حتى أعود من حملتى العسكرية فى الهضبة. وكان (**إبراهيم باشا**) يبدو لى ساعتها شيخا مسنا، أوهن من أن يرتقى شعاب الجبال، أو يخوض غمار المعارك. وهنا حرك **إبراهيم باشا** رأسه - أو هكذا خيّل لى - مشيرا بإيماءة من رأسه إلى أنه وافق على أن ينتظرنى فى الخيمة.

وعندئذ فقط - حينما ساد الصمت بيننا من جديد - أدركت أننى كنت طوال هذا الوقت أتحدث مع طيف (**إبراهيم باشا**) باللغة اليونانية؛ ولم أك قط قد تحدثت معه قبلا بلغتى هذه المفقودة.

الفصل السادس

انطلق **رشيد باشا**، حاكم منطقة **هيراكليون**، مع آلاف مؤلفة من الجنود النظاميين وغير النظاميين، وسار فى أعقاب الخائن (اليونانى) وعبروا فى سعيهم منطقة **جيراكيانى لانجاذا** Gerakianê Langada (وهدة الصقور) التى كانت قد تركت بغير حراسة، ثم احتل مرتفع **ستافروس** Stauros (الصليب). وكان الرجال (من الثوار اليونانيين) الذين كانوا موجودين فى الهضبة غير قادرين على حراسة كل المعابر، لأنها كانت كثيرة العدد. ولم تكن هذه الوهدة فى حقيقة الأمر متروكة بغير حراسة على الإطلاق، ولكن المائة فرد الذين كانوا يقومون على حراستها عجزوا عن الصمود، وتشتت شملهم فى مواجهة الجيش التركى. واستطاع الجيش العثمانى أن يحتل الأعلى من قمم الجبال التى كانت تتوج الهضبة كالإكليل. أما قادة الثوار، فقد غدوا محاصرين تقريبا مع رجالهم، فانسحبوا إلى الجبال القليلة التى بقيت فى حوزتهم، كى يعيدوا تنظيم صفوفهم. وكان السهل قد فرد غلالته الرقيقة من القمح الأخضر، التى سوف يقدر لها بعد برهة وجيزة أن تُسحق أو تُداس بسنابك الخيل من كلا الجيشين. وتم إضرام النار بالفعل فى ثلاث قرى من الجزء الجنوبى، وفى واحدة من هذه القرى الثلاث كنت قد وُلدتُ وشببتُ عن الطوق منذ سنوات بعيدة. وسرعان ما انقضت فصائل فرسان **كوراكاس** - ومعها جنود المشاة المحليين من ذوى السرعة الفائقة - على خصومهم وطاردوهم، رغم العاصفة الرعدية التى هبت آنذاك. وبعد أن انسحبنا إلى قمة **أفنديس** Aphentis (أفندى)*، تجمعنا فى حشود كبيرة، وأقدم السكان المحليون على محاصرتنا. واستمرت المعركة زهاء سبع عشرة ساعة، إلى أن خيم الظلام وغدا كثيفا تتعذر الرؤية من خلاله. ولم نستطع أن

* كلمة «أفندى» فى الأصل كلمة يونانية قديمة كانت تكتب authentês (وتنطق أفْثنتيس)، ثم تحولت إلى aphentês (وهى تنطق أفنديس)، ثم دخلت الكلمة بصورتها الأخيرة إلى اللغة التركية. وبعد أن كانت تعنى قديماً «مسئول» أو «مشرف»، أصبحت لقباً اجتماعياً هو «أفندى».

نجد لنا مخرجا من هذا الحصار، ومع ذلك تلقينا مساعدة من بضعة آلاف من الجنود النظاميين الذين تمكنوا من الانضمام إلينا، بعد عدة اشتباكات ومصادمات كانت متوقعة؛ ولكن الليل كان قد أسدل أستاره ولم يعد للمساعدة التى تلقيناها ضرورة من نوع ما. أما الثوار الفدائيون، فقد هبطوا إلى القرى الواقعة فى الهضبة، وقد عضهم الجوع بنابه، واستبد بهم الظمأ فى مثل هذا اليوم العصيب، فضلا عن نفاد رصاص بنادقهم وذخيرتهم.

وكان أعضاء اللجنة الثورية للأقاليم الشرقية محاصرين فى دير **كروستاليّنيا** Kroustallenia، الواقع فوق تل منخفض على تخوم السهل. ومن أعلى شاهدنا أجسام السكان المحليين وهى تلتحم وتتشابك مع الأرض المزروعة، وشاهدنا الخضرة وهى تتحول إلى طين وأوحال. ثم سمعنا صوت **كوراكاس** وهو يهز بكلماته وجدان الجنود المتطوعين من اليونانيين ومن غير اليونانيين، بينما كان قادة هؤلاء المتطوعين يتحاشون أن يقذفوا بهم فى خضم هذه المعركة الضارية التى تدور أمامهم. لكن المقاتلين المتطوعين ألقوا بأنفسهم طواعية واختيارا وسط دائرة الهضبة، التى لوثتها الأوحال وغدا لونها كالحا، ليخوضوا غمار الحرب. أما النساء والأطفال فقد ولوا الأدبار، وكان بكاؤهن وصياحهن يعقب صوت الضجة التى كانت تحدثها الحيوانات المنزلية، التى كن يحملنها وهن يتقدمن فى سيرهن. وكانت راية اللجنة (الثورية) لازالت تتماوج فى كنيسة الدير، وهى راية كان بها أربعة أركان تم تصغيرها لتضم داخلها رايات كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا واليونان؛ وكانت علامة الصليب توجد فى منتصفها فوق صورة الهلال. ولقد انجذب عشرون شخصا من صناديد الأتراك لجاذبية هذه الراية المرفرفة، فاتجهوا إليها. وكان فى انتظارهم أعضاء اللجنة الثورية وآخرون معهم، وأخفوا أنفسهم جميعا خلف أسوار الدير، وخلف الصخور، وخلف أشجار البلوط التى كانت موجودة بالدير. وواصل الصناديد الأتراك تقدمهم حتى أصبحوا فى مرمى نيران الثوار، ولكنهم مع طلقات الرصاص الأولى، ارتدوا على أعقابهم ولاذوا بالفرار كما لو كانوا قد أحسوا

بالخطر بغتة. وأرسل **كوراكاس** جنودا من فصائل فرسانه وكتائب مشاته كى يعززوا قدرة الدير الدفاعية، وكان قوم كثيرون قد غادروه بالفعل قبل ذلك. ومع حلول الساعة العاشرة بالتوقيت التركى - التى تعادل الساعة الخامسة بالتوقيت اليونانى - بدأ الثوار الفدائيون يهبطون من قمة **أفنديس**، بعد أن أضناهم الإرهاق الشديد من جراء حر شهر مايو، الذى كان يمثل بالنسبة لهم تقريباً طقس فصل الربيع؛ وعندما انتصف الليل كانوا قد هبطوا جميعاً من القمة. أما نحن، فقد ظللنا نطلق نيراننا على قمة **أفنديس** طوال الليل خلال الظلام الدامس، وكان السبب فى ذلك هو أننا كنا نحس بالريبة تجاه الثوار. ورد المحاربون القابعون فى الدير على طلقاتنا النارية وهم يسخرون منا. ولم يجد (الثوار) فى الدير ما كانوا ينتظرون أن يجدوه من كميات الشعير*، وذلك لأن القرويين كانوا قد نهبوه واستولوا عليه. ومع ذلك انبرى القس - مع شخص أو اثنين من الذين كانوا قد مكثوا فى الدير من أفراد اللجنة الثورية - ليستولى بالقوة على عدد من أجولة الدقيق التى كان أحد القادة قد جلبها معه، وذلك حتى يتمكنوا من إطعام حشود المقاتلين الموجودين بالدير.

وبعد انقضاء يومين على ذلك، نشبت معركة تلاحم فيها الجيشان واشتبكا فى القتال، واحتل كل جيش منهما مواقع جديدة، وخطط كل منهما لتحركاته التالية، كما تلقى كل منهما دعما ومساندة من ظهيره. وقرر **عمر باشا** أن نحتل كل الجبال الجنوبية فى الهضبة، حتى نقطع بذلك خطوط الاتصال مع الثوار الفدائيين، وأن نضرب حشودهم فى القرى الجبلية التى آووا إليها وتمركزوا فيها، ثم ننشر بعد ذلك قواتنا بحيث تتخلل صفوفهم وتخترقها. وبناء على ذلك، فقد قمنا بالتحرك بقواتنا قبل طلوع الشمس صوب ثلاث وجهات مختلفة، وكان القسم الثالث من الجيش الإمبراطورى - مع كتيبة من كتائب **رشيد باشا**، وكتيبة من كتائب جيشى، بالإضافة إلى أربعين جنديا ألبانيا - يتقدمون جميعا نحو مرتفع يعرف باسم

* استخدمت المؤلفة هنا كلمة تركية هى «موزوريا» mouzouria، وهى كلمة كانت تطلق اصطلاحاً على مكيال قديم، للشعير خاصة وللحبوب بوجه عام، خلال ذلك العصر (قارن كلمة «مازورة» فى لغتنا العامية).

أيا فوتينى Agia Phôteinê (القديسة فوتينى). أما الثوار الفدائيون، فقد انقسموا إلى قسمين، بحيث كان **كوراكاس** ومعه عدد كاف من قواده يولون وجوههم شطر الجنوب، **وبتروبولاكيس** Petropoulakês ومعه مقاتلون آخرون يتخذون وجهة مختلفة. أما **كوراكاس**، فقد اشتبك فى قتال مع الأتراك، وأجبرهم على التقهقر حتى القرية التى كنُت قبل سنوات عديدة قد ولدتُ بها، وشببتُ فيها عن الطوق. وفى مكان يسمى **بيناكيانوس** Pinakianos، ضغطنا على الثوار الفدائيين ضغطا شديدا، ولكننا مع ذلك لم ننجح فى زحزحتهم عن مواقعهم. وكانت دانات مدافع الأتراك تنفجر وهى تأز أزيزا شديدا فوق خنادق المسيحيين؛ ولقد قتلت دانة منها ثلاثة رجال فى نفس الوقت. وبعد ذلك، عندما بدأت أمسيات شهر مايو ترخى سدولها فى ساعة متأخرة من النهار، طفقت طلقات الرصاص (ودانات المدافع) تقل تدريجيا بدورها، وقفل كل فريق من الخصمين المتحاربين عائدا أدراجه إلى معسكره. وقرب موقع المعركة، كانت توجد وهدتان اكتشفوا فيما بعد أنهما كانتا مليئتان بجثث جنودنا.

وفى صبيحة اليوم التالى تمردت كتائب الأتراك - الكريتين، التى حصد القتال الدائر كثيراً من أفرادها وأوردهم حتفهم، ضد **عمر باشا** ورفض جنودها القتال ضد السكان الكريتيين المحليين، كما انسحب على وجه الخصوص عدد كبير من أهالى المناطق الأخرى عائدين إلى ديارهم. وبناء على ذلك طلب (**عمر باشا**)، القائد الأعلى للجيش، من منطقة **ريثمنون** (أن تمده) بثلاث كتائب، ثم قام بحشد ما تيسر له أن يحشده من الهاربين من الجندية، وأجبرهم على الصعود مرة أخرى إلى المعسكر؛ وبلغ عدد هؤلاء وحدهم ثلاثة آلاف مقاتل. ولكن كثيرين من المحاربين فى صفوف القوات المسيحية التى أرسلت كمدد للمساعدة،قفلوا عائدين بدورهم إلى ديارهم ومسقط رأسهم.

وظل كل جيش من الجيشين المتحاربين يعسكر فى معسكره قبالة الآخر، وكان الجنود المقاتلون فى بعض المناطق يجدون أنفسهم على مسافة قريبة جدا من

خصومهم، لدرجة أن القائمين على أمر الحراسة منهم كانوا يتبادلون فيما بينهم الشتائم والسباب. وعلى مدى هذه الأيام، مُنى الفرسان الجراكسة Tserkezoi (الشراكسة) فى جيش الإمبراطورية العثمانية بخسائر فادحة خلال المناوشات التى دارت فى السهل، كذلك قام الأتراك بحرق عدة قرى.

وفى اليوم الذى دارت فيه رحى المعركة الثالثة، تقدمنا مع الجنود النظاميين العثمانيين دون أن يتمكن خصومنا من رؤيتنا بسبب الضباب الكثيف المنتشر فى فترة الصباح الباكر، ثم اخترقنا السهل ووصلنا إلى مواقع الثوار الفدائيين؛ وتمكنت ثلاث كتائب من الجيش التركى من محاصرة الثوار من الخلف. واضطر الثوار الفدائيون - على أثر صعوبة موقفهم فى هذه اللحظة - على التقهقر إلى مواقع مختلفة، على حين حاول قادة كتائب آخرون مع رجالهم أن يشنوا غارات متكررة على العثمانيين الموجودين فى السهل بهدف إنهاك قوتهم. ثم قمنا باحتلال كل مواقع الناحية الجنوبية، وأضرمنا النار فى أربع قرى، وكذلك فى دير **كروستالّينيا**، حيث كان يوجد مستودع للذخيرة ومصنع للمقذوفات النارية. ولم تكن هذه الذخائر على أية حال ذات نفع أو فائدة ترجى، لأن أسلحة الثوار الفدائيين كانت قد جمعت من عصور مختلفة، وجلبت من أقطار متباينة، كما كانت ذات مقاييس شتى. وعند الظهيرة نشبت معركة ضارية خارج قرية **تزرمياذوس** Tzermiados، وظلت محتدمة إلى أن شرعنا فى التقهقر. وعندئذ خرج الثوار الفدائيون من مكامنهم ومن متاريسهم وتحصيناتهم، وطفقوا يركضون صوب السهل وهم يصيحون ويهتفون بحياة الملك اليونانى **جيورجيوس**، وظلوا يطاردوننا حتى وصلنا إلى خيامنا. وعندما شاهد نفر كثير من الكريتيين، سكان القرى الذين كانوا قد اتخذوا من الكهوف مأوى وملاذا ما انتهت إليه هذه المعركة، هبطوا من مكامنهم عندما جن الليل لينضموا إلى صفوف الجنود المقاتلين.

(وفى صبيحة اليوم التالى)، قام **عمر باشا** باستفزاز خصومه وتحديهم لخوض غمار المعركة الرابعة والأخيرة، قبل أن يجدوا فسحة من الوقت لإعادة تنظيم

صفوفهم. وعندما شاهد شطر من الثوار الفدائيين قوة الجيش التركى بأسرها، بادروا بالانسحاب ومعهم **كوراكاس** إلى قرية **ميسا لاسيثى** Mesa Lasithi، حيث إنهم لم يكونوا يملكون ما يكفيهم من الذخيرة. وعندئذ قسم **عمر باشا** جيشه إلى قسمين، بحيث يطارد القسم الأول الذى أتولى قيادته **كوراكاس**، وبحيث يرتد القسم الثانى على أعقابه ليعاود الانقضاض على قادة الثورة الآخرين الذين تحصنوا فى قرية **تزرمياذوس**؛ وعقب ذلك دارت معركة حامية الوطيس.

أما الثوار الفدائيون، الذين تقهقروا إلى قرية **ميسا لاسيثى**، فقد انقسموا بدورهم إلى ثلاثة أقسام. وكان من حظى أن توليت القيادة فى اليوم الأخير من المعركة، حيث قمت بمطاردة القسم الثالث من الثوار. ولقد أقدم الجنود الأتراك - الكريتيون من غير القوات النظامية - والذين كانوا يسيرون خلف الجيش النظامى - على إضرام النار فى كنيسة بإحدى القرى وفى طاحونة هواء، ثم أحرقوا إحدى القرى بكاملها، وشرعوا فى تعقب النساء والأطفال واصطيادهن وهن يلذن بالفرار.

وكنت أراقب تحركات (هؤلاء الجنود) وتصرفاتهم عن طريق منظارى المقرب من قمة جبل **بساروس** Psaros، فأصدرت أوامرى بأن يطلقوا النفير على الفور إيذانا بالانسحاب. ولكن نفراً غير قليل من الجنود غير النظاميين لم يمتثلوا للأمر، وظلوا يطاردون ضحاياهم بغير رحمة ولا شفقة.

عندئذ قمت أنا - بوصفى وزيراً للحربية فى مصر، وقائداً للجيش المصرى فى هذه الحملة العسكرية، والذى كان مسقط رأسى بجزيرة كريت ثم غدوت تركيا فى فترة صباى، وشقيق **باباذاكيس** المقيم بمدينة أثينا - كما يقولون - والذى أتكلم اللغة اليونانية بطريقة مبسطة، والذى أسند إلىّ أمر قيادة المعركة الأخيرة - بإصدار أوامرى للجيش العثمانى النظامى بإطلاق النار (بالذخيرة الحية) على فلول القوات العثمانية غير النظامية... وكان هذا هو ما حدث بالفعل!

الفصل السابع

وفى اليوم الأول من أيام المعارك، شاهدت من بُعد المنزل الذى ولدت فيه، وحينما قمنا بإحراق النار فى القرية (التى شهدت مسقط رأسى) استبدّ بى العذاب الشديد، رغم أننى لم أكن المسئول عن هذا الحريق، ولم أكن أتمنى أن يحدث. وفى واقع الأمر، فإن المنزل الذى شهد مسقط رأسى لم يحترق مع ذلك، لأن عاصفة ممطرة من عواصف شهر مايو آزرتنى وحابتنى محاباة لا مثيل لها، إذ أطفأت الأمطار المنهمرة لهيب النار المشتعلة فى المنازل المجاورة لمنزلنا. ولقد تملكتنى الحيرة إزاء هذه المحاباة التى غمرتنى بها عناصر الطبيعة. وبينما كنت أقف ممتطيا صهوة جوادى ومتدثرا بقطعة كبيرة من القماش المشمع تغطى كل جسمى وتصل إلى سيقان فرسى، وبينما كنت أقف بقامتى المنتصبة على هذا النحو لأتلقى هذا المطر الذى بدا فى نظرى وكأنه دموع غزيرة تذرفها الطبيعة، كنت أقول لنفسى إنه لم يكن فى الأمكان أبدع مما كان! ولم تكن تلك (الغبطة) بسبب أوبتى إلى وطنى - رغم أن مثل هذه الأوبة الآثمة التى قمت بها يمكن أن تنال التكريم من الدموع التى تذرفها الطبيعة - بقدر ما كان بسبب أننى تذكرت فجأة أننى أملك منزلا بمجرد أن وقع بصرى عليه.

ورغم أن **يوانيس** كان قد أخبرنى بمصر بأن والدتى - وفقا لإحدى الروايات التى راجت (عن مصير أسرتى) - تمكنت من الرجوع إلى منزلنا ولقيت نحبها فيه، إلا أن هذه المعلومة لم ينتج عنها إطلاقاً عذابا أضنى فكرى بمثل ما أضنته ذكرياتى عن المكان الذى يمثل مسقط رأسى. وخلال الفترة التى هطلت فيها الأمطار كان المنزل يشدنى إليه وكأننى مسمر أمامه بمسامير خفية. وكان يخيّل إلىّ وأنا أصغى لصوت ارتطام قطرات المطر الثقيلة بقماش المشمع الذى كان يغطينى، أننى كنت أسمع صوت كل مسمار منها وهو يدق على حدة. وخطرت على بالى فكرة مفادها

أننى ربما حاولت أن أبعد عن فكرى ذكرى هذا المنزل لسنوات طويلة، رغبة منى فى حماية نفسى مما حرّمته عليها وهو لها مؤلم، فجعلت محظوراً على قدمائ أن تطأ عتبة هذا المنزل، أو ربما كان ذلك كان بسبب خوفى من أن يكون المنزل قد تهدم وانهار؛ فى حين أن ذكريات الطبيعة لم تستبعد حدوث مثل هذه المخاطر. ذلك أن الحذر والسرعة اللذين سوف تتطلبهما الحرب فى غضون وقت قصير - بمجرد أن تنشب - لن يتيحا لى مجالا للتفسير أو الشرح. فكل ما نجحت فيه فحسب هو تفكيرى - وأنا أصغى بسعادة لصوت الأمطار التى تذكرنى بحياتى القديمة - فى أننى على مدى سنوات طويلة قد استبدلت داخل ذاكرتى الموقع الداخلى بالموقع الخارجى، على غير وعى منى بحدوث مثل هذا الاستبدال. فقد كنت أجهل ذاتى كل الجهل، ولم يك ممكنا أن تتماثل ذكرياتى عن الكهف - لأسباب لا حصر لها - مع ذكرياتى عن المنزل الذى شهد مسقط رأسى. وأغلب الظن أن هذه الذكريات كانت تمثل قطعة من الطبيعة أو شطرا من مغامراتى. وانتظرت حتى ألقى نظرة أخرى على منزلى بمجرد انتهاء هذا الوابل من المطر، نتيجة لخوفى من أن يكون ما هو شاخص أمام بصرى ليس سوى سراب خادع.

(وقلت لنفسى) إننى إذا ما رغبت، فسوف تكون لدى فرصة لأن أقوم بزيارة منزلى فى الأيام القادمة.. وكنت فى الحقيقة راغبا فى هذا. وكان المبرر الذى استندت إليه، هو تلبية احتياجات العمليات العسكرية، والحفاظ على أرواح الناس المعلقة على صدور أوامرى. شاركت فى خوض المعارك وأنا شبه مخدر، وبذلت محاولات كبيرة للحفاظ على عقلى نقيا متوقدا قدر الطاقة.. كانت الرغبة تستبد بى لكنى آثرت أن أحسن الاستعداد لما سأقوم بعمله. وظلت هناك فكرة تلح على ذهنى باستمرار مع أنها لم تكن تبدو لى قابلة للتصديق، وهى أن المنزل ظل قائما حتى الآن لأنه كان ينتظر أوبتى.. ترى هل كان ينتظرنى حقا؟ فمن غير المعقول أن أخوض غمار هذه الحرب، وأنغمس فى حمام الدم الذى سال فيها، لا لشئ آخر سوى أن أتذكر وجودى وكأنه جوهر ذاكرتى. وحدثت نفسى قائلا:إن (هذا المنزل) قد وعدنى بتطهير منذر بالثبور ومولع بالشهوات، وإننى غدوت بناء على ذلك وكأننى طالب يد

أعـقـد خطبـتى عليـه. هاأنذا إذن قـد عـدت من جـديد، وعـاودت النظر إلى المنزل باستمرار، بعد أن وضـعته مرة أخرى فى موقعه الصحيح، وبعد أن بحثت دون توقف عن جدرانه المشيدة من الحجر. وازددت ضغطا على العناصر المادية فى المنزل لكى تكشف لى عن أهدافها وأغراضها، ولكن المنزل لم يخف عنى ما هو كائن بداخله، سواء أكان الضوء الذى يشع فيه بفعل اتساع بابه الخارجى،أم بسبب نور القنديل المتنقل فى أرجائه؛وحدث ذلك تماماً على نفس النحو الذى شرعت فيه ذاكرتى فى الانتعاش على جناح السرعة. ورددت الكلمات فيما بينى وبين نفسى قائلا:رباه !.. لقد كان (المنزل) فى انتظارى!

واتخذت قرارا بأن أقوم بزيارة (المنزل) مساء اليوم الأول الذى يعقب المعارك. فلقد كان الوقت يضغط علىّ بإلحاح، حيث إننا كنا قد أنهينا مهمتنا تقريبا فى المرتفعات، كما لم يكن بوسعى - على أقل تقدير - أن أظل منتظراً لأرى بأم عينيْ النهب والسلب. عثرت على مفتاح المنزل تحت قطعة الحجر التى كنا قد أخفيناه عندها، ولقد غمرتنى السعادة من هذه الصدفة المزدوجة التى كانت تعنى أن المنزل كان بالفعل ينتظرنى. وتساءلت: «*إلى أى مدى كان بمقدور الصوت الرقيق الذى يحدثه المفتاح المعدنى أن يحدد مفهوم الحياة - أيا كانت هذه الحياة - وأن يفسرها بوصفها نوعا من الترابط المنطقى؟* » غير أن صوت المفتاح تناهى إلى سمعى وكأنه دوى انفجار، مما جعل الرعدة تسرى فى أوصالى. وفكرت فى أن بنادق العثمانيين كانت لا ريب محشوة بالرصاص، حيث إنهم كانوا قد حصلوا على تصريح بالنهب والسلب لمدة أيام ثلاثة. أما أسلحة المسيحيين، فلا ريب أنها كانت بحوزتهم هناك فى أعالى الجبال، ولكن ربما عنّ لشخص منهم أن يتأخر بعض الوقت فى قريته التى أقفرت من سكانها... وأيا كان الأمر فقد كان ينبغى علىّ أن أسرع فى أداء مهمتى.

انفتح الباب وهو يحدث صريرا، فدخلت المنزل ثم أغلقت الباب خلفى، ثم استندت بظهرى على الألواح الخشبية الغليظة التى كان يتكون منها الباب، وكنت

أنشد أن ألامس هيكله الذى كان يتكون من عروق الخشب، ومن الكتل الخشبية ذات العقد، ومن المسامير. وغلبتنى الدموع حتى أجبرتنى على إغلاق عينىْ، فغدوت كشخص أعمى يرضع نسمات الهواء ويمتصها. ومرت برهة كافية من الزمن إلى أن فتحت عينيْ من جديد، ونطقت قائلا إننى الآن قد شبعتُ (من رضاعة) لبن أمى. وخيّل لى أن باب المنزل الذى كنت أستند إليه قد غدا أكثر طولا، على حين تضاءل حجمى أنا فغدوت طفلا، فمسحت بيدى اليمنى كلتا شفتى.

فصلت نفسى بصعوبة عن باب المنزل وحاولت السير، بيد أننى كنت أشعر بالوهن والضعف وبأننى على وشك الهلاك. فاستندت بيدى اليمنى ذاتها على الجدار، وقمت بجولة فى أرجاء المنزل. وبالقرب من ركن المصطلى (المدفأة) أزحت قطعة حجارة من الجدار، ولكنى لم أجد المقلاع (النبلة) موجودا فى مكانه هناك. وفكرت فى أن هذا الأمر ليس بذى أهمية، لأننى عندما أشب عن الطوق سوف أقتنص الطيور بالسلاح لا بالمقلاع. ثم وضعت فى ذلك الشق الموجود بالجدار - الذى كنت أضع فيه قديما المقلاع - المدية التى اعتراها الصدأ ورسالة شقيقى **أنطونيس** معيدا إياهما إلى حيث ينتميان، هذا إذا كان من الممكن أن ينتمى شىء لشىء آخر. ثم أغلقت بقطعة الحجارة المخبأ الذى أودعتهما فيه، وأضفت قائلا لنفسى: «*إن الدفن ليس سوى حالة من حالات الوجود الواقعى*». وفى حقيقة الأمر، لم تكن عندى أدنى رغبة فى أن يقوم هذان التذكاران - عند اكتشافهما - بتزويد الأشخاص الفضوليين بتفسيرات معينة، حتى ولم تم العثور عليهما فوق جسدى.

ولم أكن اعرف ما إذا كان هناك أحد قد عاش بالمنزل بعد وفاة والدتى أم لا، حيث إننى سلمت بقبول الرواية التى كانت تقول إن والدتى عاشت إلى أن لاقت منيتها بموتة طبيعية فى منزلها هذا الذى كانت تعيش فيه بمفردها .ولم أتمكن من العثور على أى دليل أو برهان على هذا، لأن المنزل كان مقفرا ويخلو من أى متاع، رغم أنه تصادف أننى مازلت أتذكر كل شىء بوضوح لا يصدقه عقل، بما فى ذلك الأحداث القليلة التى كانت تشكل فيما بينها تفاصيل تدبير شئون المنزل الريفى،

والراحة التى كان هذا المنزل يمنحها لأجسادنا المرهقة. فرغم ذكرياتى هذه كلها إلا أن المنزل ظل خاويا على عروشه، مما يقطع بأن أحدا لم يسكنه لسنوات طويلة. ولم يكن هناك تقريبا سوى رابط - من الصعب استشعاره أو الإحساس به - يجمع بين ما هو أفقى أو رأسى أو دائرى فى هذا المنزل، ويشهد على أن المشاعر قد هجرته وغابت عن أرجائه. لم يكن هناك سوى شىء مثل الرماد أو مثل نسيج العنكبوت فى الأركان، وكان علىّ أن أنحى جانبا بيدى اليمنى ذاتها الأقنعة التى مازالت تغطى الوجوه.

تقدمت فى سيرى إلى أن وقفت تماما فى وسط حجرة المنزل الرئيسية، وقمت بحفر حفرة صغيرة فى تراب الأرضية الجاف الذى كانت تطأه الأقدام، ولكنى لم أحصل على مبتغاى أو على ما كنت أحتاج إليه.. لم أحصل حتى على مزيد من قطرات الدماء التى كانت تخصنى. لذا خدشت بسيفى التركى (اليطقان) جلد رسغى الرقيق، وأتحت لعدة قطرات من دمى أن تسيل داخل هذه الحفرة. بعد ذلك جلست فى انتظار (أن تظهر أطياف ذوى قرباى) وأن تتحدث معى بالكلمات*. وطال انتظارى إلى أن ظهرت الأطياف متجسدة تلبية لمطلبى. غير أننى خشيت أن تعجز الأطياف عن الحديث معى بصوت يمكن سماعه، لأننى لا أملك ما هى محتاجه إليه أو لأسباب أخرى غير ذلك، كما خشيت أن تكون الأطياف داخل هذا المنزل قادرة على أن تسحقنى وتجعلنى هباءً منثورا. وفى خاتمة المطاف، وبعد تأخير طال أمده، حدث الأمر بغتة وكأنه لم يستغرق سوى طرفة عين، إذ سرت رعدة فى الأبعاد الأفقية والرأسية والدائرية إلى أن بدأت (هذه الأبعاد) تسكب صفاء خطوطها الواضحة فى التراب، وتملا الفراغ الواقع بينها بالحياة. وتناهت إلى سمعى أصوات لأناس معروفة لدىّ وأصوات حيوانات منزلية أليفة، كما ترددت على

* كان قدامى الإغريق يعتقدون أن من الممكن أن تظهر لهم أشباح الموتى لو أنهم وضعوا لها إناء به دماء. فعند ذلك كانت الأطياف تسعى إلى هذا الإناء وتشرب من الدم إلى أن تتجسد أمامهم فى صورة بشرية. ولقد علمنا بوجود هذا الاعتقاد مما ورد وصفاً له فى ملحمة الأوديسية للشاعر **هوميروس**.

مسامعى أصوات ظواهر المناخ والأغانى والتعب والحزن والأعياد. ثم تلت تلك الأصوات روائح الأجسام والأشجار والقماش، والنيران التى كنا نصطلى بها فى فصل الشتاء، وعبير السهل الذى تم حصد مزروعاته، وأريج التفاحات التى نضجت. وخيل إلىّ أن هذه الأصوات وهذه الروائح قد ملأت منزلى حتى فاض بها - كما كان العهد به آنذاك - وأنها أعادت له لونه الأحمر القانى. وفى بصيص الضوء المنبعث من التفاحات (الناضجة) شاهدت يد (والدتى) التى استقرت فوق المغزل وتجمدت هناك وكأنها تحرك أخيرا أصابعها، كما شاهدت يد والدى التى توقفت فوق اللجام وهى تهصر أخيرا الثمرة.

كانت الأيدى تقود أشكال الأطياف المتجسدة فى صورة الجسم البشرى وحجمه.وكانت والدتى هى التى بادرتنى فاقتربت منى ورحبت بى، أنا ابنها المفقود الذاهل كالمخبول، الذى أضناه العذاب بسبب الحب الذى لم يتحقق. ترى كيف استطاعت أن تهبط إلىّ دون أن تَفْرقَ من أية عقيدة أو دين؟ ومع ذلك فقد كان ابنها وسيماً حقا، لأنه زاوج فى تناسب بين ذروة النضج عند الرجل وبين البراءة والطهر عند الطفل بطريقة فائقة العذوبة، امتزجت فيها ذات مرة قمة الجبل المواجه بقبة السماء الزرقاء، لكى يختفيا بعد ذلك معاً فى الظلام الدامس.(وقال ابنها لنفسه حينئذ) :«*فلأقترب منها قليلا حتى أرى فى عينيها ذاتهما إجهاد العمل فى الحقول وهو يتلاشى مهزوما أمام طبق طعام ساخن ونوم يأتى الإنسان طيعا .. وحتى أرى فى عينيها ذاتهما إرهاق حياتى العربية وهو يتلاشى مهزوما أمام ربتة يد حانية على شعرى*». ولكن كان علىّ ألا أقترب منها أكثر من ذلك.. (كان علىّ ألا أقترب منها) للدرجة التى يصبح فى وسعى فيها أن أتأكد أو أصبح على يقين من الدلائل والبراهين؛ وكان علىّ (فى كل الأحوال) أن أدعها تظل دوماً على الصورة التى عرفتها وألفتها. وكنت أعلم حق العلم أن هذا لصالحها، وأننا سرعان ما سنتقابل وسيسعد كل منا بالآخر بعد أن يتحرر كلانا من ربقة الجسد، وبعد أن يتبرأ كل واحد منا من كل وزر ويتنصل من كل خطيئة. وبالتالى فليس علىّ أن أخاف، لأن ما

سيقدر لى أن أراه فى أحلامى من الآن فصاعدا هو الحدائق الغناء والمياه العذبة النقية.

وهرعت جريا إلى المكان الذى كانت تقف فيه، ولكنها اختفت فى الحال، فتهاويت على الثرى وقد بلغ منى الإرهاق مداه.وبعد برهة من الزمن سمعت ترتيلا لمزمور فرفعت رأسى، (وخيّل إلىّ أننى أرى) طيف والدى يهلّ على وهو مرتد لرداء كهنوتى موشى بالذهب، وينشد أحد المزامير قائلا: «*تبارك مولدك، أيها المسيح، يا ربنا*».والحق أن والدى كان يذكر دائما أنه عمدنى باسم **إيمانويل** Emmanouêl (عمانويل)، كما أنه كان قد كتب اسمى فى الكتب (شهادة الميلاد) بخط يده كالتالى: **إيمانويل كامبانيس باباذاكيس بن فرانجيوس**. ولم يكن (والدى) يعرف فى حقيقة الأمر حتى الآن بأى اسم ينادينى: هل باسمى المسيحى (الذى عمدت به) أم باسمى الإسلامى (الذى اتخذته)؟ ولهذا السبب فقد طفق ينشد المزمور؛ وفى الحقيقة (فإن والدى) دأب على أن يحتفظ باسمى المسيحى دوما فى ذاكرته. (وخيل إلىّ أن طيف والدى قال لى): «*إن هناك بعض الأمور التى لا يطرأ عليها أى تغيير، ولأجل هذا السبب فإننى أرحب بك وأحييك رغم أننى تعذبت ووجدت عنتاً شديدا إلى أن اتخذت هذا القرار. أجل.. إن هناك بعض الأمور التى لا تتغير حتى فى مملكة الأطياف والظلال، اللهم إلا إذا استبد بهم الجنون أحيانا بفعل هبوب رياح الجنوب، فأظهروا لك أمورا أخرى غير تلك التى عرفتها. وإن لك أن تعرف أننى كنت أفضل أن أُذبح مرة أخرى على أن ألاقى المذلة والهوان؛ فيما عدا - وهذا شىء مختلف - تلك الحياة التى قدر لك (يا بنىّ) أن تحياها. فلقد ازدهرت ونلت ترقيات ومكانة رفيعة - وهذا أمر طيب - ولكنك واجهت الضّياع كلما ارتفع شأنك، وأهلكتنى معك. إن ما يمكن أن ينقذك الآن هو ذلك الذى لم تهف إليه نفسك أو لم تنجح فى انجازه أبداً، وهو أن تمحو صورتنا من ذهنك. أما أنا الذى عرفت وخبرت أشواك طريق خضته قبلك، فإننى أقر بصعوبة الطريقين كليهما؛ والحق أننى راغب فى القول بأننى أعترف أنها محاولة للتكفير.. ولسوف أهفو إليك بشدة. فلست أعرف*

وأيم الحق الطريقة التى ستلقى بها نحبك، ولكنى أكتفى فقط بأن أخبرك بأنه مكتوب عليك أنها ستكون طريقة صعبة. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تظل شجاعا وألا تخشى شيئا، لأننا سرعان ما سنتقابل».

وشيئا فشيئا بدأت ترنيمة ميلاد السيد المسيح تخفت فى سمعى وتتلاشى، ففهمت أن (طيف والدى) قد ابتعد عنى. ولم يكن فى مقدورى أن أرى شيئا بعد أن بدأ الحزن الغامر يعتصرنى. وأدركت حينئذ أن هذا كان هو السبب الذى لم يكن يدفعه إلى زيارتى بمفرده طوال المدة التى أقمت فيها بمصر. ولقد علمت أنه لن ينقض العهد الذى عاهدنى عليه، وهو أن يقبلنى بقبول حسن. إذ كان برهانه - الذى حدا به إلى إصدار قرار وإلى التعهد بعدم الحنث فيما قرره - سوف يفضى به إلى تشويه بهجة الفردوس وحبوره، وهو ما بشرت به والدتى عندما أخفت عنى أنها كانت مجرد ألوان طلى بها الجص الذى يشكل قبة السماء. وهبْ أنها لم تكن ألوانا! فإن مرامى لم يكن هو الشك فى نظريتها عن الوجود. فلو قدر لى فقط أن ألمس يدها.. أجل أن ألمس يدها.. إذن لأقسمتُ أنه لن يقدر لى أبدا أن ألمس يدا أخرى سواها فى أرض النخيل والصحراء الجرداء. ومع ذلك فإن والدى قد مدّ لى أيضا يده بطريقة رمزية، ولم أكن أتوقع منه ذلك، حيث إننى كنت قد تعودت على الصرامة التى كان يظهرها لنا حتى عند استخدامه للرمز، إلى أن انتهى المآل بروحه لتغدو قطعة من الحجر. ولو أن قطعة الحجر هذه قدر لها أن تظل فوق الأرض، إذا لاستطاعت أن تحكى عنه الكثير، وكأنها لوحة خالدة تصور رومانيا شهيرا ذائع الصيت، أو كأنها لوحة منحوتة فى أبعد الأقاليم شقة. ولو كان ينبغى على مرة أخرى أن أعد نفسى مذنبا على نحو ما فى حق (والدى)، فإننى آخذ على نفسى أننى لم أحاول أن أتبين ما هو كامن (من رقة) خلف ذلك الوجه الصخرى. ولم يكن هذا بسبب أننى كنت طفلا وكان على أن أتقبله، ولكن لأننى - حسبما كنت أعتقد - كنت قادراً على أن أعرفه (حق المعرفة). فلقد ظللت فى نظره ذلك الغلام الذى لا يتغير والمنطوى على نفسه، والذى كان ينحاز إلى صف شقيقه ويتحالف معه على

الدوام. ولم يكن (والدى) يرغب حقيقة فى أن يعرفنى بوصفى عثمانيا يقيم فى مصر، بل انتظر حتى غدوت طفلا من جديد وعدت لأدلف إلى منزلى ذاته، لكى يفكر فى بوصفى فردا فى (أسرتى)، حتى ولو كنت فردا عاجزاً عن إطلاق العنان لاختياراته وجعلها ممتدة... لقد انتظر حتى يرانى وأنا أذرف الدموع!

وإن نسيتُ فلن أنسى أنهم قاموا بذبح والدى... ولكن ماذا عن والدتى؟ أغلب الظن أن مصرعها كان مصحوبا بما يجلب العار و الشنار، ولكن هذا لم يحل بينها وبين الحضور كلما سعيتُ فى طلب ذلك منها أو من تلقاء نفسها. وكان من الممكن أن تشيخ وتطعن فى السن داخل مخيلتى، حتى ولو قامت باستبدال ملابس أخرى منحتُها لها بملابسها الملوثة التى كانت ترتديها فى الكهف. وكنت على يقين من أن اللوحة التى تصورها - والتى رُسمت بألوان مثل لون أديم الأرض وتم الحفاظ عليها سالمة من جفاف الصحراء - سوف تحيط بها بساتين يانعة ومياه عذبة رقراقة فى الفردوس الذى سيصير مآلها إليه، بنفس الطريقة التى كان يغمرها بها القلق والاهتمام بأطفالها الصغار وزوجها الحبيب، دون إلحاف فى السؤال ودون امتعاض ولا استياء.

وتملكتنى الحيرة إزاء المشاعر المتبادلة بداخلى، وإزاء إحساسى تجاه والدى ووالدتى، ذلك أن مشاعرى تجاه والدتى كانت متوافقة، ولكنها تجاه والدى كانت مضادة، وتقريبا متصارعة. ومع ذلك فقد حدثت نفسى بقولى إنه من حسن حظى أن حظيت بالاقتراب منه مؤخرا، فما كنت أجسر على أن أقرر بأن هذا كان أمرا لا جدوى منه.

ورغم أنه لم يكن حرياً (بشقيقى) **أنطونيس** أن يحضر ليرانى وهو لا يزال بعد حيا، إلا أنه حضر فى خاتمة المطاف.

ولأول وهلة شاهدت (طيفه) فى صورة فتى غض الإهاب يرتدى ملابس تمت حياكتها فى المنزل، ولم تكن هذه الملابس بقادرة على أن تتسع لخفة حركاته

وحيويته ونشاطه؛ وكان قد مد يده فوق كومة من ثمرات التفاح، وبعد أن تردد برهة من الوقت تناول تفاحة منها ثم أعطاها لى. وبمجرد أن اعطانى التفاحة تلاشى (طيفه) وتبدد كما كان عهدى به، غير أن (الطيف) عاد من جديد ليتجسد ويظهر أمامى على نفس الصورة التى سيظل عليها دوماً، وكأن مصورا أثينيا قد قام بتزيين صورته وإضافة الرتوش إليها. وكان مقدرًا على خصمى الجنرال **كوراكاس** (فى هذه الصورة) أن يجلس فى المنتصف بين شخصين كلاهما ينتصب واقفا. وكان واحدا من هذين الشخصين هو ابن الكولونيل **أرسطوتيليس** Aristotelês (**أرسطو**)، وكان القدر قد اختط لهذا الابن أن يصل توا إلى العاصمة، وأن يقيد اسمه ليلتحق بالجامعة، ويدرس فيها على نفقة شقيقى **أنطونيس**. (ومن خلال هذه الصورة تراءى لى) أنه آن للثورة التى نشبت فى الجزيرة أن تضع أوزارها بعد أن كسبت - بدلا من الوحدة الاندماجية - مؤسسة إدارية تعرف باسم «*القانون الأساسى*». آن الأوان إذن لإنجاز أمور أخرى مثل الدراسة والتوقف فترة عن العمل نشدانا للراحة والاسترخاء. أما شقيقى - وهو ثالث الأشخاص المرسومين فى الصورة - فسوف يقيض له أن يحمل كلا من المقاتل العجوز وابنه الطالب الجامعى إلى استوديو التصوير، وفى ذات صباح آخر سوف يقوم بالفعل بمرافقتهم حتى كتل المرمر الخالدة فى **الأكروبوليس**. وفى الظروف الراهنة سوف يرتدى القائد (**كوراكاس**) الملابس السائدة فى الجزيرة والمصنوعة من اللباد الداكن، ولسوف يرتكز بكلتا يديه وقبضتيه الحائرتين على كل ركبة من ركبتيه. وكانت فردة حذائه الأبيض اليمنى التى يغطى عنقها ساقه تتجه فى وضع مستقيم إلى الداخل، بينما كانت الفردة اليسرى من الحذاء مفتوحة وبارزة بروزا قليلا؛ وكان السبب فى ذلك هو أنه كان ينبغى عليه أن يكون مستعدا باستمرار لامتطاء صهوة فرسه وقيادة صفوف جيشه للقتال. أما **أنطونيس**، فكان مرتسما وهو يرتكز بمرفقه الأيسر على الكرسى الجالس عليه خصمى (**كوراكاس**)، وكان يميل بجسمه فى رشاقة تجاه الوسط وهو فى كامل أناقته - وهو مايبدو بالنسبة له أمرا مألوفا - كما لو كان قد سأم من تبادل الحديث وهو واقف فى ردهة المسرح. كذلك ارتكز (**أنطونيس**)

بمرفقه على الطاولة الرخامية، وهو يمسك فى يده بكأس ويستمر فى تجاذب أطراف الحديث مع زميليه؛ وكان (**أنطونيس**) يرتدى حلة من قماش الكتان ورباط عنق أنيق ورقيق. وكان يسرح ببصره بعيدا كى يتحاشى التطلع إلى وجهه فى المرآة المعلقة أمامه فوق الطاولة الرخامية. إذ كان يعلم حق العلم أن وجه رجل البر والخير الوطنى سيبدو مماثلا (فى المرآة) لوجه المحتل الغاصب والمرتد. ولذا فقد رنا ببصره بعيدا، وهو يحاول أن يتحاشى التعرف على مثل هذا التماثل، الذى لا يدين المرء فيه للدم بل للعزلة (القاتلة). ورغم أن شقيقى كان يبحث عن أسرة أخرى من بين بنى وطنه وجلدته ينتمى إليها، إلا أننى كنت أعلم حق العلم أنه عاش وحيدا تماما وأنه سوف يموت وحيدا مثلى...ولذا فإن من حسن حظه ألا يرانى أبدا.

ويبدو أننى نمت هناك فى المنزل حينما جلست فوق الثرى، فلقد كنت أحب منزلى كما كان منزلى يحبنى، وإلا فكيف كان يمكننى أن أحظى برؤية الأطياف وهى تتنزه فى البساتين ذات الخضرة اليانعة والمياه العذبة الرقراقة؟ وكيف كان يمكننى أن أرقبها وهى تقف قبالتى، وتتجاذب معى أطراف الحديث، ثم تنطلق فى سيرها بعد ذلك مرة أخرى؟ لقد أيقظتنى وخزات نسائم شهر مايو الصباحية قبل أن تشرق الشمس بوقت قصير، وبغض النظر عن ذلك، فقد كنت حريصا على أن أستيقظ من نومى مبكرا، كى يتاح لى أن أشاهد من خلال نافذة المنزل الصغيرة الواقعة تجاه الشرق منظر الشمس عند بزوغها. وتبلجت أمامى الصورة التى ما فتأتُ أذكرها منذ أول شعاع أشرقت به الشمس، ولكن (هذه الصورة) لم تتواثب جزلا ومرحا. ولم أكن أتخيل أن يسود حولى مثل هذا الصمت العميق، وكأنه قرار نهائى من قرارات الطبيعة، فأمسكت بقضبان النافذة الحديدية واقتربت بقدر ما أمكن لعينىْ الاقتراب. كان شروق الشمس باقيا دائما على حاله، وكأنه رسم على لوحة من الورق، فانتظرتُ حتى تلاشى اللون الوردى، وعندئذ خطرت لى فكرة كانت بمثابة عزاء لى، وكان مؤداها كالتالى: «*حيث إن عيناى قد اكتحلتا مرة أخرى بمرأى منزل والدى، وحيث إننى علاوة على ذلك قد أمضيت بداخله ليلة كاملة رقدت فيها بين*

أحضانه، وحيث إننى فى خاتمة المطاف قد تجاذبت أطراف الحديث مع هذا المنزل ذاته، فإن الطبيعة - التى جعلت أماكن أخرى تحل محله لسنوات طويلة - سوف لا تحرمنى منه أو تفصلنى عنه، بل لن تسمح لى بأن ألتمس منها هذا الصنيع مرة أخرى».

وانصرفت وأنا أعدو صوب **كاستيلى** قبل أن يكمل الجنود مهمتهم فى التخريب والتدمير، وذهبت إلى السهل الواقع فى الهضبة، وجستُ خلال المحاصيل التى وطئتها الأقدام وخلال الأشجار التى اجتثت من جذورها أو أتلفت، وكأننى أسير وسط لهيب من ألسنة النيران. وكانت ألسنة النيران المستعرة بالفعل فى المنازل المحترقة تضيىء المنطقة المحيطة بى لمسافة شاسعة، خلال اللحظات الأولى من انبلاج شمس النهار.

لقد كانت الحرب مندلعة آنذاك، وكانت المحاصيل تداس بالأقدام، وكانت الأشجار تجتث من جذورها أو يتم تدميرها، وكانت النيران قد أضرمت آنذاك فى المنازل الواقعة فى قطر الدائرة التى تكون السهل. وكانت الظروف المتشابهة قد وحدّت داخل عقلى بين المرّتين اللتين شهدتا خروجى من الهضبة، عقب حدث لا يمكن فصله عن الآخر؛ ففى الحقيقة لم يقدر لى أن أظفر بانتصار من نوع ما. ومن ناحية أخرى، فلو أننى كنت أملك المقدرة على تحقيق الانتصار، فلربما كنت الآن حُرا. إن حياتى الأولى لم تكن ساحة حرب بحيث يتسنى لى إخضاعها أو قهرها، بل كانت ساحة فكر وإمعان للنظر. ولكن كيف يتسنى لى أن أقهر أفكارى وتصوراتى؟ كنت أدعو من أعماق قلبى أن تكون الفترة المحددة للشعور بالحنين إلى الوطن قد انتهت على الأقل. ولكن كيف يمكن وضع خاتمة للإحساس القاطع بالضياع وبالاختلاف؟ لقد تنبأت بأنه سيكون مريرا ...بل إنه قد يصل إلى إقصى حدود المرارة!

فعلى ضفاف النهر المقدس (النيل)، كنتُ قد سعيت مع بلد بأسرها للحصول على مخرج ولو ضئيل من القدسية الجاثمة هناك بلا حراك.. كنتُ قد رغبت فى

الوصول إلى نوع معين من التحديث يتفق مع الأفكار التى كانت تتحرك بسرعة فى أرجاء أوروبا.. وخيراً فعلت! غير أننى لم أجد سبيلا إلى تجاهل أن المرحلة الأخيرة من مراحل حياتى كانت تحدو بى إلى الركض بسرعة خلال الخضرة التى أصابها الوهن، حينما كنت أحث الخطى للخروج من دائرة الهضبة، كى لا أرى بعينىْ الدمار الذى سيحيق بها. وحتى لو كنت أبغى أن أظل على قيد الحياة لفترة أخرى قصيرة، فإننى كنت أتوقع أن العمر لن يسمح بمهلة من الوقت لشخصى المتواضع. ولم يكن هذا بسبب أننى كنت شخصا متواضعا بين ألوف مؤلفة من المتواضعين... لا فليس الأمر كذلك، ولكن لأننى تُركتُ لأقع أسيرا فى فخ الحياة الفكرية. وبغض النظر عن أى معنى خاص مفاده أن براثن ذلك الفخ مستقيمة أو معوجة، فمما لا شك فيه أن فخ الحياة الفكرية قد اختطفنى، وأطبق علىّ بفكيه ومخالبه الحديدية ومزقنى إربا.

شعرت بالامتنان تجاه الطبيعة لصمتها الذى التزمت حياله بالحياد، فربتُّ بحنو على رقبة جوادى، لأننى رغبت من أعماق فؤادى أن يظل بالقرب منى، وعلى الأخص الآن، وأنا أدرك تماما أننى عند رجوعى إلى معسكر **كاستيلى** سوف أجد **إبراهيم باشا** وقد ازداد هرما بفعل الشيخوخة التى اشتدت وطأتها عليه.

الجزء الثالث

ختام الأسطورة

ختام الأسطورة

واروا جثمان **الفريق إسماعيل باشا** داخلَ نعش مصنوع من أخشاب الجزيرة (**كريت**)، وهى أخشاب تم صقلها وتبطينها بثنيات من قماش الستان، ثم تم وضع النعش بعد ذلك داخل صندوق من الرصاص، نظراً لأن (السفينة) كانت ستبحر به إلى مصر، ومن المحتمل أن يكون التحنيط المبدئى الذى قاموا به للجثمان غير كافٍ للحفاظ عليه. ثم حُمل الجثمان على متن سفينة أكثر من سواها سرعة، فانطلقت فى التو إلى الإسكندرية، حيث إن الرحلة البحرية للأجساد الميتة - التى تسبب الحزن والمرارة مع أنها تحرر الأرواح - ينبغى أن تكون سريعة؛ وقاموا بعد ذلك بوضع النعش فى البهو الكبير وغطوه بعلم المراسم. ولم يكن الطربوش العثمانى الأحمر القانى الموضوع على هامة **الفريق إسماعيل باشا** يضارع حمرة ثمرات التفاح بقدر ما كان يضاهى لون الدماء. وكان عدد من ضباط الصف يقومون بحراسة الجثمان والعبوس يعلو ملامحهم، وهم يركزون فكرهم فى حل لغز نهاية **الفريق إسماعيل باشا**.

وطلب ولى عهد مصر أن يطلعوه على جناح السرعة على الأسباب الحقيقة لموت قائد جيشه، وكان بمقدوره أن يخلق من هذا قضية دبلوماسية، حيث إنه حزن عليه فى الحقيقة حزناً شديداً. وكانت هناك شائعات متباينة قد تناهت إلى سمعه، من بينها أن **عمر باشا** قد اتهم (**إسماعيل باشا**) وزير حربية (**مصر**) بأنه مسيحى فى الخفاء ومحب لليونانيين، ومنها أن العلة قد أصابت روح **الفريق إسماعيل باشا** وازدادت وطأة المرض النفسى عليه بمرور الأيام. ولذا فإن ولى العهد طلب عقد جلسة استماع قبل الجنازة، وكأنه كان يبغى منها أن يكون مسلكه متوقفاً على ما يسمعه من ردود الضابط المعاون **للفريق إسماعيل باشا** على أسئلته. وبالفعل فلقد تساءل الضابط المعاون عما إذا كانت روح الراحل **الفريق إسماعيل باشا**

العليلة سوف تتعرض بمثل هذا التصرف للعذاب، حينما لا يتسنى لها أن تتحرر من عقالها قبل مراسم الجنازة، فى الوقت الذى كانت فيه كل الروائح والأصوات تشد من أزرها لكى تنفصل عن الجسد فى خاتمة المطاف؛ فلا ينبغى لأى أمر أن يعكر صفو الأجل المحتوم. ولكن حيث إن الضابط المعاون كان يحب الفريق الراحل **إسماعيل باشا** حباً جماً فقد أقسم على أن يروى باختصار شديد أسباب اغتيال الفقيد، على أن يقدم فيما بعد الدلائل اللازمة. وكبلاغ عام فإن الحقيقة هى أنه قد تم اغتيال **الفريق إسماعيل باشا**.

فبينما كانت المعارك حامية الوطيس مستمرة فى الهضبة، ترددت أقوال فى **كاستيلى** مؤداها أن الخائن - الذى دل العثمانيين على وجود منطقة عبور فى الهضبة لا توجد عليها حراسة - كان واحداً (من سكان الهضبة)، ثم جنده الأتراك وسخروه لخدمتهم واقتادوه معهم إلى الجبال. ولم يستطع سكان القرية التى ينتمى إليها هذا الخائن أن يتحملوا أن توجه إليهم تهمة الخيانة، لذا فقد عقدوا العزم على إنزال العقاب بهذا المجرم، ورفعوا إلى القس المبجل **يانيس كامبانيس** ما استقر عليه عزمهم فى أمر عقوبة الخائن، ربما لكى يضفوا على هذه العقوبة نوعاً من السلطة الروحية والباعث الدينى. وقام هذا القس باستدعاء ذلك الشخص المتهم بالخيانة إلى منزلـه، وطلب منه أن يذهب على جناح السرعة ليسلم رسالة منه إلى **كوراكاس** الذى كان موجوداً آنذاك فى دير قريب منهم. وكان هذا الرجل حامل الرسالة يخاطر بحياته، نظراً لأنه كان ينبغى عليه أن يمر وسط حصون الأعداء وهو يهرع لإنجاز مهمته. وكانت الرسالة الموجهة **لكوراكاس** تتضمن تعليمات واضحة بمحاكمة هذا الرجل بوصفه خائناً. ومن ثم فقد أسفرت المحاكمة عن الحكم عليه بالإعدام، نظراً لأن عقله قد أصيب بالشلل فلم يستطيع أن يقدم مبرراً واحداً يحملهم على تخفيف العقوبة عنه ولا شهوداً يبرؤون ساحته. وعندئذ التمس الخائن وهو يجهش بالبكاء من القائدين القائمين على تنفيذ العقوبة أن يطلقوا سراحه لمدة يوم واحد يحضر خلاله شاهداً على براءته، فقام هذان بقطع لسانه ثم تركوه وهو

غارق فى دمائه ليرحل كما طلب. بعد ذلك ألقى الأتراك القبض عليه واقتادوه إلى **عمر باشا** الذى كان قد رجع آنذاك إلى الهضبة. فقام هذا الرجل المتهم بجريمة الخيانة بالتحدث مع القائد الأعلى العثمانى عن طريق لغة الإشارة، بغية أن يجعله يقف على ما حدث. فأمر **عمر باشا** بإحضار القس **يانيس** لمقارنة شهادته بأقوال الخائن. ورغم أن المذنب لم يكن يستطيع الكلام (نظراً لقطع لسانه) فقد أدرك ما يمكن أن يحل به (من عقاب) بناء على هذا، فطفق يضرب صدره بيديه وهو يطلق صيحات مبهمة غير مفهومة، محاولاً أن يشرح أن هناك سلسلة متتابعة من سوء الفهم، إلى أن خر مغشياً عليه فى نهاية المطاف، وقام الأطباء الأتراك بحمله لعلاجه. وأصدر **عمر باشا** أمراً بتجريد القس (**يانيس**) من ملابسه، ودهن جسمه بالعسل، واقتياده ليراه الناس وهو مقيد على هذا النحو فى الميدان. وسرعان ما أقبلت أسراب من الذباب والزنابير والنحل وتجمعت فوق جسده وظلت تلسعه حتى فقد الوعى.

وتم إخبار **الفريق إسماعيل باشا** بما حدث، فنادى فى الحال على الضابط المعاون التابع له وبين له، - بينما كانا يسيران صوب الميدان - أنه لا يعرف القس رغم أنه كان يحمل نفس لقبه، ولكنه لن يدع ذلك المسلك الاستبدادى الجديد **لعمر باشا** يمر على هذا النحو. وكان الضابط المعاون يعلم حق العلم فضلاً عن ذلك أن هذه الطريقة هى الطريقة الوحيدة التى درج عليها (**الفريق إسماعيل باشا**) لسنوات طويلة عندما يريد أن يلمح إلى أصل مولده، وأنه كان يشير إلى صفته بذات الطريقة. وكان الضابط المعاون قد سمع هو أيضاً مؤخراً عن أصل مولد إسماعيل باشا، غير أنه لم يصدق تلك الشائعات المتباينة التى كانوا يهدفون بها إلى تجريمه، أو يعول كثيراً على صدقها. ولقد أخبره الباشا أيضاً أنه يعلم مدى الحنق والغضب اللذين يكنهما القائد الأعلى (**عمر باشا**) تجاهه، خاصة حينما أصدر (**الفريق إسماعيل باشا**) أوامره فى المعركة الأخيرة للجنود العثمانيين النظاميين بإطلاق النار على المقاتلين العثمانيين غير النظاميين. وأنه إذا كان (**عمر باشا**) قد أخفى غضبه آنذاك، فذلك لأنه كان يريد أن يرسم للأوروبيين صورة تقنعهم بأن النصر

الذى تم على يديه كان نصراً لامعاً وذا مغزى، حتى ولو لم يكن هذا الذى تم يطابق الواقع فى شئ؛ ثم أردف **الفريق إسماعيل باشا** قائلاً إنه من الآن فصاعداً لن يأبه بما سوف يحدث.

وصل كلاهما إلى الميدان، وكان **الباشا إسماعيل** يحمل بين يديه معطفاً ذا نسيج رقيق؛ثم أصدر أمره للجنود بفك أغلال القس وغسلِ جسمه بقدر وافر من الماء. ثم قام بتغطية جسد (القس) العارى الذى التهب وتقرح (بفعل لسعات الحشرات) بالمعطف، وطلب من الضابط المعاون أن يرافقه - أو بالأحرى أن يحمله - حتى باب منزله.

وقبل أن يقفل الضابط المعاون أدراجه عائداً بعد انتهاء هذه المهمة، استدعى **عمر باشا الفريق إسماعيل باشا** إلى خيمته لتجاذب أطراف الحديث. وبدأ عمر باشا حديثه بتلطف بالغ وكلمات ودودة، ثم نادى على الخدم لإحضار القهوة لضيفه، وما أن احتسى **الفريق إسماعيل باشا** قهوته حتى داهمته آلام رهيبة ومبرحة. حاول **الفريق إسماعيل باشا** أثناءها أن يقف على قدميه، كما حاول أن يستل مسدسه من غمده ويقتل به القائد الأعلى **عمر باشا**، لأنه أدرك أنه قد وضع له السم الزعاف فى القهوة؛ ولكنه تهاوى منهاراً على الأرض. وتظاهر القائد الأعلى **عمر باشا** بالدهشة والذهول وصرخ منادياً عليهم بإحضار طبيبه. وربما كان القائد الأعلى على حق فى ذعره، حيث إن الجيش المصرى كان يحظى بسطوة بالغة فى هذا المعسكر ذاته.

وعندئذ رجع الضابط المعاون (وعلم بما حدث)، فقام بنقل **الفريق إسماعيل باشا** خارج خيمة **عمر باشا**، ولكن بعد فوات الأوان؛ إذ عجزت أضداد السموم المصرية القديمة عن منح جسم الباشا المناعة لمقاومة هذا السم الزعاف، كما لم تجد فتيلاً الصلوات التى تليت بغية تقوية روحه، إذ يبدو أن هذا السم الفتاك قد انتشر بسرعة فى دمه كله. وعلى أثر ذلك قررت القيادة ترحيل قوات الجيش المصرى إلى مدينة **هيراكليون**، فرحلت فصيلة من الفرسان فى التو عندما كان الباشا لا يزال

فى طور الاحتضار، وبعد مرور ساعتين رحلت بقية قوات الجيش المصرى؛ وفكر الضابط أنّ من الأوفق ألا يقدم أحد آنذاك على إعلان هذا الذى حدث. وبينما كان **عمر باشا** يستعد هو أيضاً للتحرك مع جيشه خوفاً من هجوم مفاجئ قد يتعرض له، وفى الوقت الذى كان فيه الثوار الفدائيون يضربون ضربتهم فى موقعة أخرى بغية إلهاء العدو وتضليله، وحينما كان الممثلون المفوضون عن الأقاليم الشرقية للجزيرة يجتمعون من أجل دراسة مسيرة الأحداث، فاضت روح **الفريق إسماعيل باشا** إلى بارئها بمجرد توقف موكبه عند منطقة **سبيليا** (الكهوف) التى كانت مقراً للمعسكر العثمانى الموجود خارج المدينة. ولقد أسقط فى يد الضابط المعاون رغم أن عقله كان لا يزال يفكر، فلم يرسل أية رسالة إلى ولى العهد أو إلى أسرة الباشا، حتى ولو كان مفادها أنهم دسوا السم **للفريق إسماعيل باشا**. كذلك لم يكن من اللائق أن يلوذ الضابط المعاون بالصمت أو يغض الطرف عن ما حدث، حينما سمع بأذنيه **الفريق إسماعيل باشا** وهو ينادى باللغة اليونانية على والدته، وباللغة العربية على (صديقه) فائق الشهرة **إبراهيم باشا**، والد ولى العهد.

ولم يكن بوسع ولى العهد فى مصر أن يتقبل موت **الفريق إسماعيل باشا** (بسهولة)، فرغم أنه من ناحية كان يعلم بغير جدال أنه تابع للسلطان، إلا أن استعراض القوة من ناحية أخرى لم يكن يصادف هوى فى نفسه. وبغض النظر عن أسلوب الخداع والمراوغة وما كان يتطلبه ذلك من وجود سياسات تتسم بالغموض وعدم الثبات من جانب **الفريق إسماعيل باشا**، إلا أنه لم يقلل أبداً من شأنه كواحد من أشد الرفاق قرباً من قلب والده (**إبراهيم باشا**)؛ ولو أن مثل هذا الأمر كان قاصراً على مشاعره الشخصية دون سواها فهو لن يعنى شيئاً بالنسبة للوطن. ولكن كيف يتسنى (لولى العهد) أن يغض النظر عن الإنجازات التى بدأها جده محمد على باشا، والتى دعمها وعززها والده **إبراهيم باشا** خلال المدة القصيرة التى تولى فيها العرش، إلى أن قام الخديوى الذى ولى الأمر من بعده بتقويض دعائم حكمه رغم أنّه كان يمت إليه بصلة القرابة؟ وكيف يتسنى له أن يغض النظر عن أن هذه الإنجازات قد خسرت بالفعل واحداً من أخلص المؤيدين لها؟ وفى الحق

أن كلاً من **محمد على باشا** وابنه **إبراهيم** لم يكونا بمأمن من غائلة المعارضين لهما حتى داخل مصر، إذ كان هناك معارضون لهما حتى من بين من يمتون إليهما بصلة الدم، بل إن منهم من تمكن بالفعل من ارتقاء العرش. إذ دأب أصغر هؤلاء المعارضين سناً - عندما قفل عائداً إلى مصر بعد أن درس العلوم العسكرية فى فرنسا - على اتخاذ موقف المعارضة من قريبه الذى كان يحكم البلاد آنذاك،وأقدم على خوض حروب عديدة بانتظام ضده؛ ولقد تم اغتيال هذا الحاكم فيما بعد على يد عبدين من عبيده. ومن حسن الحظ أن الخديوى الحالى الذى تولى حكم البلاد من بعده* كان أكثر حصافة واتصافاً ببعد النظر، فبوصفه ابناً **لإبراهيم باشا** فقد واصل تحقيق الآمال والأحلام التى كانت قد توقفت. وكانت وجهات نظر ولى العهد متوافقة مع آراء قائد جيشه الذى تم اغتياله (فى الجزيرة)،فيما يتعلق بتحقيق هذه الأحلام التى كانت تشمل أبحاثاً علمية لا تتوقف مسيرتها،وإنشاء جمعيات أثرية ومتحف، والمضى قدماً فى تنمية زراعة الأقطان التى من شأنها أن تثرى البلاد إبان استمرار الحرب الأهلية الأمريكية. ولقد تمت هذه الإنجازات بالفعل خلال الأعوام الثلاثة التى تولى فيها عرش مصر إلى أن اضطر - إزاء صدور عدة فرمانات يشوبها التحيز.. وهذه حقيقة لا مراء فيها - إلى إرسال الجيش المصرى إلى جزيرة (كريت)، بهدف مد يد العون للسلطان العثمانى. وكانت هناك مهام محددة وواجبات معينة لوزير الحربية الموفد من قبله، أكثر تعقيداً من مجرد رد الهيبة التى سقطت وتبددت، وربما أكثر أهمية من نتائج المعارك ذاتها. فخلال الشهور التسعة التى أمضاها فى الجزيرة كان (**إسماعيل باشا**) يحيطه علماً بالتطورات التى حدثت بمصر، ومؤداها أنه تم تشكيل مجلس نيابى للشئون الداخلية والإصلاحات الإدارية، وأنه طبق فى الإسكندرية ولأول مرة نظام الانتخاب لمنصب المحافظ. ولقد وافق **الفريق إسماعيل باشا** على كل هذه التطورات ورحب بها لأنه كان يؤمن بضرورتها، بالإضافة إلى أنه قدم بوجه خاص بعض الاقتراحات التى حثَّ ولى

---

* من المرجح - بدرجة كبيرة كما سيرد فيما بعد - أن تكون الإشارة هنا إلى **الخديوى عباس باشا الأول** الذى تولى العرش بعد رحيل والده إبراهيم باشا، وإن كانت الأوصاف التى أطلقتها المؤلفة على سياسته وشخصيته تنطبق تماماً على **الخديوى إسماعيل باشا**، رائد التحديث والتطوير فى تاريخ مصر الحديث.

العـهـد فـيـهـا على ألا يتـخلى عن الخطط الطمـوحـة التى كـان قـد أخـذ على عـاتقـه إنجازها، وأن يشرع فى تحقيقها بغير إبطاء، لدرجة أن ولى العهد تساءل لبرهة من الزمن عما إذا كانت إدارة دفة الأمور فى زمن السلم تثير اهتمام قائد جيشه أكثر من إدارة دفتها إبان الحرب، رغم كون الأخير رجلاً عسكرياً من الطراز الأول! وكان ينبغى على ولى العهد فى هذه الآونة أن ينتظر صدور فرمانات جديدة خلال أيام، وهى فرمانات سوف يعرب فيها الباب العالى بالأحرى عن رغبته فى اعتبار هذا الحادث الأليم منتهياً؛ ولم يك من المتوقع حقاً أن تذكر هذه الفرمانات كلمة اغتيال بحال من الأحوال. ومن ثم فقد خطر بذهن ولى العهد أنه ربما كان من الأصوب أن ينتهى الموضوع عند هذا الحد بناء على اعتبارات عديدة:فلم يكن من مصلحته الآن أن يشتبك أو أن يتورط مع السلطان العثمانى فى أى أمر مهما كان، خاصة وأنه كان مستغرقاً بكل طاقته فى محاولة إنجاز مشروع هائل،هو إنجاز حفر قناة السويس. وكان خديوى مصر يعد العدة لافتتاحها فى احتفال باهر سوف يدعو إليه كل ملوك أوروبا وحكامها، كما قام بجولتين من أجل ذلك فى أنحاء القارة الأوربية*.

أصدر ولى العهد أوامره بإعداد العدة لكى تكون جنازة وزيره أعظم الجنازات قاطبة، وأن يظل الشعب يذكرها على أنها الأعظم بعد جنازة آخر خديوى حكم مصر، وقرر أن يتابع مراسم الجنازة بالاشتراك مع أسرة **الفريق إسماعيل باشا** معزياً أفرادها فى مصابهم الأليم، حيث إن الراحل كان أقرب الأشخاص - الذين ظلوا على قيد الحياة حتى الآن - إلى قلب والده المرحوم **إبراهيم باشا**، فضلاً عن أنه كان صديقاً حميماً له طوال حياته؛ وهو إذ يعزيهم فى فقيدهم فقد كان يرثى فى شخصه فى ذات الوقت نهاية حقبة بأسرها من الزمن. ثم إنه أمر الضابط المعاون للفقيد بألا ينبس ببنت شفه لأى شخص مهما كان بما حدث، إلى أن تتمكن إداراته ومصالحه الحكومية من التثبت من الحقيقة ودحض الوقائع. كما أخبره بأنه فيما

---

* تؤكد هذه الأوصاف وهذه المنجزات أن مؤلفة الراوية تضع فى ذهنها أن ولى العهد هو **الخديوى إسماعيل باشا** كما سبقت الإشارة فى الحاشية السابقة. ولكن من الصعوبة بمكان تاريخياً أن يظل **الفريق إسماعيل باشا حياً** حتى ارتقاء **إسماعيل باشا لعرش مصر**، بعد انتهاء عهد كل من الخديوى **عباس باشا الأول والخديوى سعيد باشا**.

بعد - بمجرد أن تتم كل وسائل البحث والتقصى - سوف يحيطه علماً عما إذا كان بوسعه أن يعلن على الناس ما قدر له أن يراه أم لا.

وبينما كانت الاستجوابات والتحقيقات تجرى على قدم وساق، كانت مدينة الإسكندرية التى ستقام فيها جنازة **الفريق إسماعيل باشا** تستعد وتتهيأ لهذه المراسم المبهرة، التى لم تكن الأولى ولا الأخيرة بالنسبة إلى حاكم البلاد. ولقد هبط طاقم بحارة السفينة - الذين رافقوا **الفريق إسماعيل باشا** فى رحلته الأخيرة إلى ميناء الإسكندرية الكبير - من على متن السفينة إلى البر. وكانت السفينة قد أرست مراسيها وأوثقت بالحبال إلى رصيف الميناء، وكان عليها أن تبقى هناك إلى أن تنبلج شمس اليوم التالى، حيث كان مقرراً لها أن تبحر عائدة مرة أخرى إلى جزيرة (كريت) حاملة على متنها القائد الجديد للجيش المصرى.

وهكذا فقد تصادف أن انتشرت شائعة روجها البحارة فى أرجاء المدينة، وقدر لها أن تصل تقريباً إلى القاهرة عن طريق خط السكك الحديدية، وأن تشق أرجاء الصحراء بصحبة القوافل حتى تصل إلى أكثر الأديرة المسيحية بعداً عن العمران، وأن تهبط بصحبة القوارب إلى مجرى النيل وتصل إلى أبعد مكان فى منابعه. وهى شائعة مؤداها أن **الفريق إسماعيل باشا** قد أصيب بجرح فى آخر معركة دارت بالهضبة، خلال اليوم الذى صدر فيه الأمر بخوض القتال، وكأنه كان يصدر بنفسه الأمر **لخارون*** أن يطلق النار عليه. وقال البحارة لبعضهم وهم على متن السفينة بصوت عالٍ يمكن أن يسمعه كل أفراد الطاقم إنه ترتب على هذا أنه تلقى جرحاً نافذاً فى معدته. وكان من السهل بناء على ذلك أن تنتشر شائعة بأنهم قد سمموه، ولكن هذا لم يحدث. وإلا فكيف يمكن أن يخطئ الأطباء، وهم الذين يعرفون مضادات السموم المُعدّة من نبات الريحان، وهم الذين حصلوا على الشهادات الطبية (الرفيعة) من بلدان أوروبا؟ وكيف كان ممكناً أيضاً أن يتقاعس **عمر باشا**

* خارون هو حارس العالم الآخر، وكان فى الأساطير الإغريقية هو الإله المكلف بتوصيل أرواح الموتى فى قاربه عبر نهر ستيكس Styx، أشهر نهر فى العالم الآخر.

عن التفكير فى عواقب ذلك، فيما لو تم العلم بمثل هذا التصرف لدى الجيش المصرى فى مدينة القاهرة؟ وفضلاً عن ذلك فقد كان هناك أشخاص أكدوا أن **الباشا إسماعيل** لم يلفظ أنفاسه الأخيرة فى منطقة **سبيليا** (الكهوف)، ولكنه لفظها بمجرد أن أصيب بطلق نارى فى معدته خلال المعركة. وحيث إن السفن كانت مستمرة فى القيام بسفرياتها، وحيث إن طاقم البحارة فى كل سفينة كان أول من يعرف المعلومات فى زمن الحرب، فقد انتشرت شائعة مؤداها أن **الفريق إسماعيل باشا** قد أصبح تركيا بعد أن تم أسره وهو غلام صغير، وأن شقيقه - الذى كان مواطنا أثينيا واسع الثراء وبالغ القوة والنفوذ، وواحداً من رجال البر والإحسان فى بلده - قد خصص شطراً كبيراً من ثروته لدعم الثوار الفدائيين وتمويلهم. إذ قام بشراء ما هو بحوزتهم الآن من أسلحة حديثة وذخيرة، كما اشترى لهم سفناً بخارية وخصصها لخدمتهم، فضلاً عن أنه دعمهم بما كانوا يحتاجون إليه من لوازم أخرى، مثل الأدوية والأطعمة والملابس. وقالوا إنه حينما تم الإعلان عن أنباء سارة (للثوار) - فى إحدى جلسات اللجنة الثورية - عن مصرع قائد القوات المصرية فى الجزيرة إبان المعركة الأخيرة التى جرت فى الهضبة، وقع شقيقه هذا عن كرسيه مغشياً عليه بعد أن صرخ قائلاً: «*وامصيبتاه! لقد قتلت رصاصاتى شقيقى الوحيد*». ولقد تسببت هذه الشائعات فى خلق لغط وسريان همس فى مدينة أثينا، لا لأن الناس لم تكن تعرف - فالبعض منهم على الأقل كان يعرف - بصلة القرابة هذه بين الشقيقين، بل لأنهم لم يتوقعوا تفجر كل هذه العاطفة الجياشة على هذا النحو.

ولقد أكد طاقم البحارة على أن هناك أمراً واحداً فقط يمكن التعويل على صحته، وهو أن كافة المخلوقات لها مسار دائرى على ظهر الأرض لابد لها من عبوره قبل انطفاء بريقها واختفائها، وأنه فى خلال هذا المسار تسفر البداية الخاطئة فى أغلب الأحيان عن خاتمة خاطئة كذلك. ولقد انتشر هذا الاستنتاج تقريباً فى البلدين بنفس الصورة رغم نشوب الحرب بينهما، وهى حرب كان من شأنها أن تضع كل بلد منهما على طرفى نقيض من البلد الآخر.

ولم يتمكن - على أية حال - أى شخص من أفراد الطاقم، ولا أى شخص من ضباط حرس الشرف، ولا حتى الضابط المعاون ذاته الذى لم يغادر بهو السفينة حتى للحظة واحدة، لم يتمكن أى من هؤلاء من رؤية الطيف الذى كان يبدو على هيئة كتلة مركزة من الهواء والعطر؛ إذ طفق هذا الطيف يقترب مراراً ويرتكز على نعش الباشا الراحل. وكانت أطراف العلم المصرى المصنوع من الحرير والتى تصل حتى الأرضية ترتجف كلما مر عليها الطيف، وكأنه كان يداعب قطعة حرير أخرى من فوق أطراف هذا العلم، أو كما لو كانت هناك نسمة مباغتة قد هبت لتنعش هذا الجو الحار الساكن ساعة الصباح.

وطالما أن الطيف كان يفتقر إلى الصوت وكان عاجزاً عن أن ينبس ببنت شفه، وطالما أنه لم يكن قادراً على أن يدون أية كتابة بيديه التى لم يكن لها وجود حقيقى، فقد ظل عاجزاً عن أن يقص ما لديه من أدلة أو براهين على الضباط الموجودين فى بهو السفينة، ولا على البحارة الذين كانوا يتجاذبون أطراف الحديث زرافات فيما بينهم على سطح السفينة، وهم يبتغون الحصول على نسمة هواء منعشة من البحر ترطب وجوههم. وكانت زرقة البحر قد تبلورت على شكل جسم جامد، وكأنها كانت تحصن نفسها ضد سيولة الحياة البشرية وقضاياها. وعلى هذا النحو لم يقدر لهذه البراهين أن تصل قطُّ إلى مصر، لا.. ولم يقدر لها أن تستنفد الرحلة التى كانت الشائعات تقطعها فى العادة، بل ظلت جاثمة فى جزيرة (**كريت**) وفقاً لما تم الاستدلال عليه على وجه الدقة من طيف **إبراهيم باشا**، الذى استمر يقطن خيمة صديقه **الفريق إسماعيل باشا**، حتى بعد رحيله (أى رحيل **إبراهيم باشا**) عن الحياة بسبب الشيخوخة الداهمة؛ إذ ظل ينتظر صديقه حتى يرجع من الهضبة ويعودان معاً إلى أرض النيل. وفضلاً عن ذلك فلا ريب أن هناك أثراً يبقى على الدوام فى المكان بعد أن يمر خلاله طيف معذب.

شاهد طيف (**إبراهيم باشا**) إذن الباشا (**إسماعيل**) على أثر عودته جريحاً من الحملة العسكرية، وبدا له أن **الباشا إسماعيل** قد فقد نهائياً قدرته على تحديد

الأشخاص وعلى تمييز الكلمات، رغم أن سحنته كانت تشى بذلك منذ انقضاء وقت كاف وحتى هذه اللحظة. ثم أرسل **الباشا إسماعيل** سراً فى طلب امرأة كانت تقطن فى القرية التى كان الجيش يعسكر فيها، وظل ينتظر قدومها والقلق يستولى عليه، إذ كان يسير جيئة وذهاباً ويرقب مدخل الخيمة مراراً وتكراراً. وما أن ولجت المرأة باب الخيمة المصنوع من القماش حتى بادر الباشا بإغلاقه خلفها، وكانت المرأة طاعنة فى السن ومتدثرة فى إحكام بثياب ومحارم داكنة اللون، غير أن هذه الثياب عجزت عن إخفاء رعشة جسدها. وقام **الباشا إسماعيل** برفعها من الأرض (حيث جثت راكعة أمامه) وطلب منها الجلوس؛ غير أن المرأة لم تتمكن من الجلوس بسبب الذعر البالغ الذى تملكها. ودارت بين الإثنين محادثة، ولكن طيف (**إبراهيم باشا**) عجز عن فهم ما كانا يقولانه، نظراً لأنه لم يلتق من قبل فى الفردوس الذى كان يحيا فيه بأشخاص يونانيين، كما أنه من ناحية أخرى كان قد نسى ما سبق أن تعلمه فى حياته من اللغة اليونانية. ومع ذلك فقد استطاع أن يخمن فحوى الحديث الذى كان دائراً بينهما، والذى توقف بعدها عند نقطة ما، عندما قامت المرأة العجوز بمعانقة الباشا وكأنها كانت ترثيه لأنها فقدته عندما كان طفلاً صغيراً. ثم شاهد طيف (**إبراهيم باشا**) بعد ذلك صديقه **الباشا إسماعيل** وهو يفك أزرار ياقة قميصه قليلاً ليطلع المرأة على علامة كانت موجودة فى الجزء السفلى من عنقه. ولم يكن الطيف بقادر على أن يعرف من مكانه الذى كان يقف فيه ما إذا كانت هذه العلامة صليباً صغيراً أم مجرد علامة مميزة داكنة اللون. وبعد أن أجهد الطيف ذاكرته تذكر أخيراً أنه شاهد من قبل علامة فى عنق **الباشا إسماعيل** ولكنه لم يعرها أدنى اهتمام، علاوة على أن **الباشا إسماعيل** نفسه لم يحدثه أبداً عنها. غير أن المرأة بمجرد أن شاهدت تلك العلامة حتى انخرطت فى البكاء، وطفقت ترسم علامة الصليب مراراً، ثم احتضنت بعدها **الباشا إسماعيل** الواقف إلى جوارها وأخذت تقبله وهى تجهش بالبكاء. وكانت الكلمات التى قدر للمرأة أن تضيفها إلى ما قالته - خلال المدة التى أمضتها فى الخيمة - تتناهى لأذن طيف **إبراهيم باشا** بطريقة منغمة جداً، لدرجة أن الطيف افترض أنها لابد وأن تكون

مرثية حزينة، أو أشعاراً من مزمور من مزامير المسيحيين. ولقد تحقق طيف **إبراهيم باشا** فى نفس الوقت من أن كل ما شاهده ووقع عليه بصره لم يحرك قط مشاعره، وذلك لأن سنوات طويلة قد مرت عليه الآن ابتعد خلالها عن عالم الأحياء الذى تسيطر عليه مشاعر القلق والاضطراب. ولكن مرت على خاطره فقط ولبرهة من الزمن فكرة إنزال العقاب بالمذنب - نظراً لأن **الباشا إسماعيل** كان يبدو فى نظره مذنباً، فى الوقت الذى كان فيه **إبراهيم باشا** ملكاً - عن طريق تطبيق إحدى العقوبات التى وضعتها الإمبراطورية العثمانية لتهمة اعتناق المسيحية فى الخفاء. وبناء على ذلك، فبغض النظر عن ارتكاب الخيانة، فإن صديقه **الباشا إسماعيل** ظل أجنبياً خلال كل هذه السنوات. ولقد تأكيد لطيف **إبراهيم باشا** تواً بعد ذلك أن فكرة إنزال العقاب بالمذنب ليس لها أن تبعد عنه ما يشعر به من ضيق وتبرم، استناداً إلى استنتاج مفاده أن **الفريق إسماعيل باشا** ظل دائماً أجنبياً بمحض رغبته؛ كما أن هذه الفكرة ليس لها أن تقلل من تعاطفه معه عندما كان من قبل أسيراً. أجل! فليس لهذه الفكرة أن تعكر صفو الاتزان الذى أصبحا ينعمان به معاً بعد الموت، كما أن كل ما هو عدا ذلك - سواء أكان عقوبات أو قوانين أو ديانات - فإنه ينتمى إلى حق الملوك الزهوق سريع الزوال.

ولقد تصادف على أية حال وجود حارس آنذاك فى الخيمة، وكان هذا الحارس واحداً من الوشاة عيون **عمر باشا**، وكان يعرف اللغة اليونانية معرفة جيدة؛ ولهذا اختاروه بدقة فائقة لأداء هذه المهمة. ولقد استطاع هذا الجاسوس أن يرفع غطاء باب الخيمة القماش قليلاً، فشاهد على وجه الدقة ما حدث بين **الباشا إسماعيل** والمرأة، وأبلغ القائد الأعلى **عمر باشا** فى الحال بما رآه. وبعد مرور يومين على هذا أمر **عمر باشا** هذا الجاسوس بقتل **الفريق إسماعيل باشا** بالسم، وأصدر إليه تعليماته بأن يقدم للباشا قهوة ومعها قدر من ثمار التوت الحلوة. كما أمره بأن يدس فى القهوة سماً زعافاً وأن تكون ثمار التوت التى مع القهوة بيضاء اللون، حتى لا يتطرق الشك إلى قلب **الباشا إسماعيل** بعد أن يحس بالآلام المبرحة،

وحتى لا يستدعى الأطباء على جناح السرعة. كذلك أمره **عمر باشا** بأن تقوم امرأة شابة رائعة الجمال من القرويات فى المنطقة بتقديم القهوة والتوت للباشا، كى تغريه على تناولها بابتسامة آسرة جذابة.

ولقد سرى السم الفتاك بسرعة فى دماء **الفريق إسماعيل باشا**، ولم تُجدِ فتيلاً مضادات السموم التى قدمها له الأطباء الذين تم استدعاؤهم على عجل. وهنا قام طيف **إبراهيم باشا** بمسح العرق الذى كان يتفصد على جبهة **الفريق إسماعيل باشا**، ثم أمسك بيده بينما كان يتلوى من فرط الألم. وكان الطيف يدرك أن صديقه العزيز سرعان ما سيفقد الإحساس بأنه بشر، لأنه سوف ينتمى إلى عالم الأطياف (الأثيرى) فائق البساطة.

كانت هذه هى الحقيقة!ولكنها لم تمس روح **الباشا إسماعيل**... إذ ظلت روح **الفريق إسماعيل باشا** فى جزيرة (كريت) ولم يقدر لها أبداً أن تعاود الذهاب إلى لجة الألم؛ وكان هذا بدوره ضرباً من ضروب السعادة. ولقد حدث هذا لأن الأتراك الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة - من أجل أن يقوموا بإخفاء هذه الفضيحة التى كانت تهدد بافتضاح أمر جيش الإمبراطورية العثمانية وتشتيت شمله أثناء اشتعال الحرب - قرروا إقامة نصب تذكارى على شكل قبر فارغ تكريماً للراحل **إسماعيل باشا**.

وكانت العادة المرعية فى تلك الأثناء هى أن يتم دفن مشاهير المسلمين فى البساتين المحيطة بالمساجد، لذلك فإن الضريح الذى أقيم **للفريق إسماعيل باشا** قد تم تشييده فى حرم مسجد الوزير الذى كان بناؤه على وشك الانتهاء. وكان مسجد الوزير هذا قد دُمر قبل أحد عشر عاماً بسبب الزلزال الكبير الذى وقع، ثم أعيد بناؤه مرة أخرى فوق الأساسات القديمة فى نفس الموقع، الذى كانت توجد فيه - منذ قرون عديدة انصرمت - كنيسة أرثوذكسية أو كاثوليكية، وفقاً للمذهب الذى كان يتبعه حاكم الجزيرة آنذاك. وقبل أن يتم تسليم (هذه الكنيسة) إلى الغازى

المنتصر الذى استولى على مدينة **خانذاكس كيوبروليس** Chandax Kioprou-lês لكى يجعل منها معبداً، تضعضعت جنبات (الكنيسة) بفعل الزلازل المتكررة، أو ربما احترقت بعد أن أضرمت فيها النيران التى لم تفلح رغم ذلك فى تدمير شهرتها القديمة، بوصفها كنيسة للقديس **تيتوس**، فالحق أن هذه الشهرة ظلت قائمة دون تغيير يذكر لوجود رفات القديس **تيتوس** داخلها. ثم قام البيزنطيون من بعد ذلك باتخاذ حرم هذه الكنيسة الموجودة بالجزيرة مدفناً لأساقفتهم وقواد جيوشهم. وعندما حكم أهل **فينيسيا** الجزيرة، اعتادوا أن يدفنوا فى هذه الكنيسة الأشخاص الذين حصلوا منهم على رتبة الدوق وكذا كبار قادتهم وأساقفتهم. ولما احتل العثمانيون الجزيرة من بعدهم، اعتادوا أن يدفنوا فى هذا الحرم المقدس (بعد أن صار مسجداً) باشاواتهم ومشاهيرهم الآخرين. كان من المقدر إذن أن تستريح فى هذا المكان روح **الفريق إسماعيل باشا**، بجوار مدفن **حسن باشا** الذى تصادف أن اتخذ (إسماعيل باشا) أسيراً منذ سنوات طويلة خلت، ثم قدر (**لحسن باشا**) أن يلاقى نحبه بعد سقوطه من فوق جواده على الصخور، أثناء انطلاقه من مدينة **كاستيلى** كى يعود إلى مدينة **خانذاكس** منتصراً*.

ولقد ظل هذا المدفن الخاوى - الذى أقيم هناك **للفريق إسماعيل باشا** - قائماً لسنوات طويلة، توازى تقريباً فى مجموعها السنوات التى قدر **للباشا إسماعيل** أن يعيش فيها بمصر وبجزيرة **كريت** معاً. ولكن فى الثلاثينيات من القرن التالى،أدى إنشاء مدرسة ابتدائية فى هذا الموقع إلى تدمير الأضرحة والمدافن التى كان الأتراك قد خلفوها مؤخراً فى هذه الجبانة،حيث كانت الأجزاء التى لا يوجد عليها نزاع أو خلاف تنتمى عادة لواحدة من الدول المختلفة صاحبة الحق فيها،أو تنتمى لإحدى الديانات المختلفة، أو تنتمى لضرورة ما. وكان وجود هذه المدافن (على هذا النحو) لا يتفق مع الصورة الأوروبية الحديثة، التى كانت المدينة تطمح فى اتخاذها أو الظفر بها بسرعة تستحق الإعجاب والإشادة. وكان هناك أشخاص

* عن هذه الأحداث أنظر خاتمة الفصل الأول من الجزء الأول أعلاه.

يجاهرون بأنهم من أنصار تدعيم الذكريات الشفهية المتواترة عن إخفاء **الباشا إسماعيل** لديانته المسيحية، وكان هؤلاء الأشخاص يعارضون هدم الأضرحة والمدافن، ويحرضون الناس بالتالى على اتباع الروايات الأخرى المتواترة التى تتعلق بالنسخة المدونة تاريخياً.

وكان لهذه المدرسة الإبتدائية (التى تم تشييدها فى الثلاثينيات من القرن التالى) فناء متسع، وكانت روح (**الفريق إسماعيل باشا**) قد حلّت فى جسد غلام من تلاميذ هذه المدرسة، فطفق هذا الغلام يلهو ويلعب - فى فترات الاستراحة الموجودة بين الحصص المدرسية - مع أقرانه من التلاميذ فى الفناء الرحب. وكان التلاميذ الصغار فى كل عام - عقب انتهاء شهر مايو وعند ارتفاع درجة حرارة الجو إبان شهر يونيو - يتخذون مأوى مفضلاً لهم تحت ظل شجرة، ويطلبون من هذا الغلام أن يروى لهم نفس الحكاية إلى أن يسمعوا دقات الجرس.

وهكذا طفق الغلام يقص عليهم أنه فى ذلك المساء دخل **الفريق إسماعيل باشا** إلى مسكنه، وتحدث مع ذويه عن تلك الصلوات القديمة التى كانت تستحوذ على روحه، وأخبرهم بأنها لم تعد كافية بمفردها (لبث الطمأنينة فى نفسه). فلقد كان يشتهى رؤية الأطياف منذ أمد بعيد، وبأنه طوال نصف قرن أو يزيد كان يتلهف على حدوث هذه المقابلة التى منحته فرحة غامرة، رغم أنه لم يكن هو ذاته شخصاً متديناً. ولقد شعر (الباشا) بالاغتباط لأنه أصبح فى وسعه أن يشاهد شقيقه الذى ظل على قيد الحياة، وإن كان يحس تجاهه بمشاعر مجهولة غامضة.

وعندما التقى الشقيقان أخذا يتحدثان فى البداية بصعوبة، ذلك لأن العودة (إلى الوطن) بعد سنوات طوال تعتمد دوماً على رابطة الدم، ورابطة الدم تصعب الأمور. وشاهد **الباشا إسماعيل** فى رؤياه أن والديه قد استقبلاه بقبول حسن فانخرط فى البكاء، وقال لهما إنه لم يكن يريد أن يرحل بعيداً عنهما حيث إنه كان لايزال طفلاً غضاً صغير السن، وقال لهما أيضاً إنه لم يكن يرغب فى أن يشب عن الطوق على نحو آخر، حتى ولو قدر له أن يتجشم مشقة (قدوم) اليوم التالى وعناءه. فإذا

كان الموتى بقادرين على أن يُثَبِتُوا سريان الزمن عند نقطة معينة، فإن هذا يعتبر بحق أهم إنجاز لهم فى مسيرة الحياة المتواضعة، رغم أنه لم يكن بوسعه بعد أن يتقبل فكرة أنهم كانوا أحياناً هم أنفسهم يتغيرون عندما يثقل كاهلهم ميزان الحب. وفى هذه الليلة كان مرامه أن يصير خالداً مافى ذلك شك، لأنه كان يشعر بأنه قد ارتفع فوق كل الأشكال وفوق كل الكلمات، وأصبح قادراً على لمس المعرفة المطلقة. فلقد ظل يفترض لسنوات طوال حتى الآن أنه سيلتقى هناك بالبراءة المفقودة. ومع ذلك فلم يكن الأمر يستحق بالنسبة له أن يشعر آخر الأبرياء بالسعادة ما لم يكن مماثلاً له. فى هذه الليلة إذن وفى منزله القديم طفقت البراءة تبتسم، كما لو كانت الملاك الحارس للذاكرة الذى نجح فى العثور عليه. وتردد الباشا فى تصديق هذه المعجزة، ولكنه مد يده لكى يلمس بها الملاك. وعندئذ فقط شاهد الحبات السوداء التى كانت تلتف حول العناقيد، فتقهقر خطوة إلى الخلف. ثم ومضت فى عقله بغتة فكرة ذات بريق، فهم على أثرها أنه لا يوجد ولم يوجد فيما مضى شيئاً يتصف بالبراءة يمكن فقدانه. وبالتالى فقد أدرك أنه لا يوجد، بل ولم يوجد فيما مضى على الإطلاق مجال للعودة.

وهنا نهض **الفريق إسماعيل باشا**، واقترب من ركن المدفأة، وجذب قطعة الحجر من الكوة (الموجودة بالحائط)، ثم لثم خطاب شقيقه **أنطونيس** دون أن يعاود فتحه، ثم قام بتمزيقه إلى قطع صغيرة. بعد ذلك استل من زناره المدية القديمة التى كان يخفيها دوماً فيه، ثم أغمدها فى فؤاده.

رقم الإيداع ١٩٨٥ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 320 - 116 - 3 الترقيم الدولى

مطابع التجارية - قليوب - مصر